

سلافوي چيچيك

مرحبا في صحراء الواقع

خمس مقالات حول 11 سبتمبر وتواريخ مرتبطة به

ترجمة: أحمد حسان

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

WELCOME TO THE DESERT OF THE REAL !
FIVE ESSAYS ON SEPTEMBER 11 AND RELATED DATES

تأليف

SLAVOJ ŽIŽEK

نشر مطبوعات

Verso 2002

إلى بامبلا باسكو و إريك سانتتر ، دون أدنى شك !
=====

إهداء الترجمة : إلى خالد السرجاني
=====

المحتويات

تصدير المترجم

مقدمة : الحبر الناقص.

1. الشغف بالواقعي ، الشغف بالمشابهة .

2. إعادات تملك : درس الملاً عمر .

3. السعادة بعد 11 سبتمبر .

4. من الإنسان المخلوع الى الإنسان الأبله .

5. من الإنسان المخلوع الى الجار .

خاتمة : رائحة الحب .

تصدير المترجم

يُعدّ سلافوي جيجيك (ليوبليانا، 21 مارس 1949) نجم الدراسات الثقافية بلا منازع خلال العقدَيْن الماضيين. وصف بأنه "عملاق ليوبليانا"، و"إفيس" النظرية الثقافية، في إشارة إلى إفيس بريسلي، نجم البوب الساحق في الخمسينات.

اعتبره الناقد البريطاني تيري إيجلتون ألمع شارح للتحليل النفسي، بل وللنظرية الثقافية عموماً، خلال عقود عديدة.

يعمل جيجيك أستاذاً في المدرسة الأوروبية للخريجين، ومديراً دولياً لمعهد بيركبيك للعلوم الإنسانية، التابع لجامعة لندن، وباحثاً متميزاً بمعهد السوسولوجيا بجامعة ليوبليانا، بسلوفينيا، وأستاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأوروبية والأمريكية.

نال درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ليوبليانا و درس التحليل النفسي لمدرسة جاك لاكان في باريس. لكنه في كتاباته يهدم الحدود بين الفلسفة و علم النفس والأدب والسياسة، ويطعمها بجولات في النقد السينمائي، والثقافة الشعبية، والنكات، إلى آخره.

ولا يخلو كتاب من كتبه ذات العناوين الأخاذة من مناقشات لآراء هيجل ، وماركس، وكانط ؛ وملاحظات عن كافكا والكتاب الواسع الانتشار في الثقافة الشعبية ؛ وإحالات إلى الموسيقى والأوبرا (فاجنر، وموتسارت) ؛ ونكات من الأخوين ماركس، ونكات أخروية وجنسية بذية بدرجة أو بأخرى، ومداخلات في تاريخ الفلسفة، من سبينوزا و كيركجارد حتى كرييكه Kripke و دينيت Dennett؛ وتحليلات لأفلام هيتشكوك وغيرها من منتجات هوليوود؛ وإشارات إلى الأحداث الراهنة ؛ وشروح للنقاط الغامضة في مذهب لاكان؛ وجدالات مع منظرين معاصرين آخرين (ديريدا، و ديلوز)؛ ونقاشات في اللاهوت المقارن؛ وتقارير حول الفلسفة الإدراكية والاكتشافات العلمية في مجال الأعصاب، . . . وهلم جرا.

المشكلة في كل هذا ، كما يرى الناقد الأمريكي فريدريك جيمسون ، أن هذه المكونات تشكل نوعاً من "عروض المنوعات" النظرية ، تتوالى فيها سلسلة من "النمر" تجعل الجمهور في قبضة الانبهار المنتشي . إنه عرض رائع ؛ لكن عيبه الوحيد هو أن القارئ يتحير في النهاية بشأن الأفكار المعروضة ، أو على الأقل بشأن الأفكار الأساسية التي يجب الحفاظ عليها .

ومنذ عام 1989 ، عام ظهور أول كتبه بالانجليزية : موضوع الإيديولوجيا المتسامي ، عن مطبوعات فيرسو ، تشكل له في العالم الأنجلوسكسوني جمهوراً واسع ومخلص من الخارجيين عن الأطر الرسمية داخل وخارج الجامعات . ونشر جيجيك أو حرّر منذ ذلك الحين أكثر من عشرين كتاباً من أكثر الكتب رواجاً في الدوائر اليسارية والمتمردة .

وقد مكّنه اتساع دائرة اهتمامه في الفلسفة و العلوم الإنسانية ، مع كونه أبرع شارح لمفاهيم لاكان

، من امتلاك أداة ثرية وخصبة لتحليل وكشف الجانب السفلي اللاواعي و البذء للمقولات والشعارات التى تشكل أطر التفكير فى عالم اليوم .

وتُضاعف من القيمة التفسيرية لهذه الأداة راديكاليته فى رفض النسبية ما بعد الحداثية ، والمقولات من قبيل "نهاية التاريخ" ، و "صدام الحضارات" ، بل وإعلانه أنه لينيني ، تصديقاً لرفض "السرديات الكبرى" السائد اليوم .

والكتاب الحالى يأخذُ على عاتقه مهمة التباعد عن الهستيريا والخطابة المتحيزة اللتين سادتا الغرب فى أعقاب الحادي عشر من سبتمبر ، سعياً إلى إبراز الطابع الإشكالي للخيارات التى يواجهها .

يؤكد أن الرأسمالية أصولية ويكشف كيف كانت أمريكا شريكة متواطئة فى صعود الأصولية الإسلامية . ويشير إلى حلم الغرب بالمأساة ، قبل وقوعها ، فى العديد من أفلام الكوارث ، ويبرز مفارقة استخدام المأساة لإضفاء المشروعية على التعذيب . وفوق ذلك ، يحلل إخفاق الاستجابة اليسارية السائدة للأحداث .

والأهم أنه يكشفُ زيفَ مُطالبتنا بالاختيار بين "الديموقراطية" وبين "الأصولية" ، كأن البديل الوحيد لـ "الأصولية" هو النظام السياسى لـ "الديموقراطية الليبرالية" .

إذا كانت مقالات الكتاب الحالى قد كُتبت فى ظل الانتفاضة الفلسطينية الثانية (2000 - 2005) ، فإن هذا التصدير تجرى كتابته فى آخر أيام عام 2008 ، فى ظل مجزرة إسرائيلية جديدة فى غزة وصل فيها عدد الضحايا الفلسطينيين بعد خمسة أيام من القصف بالطائرات والدبابات والمدافع والبحرية إلى نحو 400 قتيل وألفي جريح ، فضلاً عن الدمار الواسع النطاق* .

ومنذ اللحظات الأولى للهجوم الإسرائيلى الوحشى على المدنيين دون تمييز ، سارع المندوب الأمريكى إلى الأمم المتحدة إلى إعلان "تفهم" دوافع إسرائيل ، وألقى اللوم على حركة حماس التى تسيطر على غزة لإنهائها هدنة لم تحترمها إسرائيل فى أية لحظة .

وعلى الجانب العربى - الموالى فى أغلبه لواشنطن والمقيد بضغوطها الحاسمة - حاول وزير الخارجية المصرى تحميل حماس تبعة التدهور فيما أدانها الرئيس الفلسطينى محمود عباس مباشرة معتبراً أن الهجوم كان يمكن تجنبه .

هل يُعدّ ذلك تواطؤاً مع الجاني وإلقاءً للوم على الضحية ؟ هذا ما فهمته الجماهير العربية التى خرجت تحتج على العدوان وتحاول اقتحام المقار الدبلوماسية المصرية فى بيروت والخرطوم واليمن .

ووسط مشاهد الدم والدمار المؤثرة ، يظهر الناطق العسكرى الإسرائيلى على قناة الجزيرة القطرية ليردّ على كل الأسئلة بكلمة حماس : حماس هى التى تقصف المستوطنات الآمنة لتقتل المدنيين الأبرياء . وهى التى تضع بنيتها الأساسية وسط المدنيين وتحمل بذلك تبعة الضحايا ، بل إن قصف المساجد جاء لوجود عناصر حماس فيها . الحملة إذن ، من هذه الزاوية ، لا تستهدف المدنيين الفلسطينيين - الذين احتلت صور ضحاياهم نصف الشاشة وهو يتكلم - بل تستهدف حماية المدنيين الإسرائيليين .

لكن صور الضحايا التي تحتل نصف الشاشة ، من عجائز ونساء وشباب وأطفال ، تدفع المشاهد - الذي تحثه كل وسائل الإعلام على تعليق آماله على "عملية السلام" العبثية الدائرة منذ عقود - الى التشكك في التصريحات الإسرائيلية ، التي تُحدّد نغمة الخطاب الدولي بشأن الأزمة ، وهو خطاب يقتصر إما على التشديد على حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها أو على التسليم بهذا الحق مع إدانة استخدامها المفرط للقوة .

ويزيد من تشكك المشاهدين تصريح مسئول وكالة غوث اللاجئين "أونروا" ، الذي يُسلم بدعوى إسرائيل أنها تهاجم قواعد حماس ، لكنه يتساءل عن السبب في قتل ثمانية من طلاب الوكالة بغزة بقصف إسرائيلي ويطالب بتحقيق دولي . وبالطبع يكرّر التحذير من حالة مستشفيات غزة التي لا تستطيع أن تستوعب سوى أقلية ضئيلة من الضحايا المحظوظين بعد أن استنزف الحصار الطويل الأدوية والمعدات الطبية .

والتشكك له بالطبع ما يبرره . فإسرائيل التي انسحبت من القطاع للتخلص من عبء سكانه الثقيل ، ما زالت تحاصره من البر والبحر والجو ، مع عمليات اقتحام وقتل لا تتوقف .

وحماس ، التي استولت على السلطة بانقلاب في القطاع ، تعلن من قفص الحصار استنثارها بالمقاومة في مقابل سلطة فلسطينية فاسدة ومتخاذلة .

لكن المشكلة أشدّ تعقيدا . فتحت التصريحات الملتهبة من الجانبين تسعى إسرائيل الى فرض هدنة دائمة على حماس تريحها من الصداق السياسي المزمن الذي تفجّره الصواريخ البدائية الصنع ، لكن دون أن ترفع الحصار الخانق الذي تفرضه على القطاع .

وتسعى حماس إلى أن تثير ، بدم مواطنيها ، ردود فعل واسعة النطاق تؤدي الى رفع الحصار لتوفير الاستقرار لحكمها .

لكن ألا يذكّرنا منظر الناطق العسكري الإسرائيلي - الذي يُدافع عن المدنيين الإسرائيليين "الأبرياء" بقتل نظرائهم الفلسطينيين "المدنيين ضمنيا" لقبولهم حكم حماس - بمنظر جنرال نازي يدافع عن الأمة الألمانية ضد اليهود المتأمرين ؟

ألا تذكّرنا التصريحات "المتفهمة" للوحشية الإسرائيلية بالتواطؤ مع النازية قبل الحرب العالمية الثانية ؟

وهل يمكن فعلا اعتبار المواطنين الإسرائيليين "أبرياء" وهم يتواطؤون على قتل المدنيين الفلسطينيين وحصارهم والتمييز ضدهم وسجنهم في وضعية "الإنسان المخلوع" أو المنبوذ ضد كل الأعراف الدولية .

يبدو الموقف الدولي وكأنه يركّز على تحويل المشكلة ، السياسية جوهريا وفي المقام الأول ، الى مشكلة إنسانية نكون مطالبين بمقتضاها بتخفيف معاناة الفلسطينيين .

وهذا الموقف شديد الفائدة لإسرائيل وللغرب من عدة زوايا :

- فهو يحول دون الطرح الواضح للأسس السياسية للمشكلة والتي لا تملك الصهيونية حلاً لها ، بل إن محاولة بحث هذه الأسس يعني تقويض أسس الصهيونية ذاتها . وهكذا تنتغل المحافل الدولية بمعالجة التبعات الإنسانية للأزمة دون النفاذ الى جوهرها السياسي .

- ويتيح ذلك إعادة الطرح السياسية التبسيطية للمشكلة على أنها مشكلة نزاع بين شعبين على مطالب متكافئة في قطعة أرضٍ محدودة يرى كل طرف أن له حقا تاريخيا فيها .

- أما الميزة الكبرى لهذا الطرح "الإنساني" للمشكلة فهو إزاحتها عن بؤرة الاهتمام ، نظرا لوجود عدد من المآسي الإنسانية الأخرى التي تتصارع معها على مركز الصدارة : من مأساة رواندا الى الكونغو الى زيمبابوي . وبذلك تفقد طابعها الملح لتنتظر دورها في طابور الكوارث التي لا تنتهي .

من هنا يبدو وكأن الخيار المطروح على الشعب الفلسطيني لا يتعدى سجنه في مرتبة الإنسان المخلوع أو المنبوذ سواء على المستوى السياسي ، كهدف للتمييز والقتل والحرمان والمصادرة ؛ أو على المستوى الإنساني كلاجئين في المخيمات أو متلقين للمساعدات الإنسانية .

ويبدو - رغم كل المراوغات - أن هذا هو الموقف الذي يتخذه جيجيك من المسألة . إذ لا يبخل بالدفاع عن الفلسطينيين من زاوية إنسانية ، لكنه يغفل أسس الصراع انطلاقا من التسليم بالدعوى الصهيونية وبالأمر الواقع الذي يؤكّد تفوّق إسرائيل الساحق علي كل جيرانها .

وبالمقابل ، يندّد جيجيك ، في كل ما يكتبه وبأقوى العبارات ، بالعداء للسامية ، ويفككه من كل زاوية ممكنة .

لقد ظل العداء للسامية وصمة تثقل على الضمير الأوروبي منذ تكشف الأبعاد الدامية للجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها النظام النازي . وظل الغرب يحاول التعويض عن تواطؤه على جريمة الهولوكوست بدعم إسرائيل ، التي كانت الهولوكوست أقوى الذرائع لقيامها، رغم أن مشروع وطن قومي لليهود يسبق بكثير وقوع الهولوكوست .

وفي سياق استعمار استيطاني يقدّم نفسه كرأس حربةٍ للمطامع الإمبريالية في المنطقة ، تحولت الضحية الى جلاّد يرتكب جرائم الإبادة ضد الفلسطينيين وسط تواطؤ غربي عام بفعل المصالح المشتركة مثلما بفعل التعويض عن التواطؤ مع جرائم النازية ضد اليهود .

تتم مطالبتنا - عن حق - بعدم الحكم على الصراع العربي الإسرائيلي انطلاقا من الهولوكوست . فلماذا لا تطبق أوروبا هذا المبدأ على تعاملها مع إسرائيل ، بإعادة النظر في السياسة الاسرائيلية وإظهار بعض التعاطف المبدئي مع الضحية الفلسطينية ؟

ألا يكون التواطؤ مع الجلاّد من جديد جريمة أخرى ضد الإنسانية ؟

وهل نتوقع أن تصبح إسرائيل ، في ظروف أخرى ، عبئا جديداً يتقل على ضمير الغرب ، نتيجة جرائمها التي تجري تحت سمع وبصر الجميع ؟

يخشى الكثير من المراقبين والمواطنين العرب العاديين من أن يكون ما يشهدون الآن تفاصيله الدامية هو التصفية النهائية للقضية الفلسطينية ، التي قضت أجيالاً متعاقبة منهم حياتها في الدفاع

عنها ، وبذلك تفرض إسرائيل هيمنتها على المنطقة في نطاق الهيمنة الإمبريالية المعولمة على مجمل الكوكب .

ومن هذا المنطلق ، يكون التواطؤ - اليساري على وجه الخصوص - مع إسرائيل تواطؤاً فادحاً موازياً للتواطؤ مع النازية . مع اختلاف كبير ، هو أن النازية قد هزمت في نهاية المطاف . بينما يعمل التواطؤ الحالي لصالح انتصار الصهيونية كممثل إقليمي للمصالح الإمبريالية .

أحمد حسان

*مع وصول الحملة الإسرائيلية الى نهايتها بعد 22 يوما ، يتكشف حجم الخسائر والدمار : 1315 قتيلا و 5450 جريحا نصفهم جميعا من الأطفال والنساء ؛ 50 ألفا دون مأوى ؛ تدمير أربعة آلاف مبنى وتضرر عشرين ألفا أخرى ؛ خسائر مباشرة في البنية الأساسية تفوق 2 مليار دولار ؛ علاوة على جرائم الحرب من استهداف عمدي للمدنيين واستخدام قذائف الفوسفور الأبيض ، وما بدأ يتردد من استخدام قذائف اليورانيوم المنضب والقذائف البيولوجية . الخ .

والمذهل هنا حقا هو تعمد التنكيل وإيقاع الأذى بدم بارد رغم التفاوت الهائل بين الجانبين : نزع الأشجار المثمرة وتدمير مصادر الرزق ؛ قصف المباني المدنية بالطائرات والدبابات دون وجود مقاومة فيها أو حولها ؛ قصف مدارس الأونروا بعد لجوء النساء والأطفال إليها ؛ تجميع العائلات في مبنى ثم قصفه بالمدافع ؛ السماح تحت ضغط الأمم المتحدة بإدخال المساعدات الإنسانية ثم قصفها عمدا تحت سمع وبصر الأمين العام للمنظمة الدولية ... الخ . فكأننا نشاهد النماذج النمطية النازية السادية في الأفلام الدعائية الأمريكية ، مع فرق هائل هو التظاهر بالحزن على الضحايا . المجرم يصير على التنكيل بالضحايا بأفطع وحشية ممكنة وعلى الاستيلاء في نفس الوقت على المعيار الأخلاقي ليتمكن من إلقاء اللوم على الضحية في نهاية المطاف . فهل ثمة دفاع ممكن عما نشهده من صفاقة الإبادة العنصرية ؟

مقدمة: الحبر الناقص

في نكتة قديمة من جمهورية ألمانيا الديمقراطية البائدة ، يحصل عامل ألماني على عمل في سيبيريا ؛ ونظرا لإدراكه أن كل البريد سيقراه الرقباء ، يقول لأصدقائه : "دعونا نتفق على شفرة : إذا تلقيتم مني خطابا مكتوبا بالحبر الأزرق العادي ، فإنه حقيقي ؛ وإذا كان مكتوبا بالحبر الأحمر ، فإنه زائف" . وبعد شهر ، يتلقى أصدقائه الخطاب الأول ، مكتوبا بالحبر الأزرق : "كل شيء رائع هنا : المتاجر ممتلئة ، والطعام وفير ، والشفق واسعة وجيدة التدفئة ، و دور السينما تعرض أفلاما من الغرب ، وهناك العديد من الفتيات الجميلات على استعداد لإقامة علاقة غرامية - الشيء الوحيد الذي لا يمكن العثور عليه هو الحبر الأحمر" . البنية هنا أشد رهافة مما تبدو : فرغم أن العامل عاجز عن الإشارة الي أن ما يقوله كذب بالطريقة المتفق عليها سلفا ، فإنه ينجح مع ذلك في تمرير رسالته - كيف؟ بإدراج ذات الإحالة الي الشفرة ضمن الرسالة المشفرة ، باعتبارها عنصرا من عناصرها . هذه ، بالطبع ، هي المشكلة المعتادة للإحالة الذاتية : حيث أن الخطاب مكتوب بالأزرق ، ألا يكون مضمونه كله بالتالي غير صحيح ؟ الإجابة هي أن ذكر ذات حقيقة نقص الحبر الأحمر يشير إلى أن الخطاب كان يجب أن يكون مكتوبا بالحبر الأحمر . والنقطة الدقيقة هي أن هذا الذكر لنقص الحبر الأحمر يُنتج تأثير الصدق بصورة مستقلة عن صدقه الحرفي : فحتى لو كان الحبر الأحمر متوفرا حقا ، فإن الكذبة القائلة بأنه غير متوفر هي الطريقة الوحيدة لتمرير الرسالة الصحيحة في هذا الشرط النوعي للرقابة .

أليست هذه مصفوفة نقدٍ فعّالٍ للإيديولوجيا - ليس في شروط الرقابة "الشمولية" فحسب ، بل ربما بدرجة أكبر ، في الشروط الأشد رهافة للرقابة الليبرالية ؟ يبدأ المرء بالموافقة على أنه يتمتع بكل الحريات التي يريدها - ثم يضيف فحسب أن الشيء الوحيد الناقص هو "الحبر الأحمر" : إننا "نشعر بأننا أحرار" لأننا نفتقر الى ذات اللغة التي يمكن بها أن نعبر عن عدم حريتنا . وما يعنيه هذا الافتقار الى الحبر الأحمر ، اليوم ، هو أن كل المصطلحات الأساسية التي نستخدمها للإشارة الى النزاع الراهن - "الحرب ضد الإرهاب" ، و "الديموقراطية و الحرية" ، و "حقوق الانسان" ، وما الى ذلك - هي مصطلحات زائفة ، تضفي الالتباس على إدراكنا للوضع بدل أن تتيح لنا التفكير فيه . بهذا المعنى المحدد ، تفيد "حرياتنا" ذاتها في حجب وتعزيز عدم حريتنا الأعمق . منذ مائة عام ، في تشديده على قبول دوجما [عقيدة جامدة] محددة ما كشرط لـ (المطالبة بـ) حرية فعلية ، استشف جيلبرت كيث تشسترتون Gilbert Keith Chesterton بصورة نفّاذة الإمكانية المضادة للديموقراطية في ذات مبدأ حرية التفكير :

يمكننا القول عموماً بأن التفكير الحر هو أفضل كل أنواع الوقاية ضد الحرية . فتنوير عقل العبد ، إذا تمت إدارته بأسلوب حديث ، هو أفضل طريقة لمنع تحرير العبد . علمه أن ينشغل بما إذا كان يريد أن يتحرر ، وسوف لن يُحرر نفسه . (1)

أليس هذا صادقاً تماماً عن عصرنا "مابعد الحداثي" ، بحريته في التفكير ، والشك ، و نأي المرء بنفسه ؟ ويجب ألا ننسى أن تشسترتون يزعم بالضبط ما زعمه كانط في مبحثه "ما هو التنوير ؟" : "فكر بقدر ما تشاء ، وبحرية بقدر ما تشاء ، لكن أطع !". الاختلاف الوحيد أن تشسترتون أكثر تحديداً ، ويصرح بالتناقض الضمني الكامن في قلب الاستدلال الكانطي : أن حرية التفكير لا تكفي بأنها لا تهدم العبودية الاجتماعية الراهنة ، بل إنها تدعمها إيجابياً . الشعار القديم "لا تفكر ، بل أطع !" ، الذي يرد عليه كانط هو شعار غير مثمر : لأنه يولد التمرد فعلياً ؛ والطريق الوحيد لضمان العبودية الاجتماعية يمر عبر حرية التفكير . كذلك فإن تشسترتون منطقي بما يكفي لتأكيد الوجه النقيض لشعار كانط : الصراع من أجل الحرية يحتاج إلى الإحالة إلى نوع ما من الدوجما غير القابلة للتساؤل .

في سطر كلاسيكي مأخوذ من كوميديا هوليوودية لأشخاص غربيي الأطوار ، تسأل الفتاة صديقها : "هل تريد أن تتزوجني ؟" "لا !" "كف عن المراوغة ! أعطني إجابة واضحة !" المنطق الكامن هنا صحيح ، بطريقة ما : فالإجابة الواضحة الوحيدة المقبولة بالنسبة للفتاة هي "نعم !" ، ومن ثم فإن أي شيء آخر ، بما في ذلك "لا !" الواضحة ، يعتبر تلمصاً . وهذا المنطق الكامن ، بالطبع ، هو مرة أخرى منطق الاختيار المفروض : أنت حر في أن تقرّر ، بشرط أن تقوم بالاختيار الصحيح . ألن يعتمد أي كاهن على نفس التناقض في جدال مع شخص عادي متشكك ؟ "هل تؤمن بالرب ؟" "لا ." "كف عن المراوغة ! أعطني إجابة واضحة !" في اعتقاد الكاهن ، مرة أخرى ، فإن الإجابة الواضحة الوحيدة هي تأكيد إيمان المرء بالرب : فإنكار الملحد للإيمان ، بعيداً عن كونه مؤشراً على موقفٍ مقابل واضح ، يعدّ محاولة لمراوغة مسألة اللقاء الإلهي . أليس الأمر هو ذاته اليوم بالنسبة لخيار "الديموقراطية أم الأصولية" ؟ أليس الأمر أنه ، ضمن حدود هذا الخيار ، لا يمكن ببساطة إختيار "الأصولية" ؟ والأمر الإشكالي في الطريقة التي تفرض بها الإيديولوجيا المسيطرة هذا الخيار علينا ليس هو "الأصولية" بل ، بالأحرى ، الديموقراطية ذاتها : كأنما البديل الوحيد لـ "الأصولية" هو النظام السياسي للديموقراطية البرلمانية الليبرالية .

(1) Gilbert Keith Chesterton , *Orthodoxy* , San Francisco : Ignatius Press 1995, p. 114.

الشغف بالواقعي ، الشغف بالمشابهة

حين مر بريشت Brecht ، في الطريق من منزله الى مسرحه في يوليو عام 1953 ، برتل الدبابات السوفييتية التي تتدحرج صوب شارع ستالين Stalinale لتسحق تمرد العمال ، لوح تجاهها وكتب في يومياته لاحقا في ذلك اليوم انه ، في تلك اللحظة ، (هو الذي لم يكن أبدا عضوا حزبيا) تملكته لأول مرة في حياته غواية الانضمام الى الحزب الشيوعي . لم يكن الأمر أن بريشت كان يتحمل قسوة النضال على أمل أنها ستجلب مستقبلا مزدهرا: فقد كان يتم إدراك ومساندة خشونة العنف بوصفه كذلك باعتباره علامة على الأصالة . . . أليست هذه حالة نموذجية لما حدده آلان باديو Alain Badiou باعتباره السمة المحورية للقرن العشرين : الـ "شغف بالواقعي [la passion du réel]" ؟ (2) في تضاد مع القرن التاسع عشر ، قرن المشروعات، والمثل العليا ، وخطط المستقبل ، الطوباوية أو "العلمية" ، استهدف القرن العشرون توصيل الشيء ذاته - استهدف التحقيق المباشر للنظام الجديد الذي طال اشتياقه . وكانت اللحظة النهائية و المحددة للقرن العشرين هي الخبرة المباشرة بما هو واقعي باعتباره متعارضا مع الواقع الاجتماعي اليومي - الواقعي في عنفه الحديّ باعتباره الثمن الذي يجب دفعه لتقشير طبقات الواقع الخادعة.

في خنادق الحرب العالمية الأولى ، كان إرنست يونجر Ernst Junger يحتفي فعلا بالقتال وجها لوجه باعتباره الالتقاء الأصيل بين الذوات : فالأصالة تكمن في فعل التجاوز العنيف ، بدءاً من الواقعي عند لاكان - الشيء الذي تواجهه أنتيجون حين تنتهك نظام المدينة - الى الإفراط عند باتاي . وفي مجال الجنسية sexualité ذاته ، فإن أيقونة هذا "الشغف بالواقعي" هي فيلم أوشيماء إمبراطورية الحواس ، وهو فيلم أسطوري من سبعينات القرن العشرين تتجذر فيه علاقة الحب بين الحبيبين الى حد التعذيب المتبادل حتى الموت . أليس المجاز النهائي للشغف بالواقعي هو الخيار الذي نحصل عليه على المواقع الإباحية المكشوفة hardcore websites ويمكننا من ملاحظة داخل المهبل من النقطة المتميزة لكاميرا دقيقة موضوعة على رأس العضو الصناعي الذي يلجه ؟ عند هذه النقطة الحديثة ، يحدث تبدل : فحين نقترّب أكثر مما يجب من الشيء المرغوب ، يتحول الانبهار الشبقي الى قرفٍ من واقعي اللحم المجرد . (3)

ويمكن في الثورة الكوبية أن نتبين بوضوح طبعة أخرى من "الشغف بالواقعي" في مقابل "خدمة تقديم السلع" في الواقع الاجتماعي . فكوبا اليوم ، بتحويلها للضرورة الى فضيلة ، تواصل ببطولة تحدي المنطق الرأسمالي للتبديد والتقادم المخطط : فكثير من المنتجات المستخدمة هناك تُعامل ، في الغرب ، باعتبارها نفاية - ليس فقط السيارات الأمريكية الشهيرة من أعوام الخمسينات التي ما زالت تعمل بصورة سحرية ، بل كذلك عشرات حافلات المدارس الكندية الصفراء (وعليها كتابات قديمة ملونة بالفرنسية والانجليزية ، ما زالت مقروءة تماما)، ربما تكون قد مُنحت كهدية لكوبا واستخدمت هناك في النقل العام . (4) وهكذا يواجهنا تناقض أنه ، في الحقبة المحمومة للرأسمالية الكوكبية ، فإن النتيجة الرئيسية للثورة هي جعل الديناميات الاجتماعية في حالة سكون - وهو الثمن الذي يجب دفعه مقابل الاستبعاد من الشبكة الرأسمالية الكوكبية . وهنا نصادف تناظرا غريبا بين كوبا وبين المجتمعات الغربية "ما بعد الصناعية" :

ففي كلتا الحالتين يُخفي الاستنفار المحموم سكونا أشد جوهرية . في كوبا ، يُخفي الاستنفار الثوري تخشبا اجتماعيا ؛ وفي الغرب المتطور ، يُخفي النشاط الاجتماعي المحموم التماثل الأساسي للرأسمالية الكوكبية ، غياب أي حَدَث

عرّف فالتر بنيامين اللحظة الخلاصية Messianic بأنها لحظة *Dialektik im Stillstand* ، ديالكتيك في حالة سكون : توقّعا للحدث الخلاصي ، تقف الحياة في حالة سكون . ألا نجد في كوبا تحقّقا غريبا لذلك ، نوعا من الزمن الخلاصي السلبي : السكون الاجتماعي الذي تكون فيه "نهاية الزمن قريبة" وينتظر الجميع معجزة ما سيحدث حين يموت كاسترو ، وتنهار الاشتراكية ؟ ولا عجب أن البند الرئيسي في التلفزيون الكوبي ، علاوة على الأخبار والتقارير السياسية ، هو دورات اللغة الإنجليزية – عددٌ لا يُصدّق منها ، من خمس الى ست ساعات كل يوم . على نحو متناقض ، يَخبرون ذات العودة الى الحالة ضد - الخلاصية الاعتيادية الرأسمالية على أنها موضوع التوقّع الخلاصي - إنها شيء ينتظره البلد ببساطة ، في حالة حيوية مُجمّدة .

في كوبا ، تكون عمليات نكران الذات مُجرّبة / مفروضة كبرهان على أصالة الحدث الثوري – ما يُسمّى ، في التحليل النفسي ، منطق الإخصاء . يركز مجمل الهوية السياسية - الإيديولوجية الكوبية على الوفاء fidelity للإخصاء castration (ولا عجب أن اسم الزعيم هو فيديل كاسترو !) : والمقابل للحدث هو القصور الذاتي المتزايد للوجود / الحياة الاجتماعيين : بلد متجمّد في الزمن ، بمبانٍ عتيقة في حالة تحلل . وليس الأمر أن الحدث الثوري قد جرت "خيانته" من جانب التأسيس الترميدوري لنظام جديد ؛ لأن ذات الإصرار على الحدث أدى الى شل الحركة عند مستوى الوجود الاجتماعي الإيجابي . ولا عجب أن موضوعات الأيقونات الثورية في كوبا اليوم تمتليء بالإحالات المسيحية – رُسُل الثورة ، رفع النشي الى مرتبة شخص شبيه بالمسيح ، الأبدى ("lo eterno" – هو عنوان أغنية يغنيها كارلوس بوبلا عنه) : حين تتدخل الأبدية في الزمن ، يصل الزمن الى حالة سكون . ولا عجب أن الانطباع الأساسي عن هافانا عام 2001 كان أن سكانها الأصليين قد هربوا ، واستولى عليها محتلو المنازل squatters – ليسوا في مكانهم في هذه المباني العتيقة الرائعة ، يحتلونهم مؤقتا ، ويقسمون المساحات الواسعة بالأواح خشبية ، وما شابه . هنا تكون موحية صورة كوبا التي نستمدّها من شخص مثل بدرو خوان جوتييريث Pedro Juan Gutierrez (من عمله "ثلاثية هافانا القذرة") : "الوجود" الكوبي في تعارض مع الحدث الثوري – الصراع اليومي من أجل البقاء ، الهروب الى الجنس غير الشرعي العنيف ، اغتنام اليوم دون مشروعات متوجهة الى المستقبل . هذا القصور الذاتي البذيء obscene هو "حقيقة" المتسامي الثوري . (5)

أليس ما يسمى الإرهاب الأصولي بدوره تعبيراً عن الشغف بالواقعي ؟ بالعودة الى بدايات السبعينات ، بعد انهيار حركة احتجاج طلبة اليسار الجديد في ألمانيا ، كان أحد نواتجها هو إرهاب فصيل الجيش الأحمر ("عصابة" بادر- ماينهوف ، وما الى ذلك) ؛ وكانت الفرضية التي ينطوى عليها ذلك هي أن فشل الحركة الطلابية قد أظهر أن الجماهير منغمسة بصورة بالغة العمق في وضعها الاستهلاكي اللاسياسي الى درجة أن من غير الممكن إيقاظها من خلال التربية السياسية وتنمية الوعي المعهودتين – ويحتاج الأمر الى تدخل سياسي أكثر عنفا لهدمها من خدورها الإيديولوجي ، من حالة التنويم المغناطيسي الاستهلاكي ، ولن يؤدي المهمة سوى التدخلات المباشرة العنيفة من قبيل تفجير محلات السوبرماركت . ألا ينطبق نفس الشيء أيضا ، على مستوى مختلف ، على إرهاب اليوم الأصولي ؟ أليس هدفه هو أيضا أن يوقظنا ، نحن المواطنين الغربيين ، من خدرنا ، من الانغماس في عالمنا الإيديولوجي اليومي ؟

يشير هذان المثالان الأخيران الى المفارقة الأساسية لـ "الشغف بالواقعي" : إذ ينتهي به الأمر الى التحول الى نقيضه الظاهري ، الى استعراض مسرحي – من المحاكمات الاستعراضية الستالينية الى الأعمال الإرهابية المشهودة (6) ومن هنا ، إذا كان الشغف بالواقعي ينتهي به الأمر الى أن يصبح مشابهة خالصةً لتأثير الواقعي الاستعراضي ، فإن الشغف "ما بعد الحداثي" بالمشابهة ينتهي ، في عملية عكس تام ، الى عودة عنيفة الى الشغف بالواقعي . خذ ظاهرة "جارجي أنفسهم cutters" (وهم أناس ، من النساء غالبا ، يخبرون حافزا لا يقاوم لجرح أنفسهم بالشفرات أو لإيذاء أنفسهم)؛ وهذا مواز بدقة لجعل بيئتنا افتراضية : إنه يمثل استراتيجية يائسة للعودة الى واقعي الجسد . و جرح المرء لنفسه ، بوصفه كذلك ، لا بد من وضعه في تضاد مع النقوش العادية الموشومة على الجسد ، التي تضمن إدراج الذات في النظام الرمزي (الافتراضي) – فالمشكلة مع جارجي أنفسهم ، هي المشكلة العكسية ، إنها ، بالتحديد ، تأكيد الواقع ذاته . إن جرح المرء لنفسه ، بعيدا عن كونه انتحاريا ، بعيدا عن الإشارة الى رغبة في محو - الذات ، هو محاولة جذرية لـ (استعادة) الإمساك بالواقع ، أو (وهو جانب آخر من نفس الظاهرة) لإرساء الأنا بثبات في الواقع الجسدي ، ضد القلق الذي لا يطاق لإدراك المرء لنفسه باعتباره غير موجود . وعادة ما يقول جارجو أنفسهم أنهم فور رؤيتهم الدم الأحمر الدافئ ينبجس من الجرح الذي أحدثوه بأنفسهم ، يشعرون أنهم أحياء من جديد ، متجدّرون بقوة في الواقع (7) وهكذا فرغم أن جرح الذات هو ، بالطبع ، ظاهرة مَرَضِيَّة ، فإنه رغم ذلك محاولة مَرَضِيَّة لاستعادة نوعٍ من السواء ، لتجنب انهيارٍ ذهانيٍّ كامل .

في سوق اليوم ، نجد سلسلة كاملة من المنتجات المجردة من خصائصها الضاربة : بن بدون كافيين ، وقشدة بدون دهن ، وبيرة بدون كحول وتستمر القائمة : ماذا عن الجنس الافتراضي باعتباره جنسا بدون جنس ، ومذهب كولين باول عن الحرب بدون ضحايا (على جانبنا ، بالطبع) باعتبارها حربا بدون حرب ، وإعادة التعريف المعاصر للسياسة باعتبارها فن الإدارة الخبيرة ، أي ، بوصفها سياسة بدون سياسة ، وصولا الى نزعة التعددية الثقافية الليبرالية المتسامحة الراهنة باعتبارها خبرةً بالآخر المجرد من آخريته (الآخر المكتسب للطابع المثالي الذي يرقص رقصات مذهلة ولديه مقاربة كلية متينة إيكولوجياً للواقع، بينما تظل ممارسات من قليل ضرب الزوجات بعيدة عن الأنظار . . .) ؟ يقوم الواقع الافتراضي ببساطة بتعميم هذه العملية لتقديم منتج مجرد من جوهره : إنه يقدم الواقع ذاته مجردا من جوهره ، من نواة الواقعي الصلبة المقاومة – ومثلما يتمتع البن المنزوع الكافيين برائحة ومذاق البن الحقيقي دون أن يكون بنا حقيقيا ، يخبرُ الناسُ الواقعَ الافتراضي على أنه واقعٌ دون أن يكون كذلك . إلا أن ما يحدث عند نهاية عملية إضفاء الطابع الافتراضي هذه، هو أننا نبدأ في أن نخبر "الواقع الواقعي" ذاته على أنه كيان افتراضي . وبالنسبة للأغلبية الساحقة من الجمهور ، كان انفجارا برجي مركز التجارة العالمي حدثين على شاشة التلفزيون ، وحين شاهدنا اللقطة التي تكررت كثيرا للناس المفزوعين وهم يركضون باتجاه الكاميرا أمام سحابة التراب العملاقة المنبعثة من البرج المنهار ، ألم يكن تأطير اللقطة ذاته يذكرنا بلقطات مشهودة في أفلام الكوارث ، ألم يكن مؤثرا خاصا تفوق على كل ما عداه ، حيث أن الواقع – كما أدرك جيريمي بنتهام Geremy Bentham – هو أفضل تبدلٍ لذاته ؟ .

بدوره ، ألم يكن الهجوم على مركز التجارة العالمي بالنسبة لأفلام الكوارث الهوليوودية بمثابة بورنوجرافيا القتل (سناف) * snuff في مقابل أفلام البورنو السادو - مازوكية المعتادة ؟ هذا هو عنصر الصدق في تصريح كارل هاينتس شتوكهاوزن المستفز القائل بأن اصطدام الطائرتين ببرجي مركز التجارة العالمي كان العمل الفني النهائي : إذ يمكننا إدراك انهيار البرجين باعتباره الخاتمة القصوى "الشغف" فن القرن العشرين "بالواقعي" – "الإرهابيون" أنفسهم لم يقوموا به بالدرجة الأولى لإحداث أضرار مادية واقعية ، بل من أجل التأثير الاستعراضي له . وحين

مَسَمَرَت نظرتنا ، بعد أيام من 11 سبتمبر عام 2001 ، صور الطائرة وهي تصطدم بأحد
البرجين ، أجبرنا جميعا على أن نخبر مايعنيه "التكرار القهري" و **المتعة** *jouissance* فيما
وراء مبدأ اللذة : فقد أردنا أن نراها المرة بعد المرة ، و جرى تكرار نفس اللقطات **حتى الغثيان**
، وكان الإشباع الغريب الذي نستمد منه **هو المتعة** *jouissance* في أنقى حالاتها . وحين
شاهدنا البرجين ينهاران على شاشة التلفزيون ، حينها فقط أصبح ممكنا بالنسبة لنا أن نخبر
زيف "عروض تلفزيون الواقع" : فحتى لو كانت هذه العروض " حقيقية for real " ، فإن
الناس ما زالوا يمثلون فيها - إنهم ببساطة يلعبون أدوار أنفسهم . والتحذير التقليدي في رواية ما
("الشخص في هذا النص مختلقة، وأي تشابه مع شخصيات الحياة الواقعية هو صدفة محضة")
يصدق أيضا على المشاركين في مسلسلات الواقع : فما نراه هناك هي شخصيات مختلقة ، حتى
لو كانوا يلعبون أدوار أنفسهم على أنها حقيقية for real .

إن الشغف الأصيل للقرن العشرين بإختراق الشيء الواقعي [بالأحرف الكبيرة] (الذي هو الخواء
المدمر ، في النهاية) من خلال شبكة المشابهات التي تأسس واقعا يبلغ بذلك ذروته في نشوة
الواقعي بوصفه "التأثير" النهائي، الذي يجري السعي إليه انطلاقا من المؤثرات الخاصة الرقمية
، من خلال تلفزيون الواقع وبورنوجرافيا الهواة ، وصولا الى أفلام القتل (سناف snuff) . فربما
كانت أفلام القتل (سناف snuff) التي توصل "الشيء الواقعي" هي الصدق النهائي للواقع
الافتراضي . وثمة ارتباط حميم بين إضفاء الطابع الافتراضي على الواقع وبين بزوغ ألم
جسدي لا نهائي ، ومكتسب للصبغة اللانهاية ، أقوى بكثير من الألم المعتاد : ألا تفتح بيولوجيا
الجينات والواقع الافتراضي متصافرين إمكانات جديدة " معرزة " للتعذيب ، أفاقا جديدة وغير
مسبوقة لتوسيع قدرتنا على تحمل الألم (من خلال توسيع طاقتنا الحسية على تحمل الألم ، من
خلال ابتكار أشكال جديدة لإيقاعه) ؟ وربما كانت الصورة السادية النهائية لضحية تعذيب "غير
ميتة" يمكنها تحمل ألم لانهاية دون أن يكون في متناولها الهروب الى الموت ، تنتظر أن تصبح
حقيقة .

فانتازيا ذهان الشك *paranoiac* الأمريكية النهائية هي فانتازيا فردٍ يحيا في مدينة كاليفورنية
صغيرة بسيطة *idyllic* ، في جنة استهلاكية ، وفجأة يبدأ في الشك في أن العالم الذي يعيش فيه
زائفٌ ، استعراضٌ مُمسرحٌ لإقناعه أنه يعيش في عالم واقعي، بينما كل الناس المحيطين به هم
في الحقيقة ممثلون وكومبارس في عرض هائل . والمثال الأحدث على ذلك هو فيلم بيتر وير
Peter Weir "عرض ترومان" *The Truman Show* (1998)، ويلعب فيه جيم كاري
دور موظف البلدة الصغيرة الذي يكتشف تدريجيا حقيقة أنه بطلٌ عرض تلفزيوني دائم طوال
الاربع والعشرين ساعة : أن بلدة موطنه هي في الحقيقة ديكورٌ استوديو عملاق ، بكاميرات
تتبعه في كل مكان . ومن بين سابقه ، يجدر بالذكر فيلم فيليب ك. ديك Phillip K. Dick
بعنوان (زمن خرج عن مساره) *Time out of Joint* (1959) ، وفيه نجد أن البطل ، الذي
يحيا حياةً يومية متواضعة في مدينة كاليفورنية صغيرة بسيطة في أواخر الخمسينات ، يكتشف
تدريجيا أن البلدة بأسرها هي زيفٌ مُمسرحٌ لإبقائه راضيا. والخبرة الكامنة في "زمن خرج عن
مساره" و "عرض ترومان" هي أن فردوس كاليفورنيا الاستهلاكي الرأسمالي المتأخر، في
ذات واقعيته المفرطة ، هو على نحو من الأنحاء **غير واقعي** ، بدون جوهر ، مجرد من
القصور الذاتي المادي . وقد استمر نفس "نزع واقعية" الرعب بعد انهيار مركز التجارة
العالمي : فبينما يجري تزييدُ عدد الضحايا - 3000 - طول الوقت ، يكون من المدهش ضالّة
ما نراه من المذبحة الفعلية - فلا أجساد ممزقة الأوصال ، ولا دماء ، ولا وجوه يائسة لأناس
يحتضرون في تضادٍ واضح مع التقارير عن كوارث العالم الثالث ، حيث الأمر الأهم هو
انتاجُ سبقٍ صحفي لبعض التفاصيل البشعة : صوماليين يموتون من الجوع ، نساء بوسنيات
مغتصبات ، رجال قطعت رقابهم ، ودائما ما يصاحب هذه اللقطات تحذير بأن "بعض الصور

التي سترها هي تصويرٌ حيٌّ بالغ الدقة وقد تزجج الأطفال " - وهو تحذير لم نسمعه أبداً في التقارير عن انهيار مركز التجارة العالمي . أليس هذا بدوره برهانا آخر على الكيفية التي يتم بها ، حتى في هذه اللحظة الأساسية ، الحفاظ على المسافة التي تفصلنا نحن عن هم ، عن واقعهم : الرعب الحقيقي يحدث هناك ، وليس هنا ؟ (8)

من هنا لا يقتصر الأمر على أن هوليوود تمسرح شبيبها بالحياة الواقعية محروما من ثقل ماديتها وقصورها الذاتي - ففي المجتمع الاستهلاكي الرأسمالي المتأخر ، تكتسب "الحياة الاجتماعية الواقعية" ذاتها على نحوٍ ما سمات زيفٍ مُمسرح ، فيه يتصرف جيراننا في الحياة "الواقعية" مثل ممثلي وكومبارس خشبة المسرح . . . مرة أخرى ، نجد أن الحقيقة النهائية للعالم الرأسمالي النفعي utilitarian المنزوع الروح هي نزع مادية "الحياة الواقعية" ذاتها ، قلبها الى عرض شبحي . وبين آخرين ، عبر كريستوفر إيشروود Christopher Isherwood عن لا واقعية الحياة الأمريكية اليومية هذه ، المتمثلة في غرفة الموتيل : "الموتيلات الأمريكية غير واقعية ! . . . إنها مصممة عمدا لتكون غير واقعية . . . الأوروبيون يكرهوننا لأننا اعتزلنا لنحيا داخل إعلاناتنا ، مثل نساك يدخلون الكهوف ليتأملوا" . هنا تتحقق حرفيا مقولة بيتر سلوترديك Peter Sloterdijk عن "الكرة" ، بوصفها الكرة المعدنية العملاقة التي تغلف وتعزل المدينة بأسرها . ومنذ سنوات ، تنبأت سلسلة من أفلام الخيال العلمي من قبيل زاردوز Zardoz أو هروب لوجان Logan's Run بأزق اليوم ما بعد الحداثي عن طريق توسيع هذه الفانتازيا لتشمل المجتمع ذاته : الجماعة المعزولة التي تحيا حياة معقمة في مساحة منعزلة تنوق الى خبرة التحلل المادي للعالم الواقعي . أليست اللقطة المتكررة الى مالا نهاية للطائرة وهي تقترب وتصدم برج مركز التجارة العالمي الثاني هي طبعة الحياة - الواقعية من المشهد الشهير من فيلم هيتشكوك "الطيور" Birds ، الذي حلّله تحليلا رائعا ريموند بيللور Raymond Bellour ، وفيه تقترب ميلاني من رصيف خليج بوديجا بعد أن عبرت الخليج في زورق صغير ؟ حين تلوح لحبيبها (المستقبلي) ، بينما تقترب من رصيف المرفأ ، يدخل طائرٌ وحيد (ندركه في البداية كبقعةٍ داكنة غير قابلة للتمييز) إطارَ الصورة بشكل غير متوقع من أعلى اليمين ، ويلطمها على وجهها (9) ألم تكن الطائرة التي ضربت برج مركز التجارة العالمي هي الحبكة الهيتشكوكية النهائية ، البقعة المشوهة الشكل التي تنزع طبيعية منظر نيويورك الطبيعي البسيط idyllic الشهير ؟

وقد أوصل فيلم الإخوة واتشوووسكي الناجح "ماتريكس" Matrix (1999) هذا المنطق الى ذروته : فالواقع المادي الذي نخبره جميعا ونراه حولنا هو واقع إفتراضي، يولده وينسقه كمبيوتر فائق عملاق ترتبط به جميعا ؛ وحين يصحو البطل (لعب دوره كيانو ريفيز Keanu Reeves) في "الواقع الواقعي" ، فإنه يرى منظرا خلويا موحشا تنتثر فيه خرائب محترقة - ما تبقى من شيكاغو بعد حرب كونية . ويتفوه زعيم المقاومة ، مورفيوس ، بالترحيب الساخر : "مرحباً في صحراء الواقع" . ألم يكن ما حدث في نيويورك يوم 11 سبتمبر شيئا من هذا القبيل ؟ فقد تم تقديم مواطنيها الى "صحراء الواقع" - وبالنسبة لنا ، نحن من أفسدتنا هوليوود ، لا يمكن لمشهد ولقطات انهيار البرجين إلا أن يذكرنا بأكثر المشاهد حبسا للأنفاس في أفلام الكوارث ضخمة الإنتاج .

وحين نسمع كيف كانت الهجمات صدمة غير متوقعة تماما ، لا بد أن نستحضر الكارثة الحاسمة الأخرى من بداية القرن العشرين ، غرق السفينة تيتانيك: فهذا ، بدوره ، كان صدمة ، لكن مكانها قد تم بالفعل إعداده في التخيل الإيديولوجي ، حيث أن تيتانيك كانت رمز سطوة الحضارة الصناعية للقرن التاسع عشر . ألا يصدق الشيء نفسه على هذه الهجمات ؟ فلم تكن وسائل الإعلام تقصفنا طول الوقت بالحديث عن التهديد الإرهابي فحسب ؛ بل كان هذا التهديد

يُستثمر ليبيدياً كذلك بالطبع - يكفي أن نتذكر سلسلة الأفلام من الهروب من نيويورك الى يوم الاستقلال . هذا هو الأساس العقلي للربط المتواتر للهجمات بأفلام الكوارث الهوليوودية : كان ما وقع ولا يخطر على البال هو موضوع التخيل ، ومن هنا ، على نحو ما ، نالت أمريكا ما تخيلته ، وكانت تلك هي المفاجأة الكبرى . و طرأت الانعطافة النهائية في هذه الرابطة بين هوليوود وبين "الحرب على الإرهاب" حين قرر البنتاجون أن يطلب مساعدة هوليوود : ففي بداية أكتوبر عام 2001 ، أوردت الصحف أن مجموعة من كتاب السيناريو والمخرجين في هوليوود ، متخصصين في أفلام الكوارث ، قد تشكلت بطلب من البنتاجون ، بهدف تخيل السيناريوهات المحتملة للهجمات الإرهابية وكيفية محاربتها . وبدا أن هذا التفاعل مستمر : فعند بداية نوفمبر عام 2001 ، جرت سلسلة من الاجتماعات بين مستشاري البيت الأبيض وكبار مديري هوليوود التنفيذيين بهدف تنسيق المجهود الحربي وتحديد كيف يمكن لهوليوود المساعدة في "الحرب ضد الإرهاب" بتوصيل الرسالة الإيديولوجية الصحيحة ليس للأمريكيين فحسب ، بل كذلك لجمهور هوليوود حول العالم - وهذا هو البرهان الإمبيريقى النهائي على أن هوليوود تقوم فعلا بدور "جهاز الدولة الإيديولوجي" .

علينا إذن أن نعكس القراءة المعهودة التي طبقا لها يكون إنفجارا مركز التجارة العالمي اقتحاما للواقعيّ حطم كرتنا الوهمية : على العكس تماما - فقبل انهيار مركز التجارة العالمي كنا نعيش في واقعا ، مدركين فضاء العالم الثالث على أنها شيء لا يشكل فعلا جزءا من واقعا الاجتماعي ، على أنها شيء يوجّد (بالنسبة لنا) بوصفه تبدّيّا شبحيا على شاشة التلفزيون - وما حدث في 11 سبتمبر هو أن هذا التبدّي التوهمي [fantasmatic] على الشاشة قد دخل واقعا . ليس الأمر أن الواقع قد دخل الي صورتنا : فالصورة قد دخلت وحطمت واقعا (أعني الإحداثيات الرمزية التي تحدد ما نخبره على أنه واقع). ومن ثم ، يجب أن نقرأ حقيقة تأجيل افتتاح العديد من الأفلام "الجماهيرية الساحقة" التي تحتوي على مشاهد مشابهة لانهيار مركز التجارة العالمي (مبان شاهقة تشب فيها النيران أو تتعرض لهجوم ، وأعمال إرهابية . . .) ، بعد 11 سبتمبر ، (أو حتى وضع هذه الأفلام على الرف) باعتبارها "كبتاً" للخلفية الفانتازمية [التوهمية] المسؤولة عن تأثير انهيار مركز التجارة العالمي . والمسألة ، بالطبع ، ليست أن نلعب لعبة مابعد حدثية - زائفة نخترل بها انهيار مركز التجارة العالمي الى مجرد استعراض إعلامي آخر ، ونقرأه على أنه طبعة كارثية من أفلام القتل (سناف) البورنو؛ فالسؤال الذي كان يجب أن نسأله لأنفسنا ونحن نحرق في شاشات التلفزيون يوم 11 سبتمبر هو ببساطة : أين رأينا بالفعل هذا الشيء ذاته مرارا وتكرارا ؟

وتقدم حقيقة أن هجمات 11 سبتمبر كانت تشكل مادة الفانتازيات الشعبية قبل وقوعها بالفعل بزم من طويّل حالة أخرى لمنطق الأحلام الملنوي : من السهل تفسير حقيقة أن الفقراء حول العالم يحلمون بأن يصبحوا أمريكيين - بم يحلم إذن الأمريكيون الموسرون ، المتجمدون في رفاهيتهم؟ يحلمون بكارثة كونية ستحطم حيواتهم - لماذا ؟ هذا هو موضوع التحليل النفسي : أن يوضح لماذا ، في قلب الرفاهية ، تطاردنا رؤى كابوسية للكوارث. وتشير هذه المفارقة أيضا الى كيف يجب أن نفهم مقولة لاكان عن "اجتياز الفانتازيا" باعتبارها اللحظة الختامية للعلاج بالتحليل النفسي . قد تبدو هذه المقولة وكأنها تناسب تماما الفكرة الشائعة عما يجب أن يفعله التحليل النفسي : إذ يجب بالطبع أن يحررنا من قبضة الفانتازيات الفردية الطابع ، ويمكننا من مواجهة الواقع كما هو فعلا ! لكن هذا ، بالضبط ، ما لم يكن في ذهن لاكان - فما يستهدفه هو العكس تماما . في وجودنا اليومي ، نكون منغمسين في "الواقع" (الذى تبنيه وتدعمه الفانتازيا) ، وتُعكّر هذا الانغماس أعراضٌ تشهد على حقيقة أن مستوى آخر ، مكبوتا ، من نفسيتنا يقاوم هذا الانغماس . ومن هنا يعني "اجتياز الفانتازيا" ، على نحو متناقض ، التماهي التام للمرء مع

الفانتازيا – وتحديدًا ، مع الفانتازيا التي تبين الإفراط الذي يقاوم انغماسنا في الواقع اليومي ؛ أو ، إذا أردنا صياغة مقتضبة بارعة لريتشارد بوثبي Richard Boothby :

هكذا لا يعني "اجتياز الفانتازيا" أن الذات تتخلّى بشكلٍ ما عن انخراطها في النزوات التخيلية fanciful وتتواءم مع "الواقع" البراجماتي ، بل العكس تمامًا : فالذات تخضع لتأثير فقدان lack الرمزي ذاك الذي يكشف حدود الواقع اليومي . و اجتياز الفانتازيا بالمعنى اللاكاني يعني أن نمتلكنا الفانتازيا على نحو أعمق من أي وقتٍ مضى ، بمعنى الدخول في علاقةٍ أشدّ حميميةً باطراد مع الجوهر الحقيقي للفانتازيا الذي يتجاوز صياغة الصور (10).imaging

و بوثبي على صواب في التشديد على البنية الشبيهة بجانوس** لأي فانتازيا : فأني فانتازيا هي في نفس الوقت مهدّنة ، ونازعة للسلاح (تقدم سيناريو تخيلياً يمكننا من تحمل هاوية رغبة الآخر) و مُحطّمة ، ومقلقة ، وغير قابلة للتمثّل في واقعنا . وقد تكشف البعد الإيديولوجي - السياسي لمقولة "اجتياز الفانتازيا" هذه بوضوح عن طريق الدور الفريد الذي لعبته فرقة موسيقى الروك **توب ليستا نادرياليسا Top lista nadrealista** (قمة قائمة السوراليين) خلال الحرب البوسنية في مدينة ساراييفو المحاصرة : إذ أن عروضها الساخرة – التي ، في قلب الحرب والجوع ، تهكمت على مأزق سكان ساراييفو – قد اكتسبت مرتبة العقيدة cult status ليس في الثقافة المضادة فحسب ، بل كذلك بين مواطني ساراييفو عموماً (استمر عرض الفرقة التلفزيوني الأسبوعي طوال الحرب ، وكان بالغ الشعبية) . وبدلاً من التحسر على قدر البوسنيين المأساوي، فإنهم استنفروا بجسارة كل الكليشيهات عن "البوسنيين الحمقى" التي كانت شائعة في يوغوسلافيا ، وتمامها تماماً معها – والنقطة التي أبرزوها بهذه الطريقة هي أن درب التضامن الحقيقي يمضي عبر المواجهة المباشرة مع الفانتازيات العنصرية البذيئة obscene التي كانت تدور في الفضاء الرمزي للبوسنة ، وذلك من خلال التماهي الهازل معها ، وليس من خلال إنكار هذه البذاءات لأنها لا تمثل الشعب مثلما هو "في الواقع" .

ويعني هذا أن ديكالكتيك الشبيه والواقعي لا يمكن إختزاله إلى الحقيقة الأولية تقريباً والقائلة بأن إضفاء الطابع الافتراضي على حيواتنا اليومية ، خبرة أننا نحيا أكثر فأكثر في عالمٍ مبنّي أصطناعياً ، ينشأ عنها دافع لا يقاوم لـ "العودة إلى الواقعي" ، لإعادة اكتساب أرض صلبة في "واقعٍ واقعي" ما . فالواقعي الذي يعود له منزلة شبيهٍ آخر (a(nother) : **فأنه واقعي بالضبط** ، أي ، بسبب طابعه المفرط / المسبب للصدمة ، نكون عاجزين عن إدماجه في (ما نخبره على أنه) واقعنا ، ومن ثم نضطر إلى أن نخبره على أنه شبح كابوسي . وهذا ما كانت الصورة المفحمة لانهيّار مركز التجارة العالمي : صورة ، شبيهة ، "تأثير" ، وصل ، في نفس الوقت ، "الشيء ذاته" . و "تأثير الواقعي" هذا ليس هو ما أطلق عليه رولان بارت Roland Barthes ، قديماً في الستينات ، اسم **"l'effet du réel"** [تأثير الواقعي] : إذ أنه ، بالأحرى ، نقيضه بالضبط : **"l'effet de l'irréel"** [تأثير اللا واقعي] . ويعني هذا أنه : في تعارض مع **effet du réel** [تأثير الواقعي] عند بارت ، الذي يجعلنا فيه النص نقبل نتاجه المختلق باعتباره "واقعياً" ، نجد هنا أن الواقعي ذاته ، كي يمكنه الاستمرار ، يجب أن يتم إدراكه على أنه شبح كابوسي غير واقعي . عادة ما نقول أننا يجب ألا نخطيء بأخذ الاختلاق على أنه واقع – نذكر اليقين ما بعد الحدّاث الذي بموجبه يكون "الواقع" نتاجاً خطابياً ، اختلاقاً رمزياً نسيء إدراكه على أنه كيانٌ جوهري مستقل ذاتياً . ودرس التحليل النفسي هنا هو الدرس المعاكس : **لا يجب أن نخطيء الواقع على أنه اختلاق** – يجب أن نكون قادرين على أن نتبين ، فيما نخبره على أنه اختلاق ، النواة الصلبة للواقعي التي لا نستطيع الإبقاء عليها إلّا إذا صبغناها بالصبغة الاختلاقية . باختصار ، يجب أن نتبين أي جزء من الواقع يتم "تجاوز وظيفته" من خلال

الفانتازيا ، بحيث أنه ، رغم كونه جزءاً من الواقع ، يتم إدراكه على نحو اختلاقي . الأصعب بكثير من شجب / تعرية (ما يبدو لنا على أنه) الواقع باعتباره اختلاقاً هو الإقرار بجزء الاختلاق في الواقع "الواقعي" . (وهذا يعيدنا ، بالطبع ، الى المقولة اللاكائية القديمة القائلة بأنه ، بينما تستطيع الحيوانات الخداع عن طريق تقديم ما هو زائف على أنه حقيقي ، فإن البشر وحدهم (الكيانات التي تسكن الفضاء الرمزي) يمكنهم الخداع عن طريق تقديم ما هو حقيقي على أنه زائف . ويتيح لنا هذا الاستبصار أيضاً أن نعود الى مثال من يجرحون أنفسهم cutters : إذا كان النقيض الحقيقي للواقعي هو الواقع ، فماذا إذن ، إذا كان ما يهربون منه فعلاً حين يجرحون أنفسهم ليس مجرد الشعور باللاواقعية ، بالافتراضية الاصطناعية لعالم حياتنا ، بل أنه الواقعي ذاته الذي ينفجر متكرراً في هيئة هلاوس بلا ضابط تبدأ في مطاردتنا فور أن نفقد مرسانا في الواقع ؟

يساعدنا فيلم ميشائيل هانيكي Michael Haneke ، معلمة البيانو (فرنسا / النمسا 2001) ، في التغلب على هذه المعضلة . يقوم الفيلم على أساس رواية قصيرة بقلم إلفريده ييلنيك Elfriede Jelinek ، قصة علاقة غرامية مشبوبة لكنها منحرفة بين عازف بيانو شاب وبين معلمته الأكبر سناً (لعبت دورها ببراعة فائقة إيزابيل هوبير Isabelle Huppert) : إنها مستمدة من الكليشيه القديم ، من فيينا نهاية القرن fin-de-siecle ، عن فتاة شابة مكبوتة جنسياً من عائلة راقية تقع في الحب بشغف مع معلمها للبيانو . واليوم ، بعد مائة عام ، ينقلب ما هو أكثر من دوري كل من النوعين : في عصرنا الإباحي ، يجب أن تكتسب المسألة انعطافة منحرفة . تأخذ الأمور منحىً مشؤوماً وتبدأ في الانزلاق نحو النهاية المأساوية التي لا ترحم (انتحار المعلمة) عند نقطة محددة : حين ، رداً على مبادرات الفتى الجنسية الجياشة ، تفتح المعلمة "المكبوتة" نفسها له بعنف ، وتكتب له خطاباً بقائمة مفصلة لمطالبها (وهي أساساً ، سيناريو لممارسات مازوكية : كيف يجب أن يقيدها ، ويجبرها على لعق مؤخرته ، ويصفعها بل ويضربها ، وما الى ذلك) . و الأمر الحاسم أن تكون هذه المطالب مكتوبة - فما يتم تسجيله على الورق صادم traumatic لدرجة أنه لا يمكن التفوه به في الحديث المباشر : إنه أعمق أعماق فانتازياها ذاتها .

و حين يتواجهان هكذا - هو بانفجاراته العاطفية الجياشة و هي بتباعدها البارد ، غير المنفعل - فلا يجب أن يخدعنا هذا المشهد : فهي من تفتح نفسها في الحقيقة ، باسطة فانتازياها عارية أمامه ، بينما يلعب هو ببساطة لعبة إغواءٍ أشد سطحية . ولا عجب أنه يتراجع مذعوراً من انفتاحها : فالعرض المباشر لفانتازياها يغيّر من منزلتها في عينيه ، محولاً موضوع حب باهر الى كيان منفّر لا يستطيع أن يتحمّله . لكنه ، بعدها على الفور ، يصبح هو نفسه منجذباً بصورة منحرفة الى السيناريو الفانتازمي [التوهمي] fantasmatic الذي وضعته ، واقعا في أحبولة متعته jouissance المفرطة ويحاول ، في البداية ، أن يردّ إليها رسالتها بأن ينفذ عناصر من فانتازياها (يصفعها حتى يبدأ أنفها في النزف ، ويرفسها بعنف ؛ وحين تنهار ، منسحبةً من تحقيق فانتازياها ، ينتقل الى الفعل ويضاجعها حتى يسجل انتصاره عليها . والفعل الجنسي المكتمل الذي يلي ذلك ، في ألمه الذي يكاد لا يطاق ، هو أفضل مثال على عبارة لا كان ليس ثمة ارتباط جنسي il n'y a pas de rapport sexuel : فرغم أن الفعل تم أدائه في الواقع ، فإنه - بالنسبة لها ، على الأقل - محروم من دعائمه الفانتازمية [التوهمية] ، وبذلك يتحول الى خبرة مقرفة تتركها باردة تماماً ، دافعة إياها نحو الانتحار . وسوف يكون مضللاً تماماً أن نفسر إظهارها للفانتازيا باعتباره تشكيلاً - دفاعياً ضد الفعل الجنسي في حد ذاته ، كتعبير عن عجزها عن إطلاق العنان لنفسها والتمتع بالفعل : فعلى العكس ، تشكل الفانتازيا المعروضة جوهر وجودها ، ما هو "بداخلها أكثر منها هي ذاتها" ، والفعل الجنسي ذاته هو ما يعّد ، فعلياً ، تشكيلاً - دفاعياً ضد التهديد المتجسد في الفانتازيا .

في سمينار لاكان (غير المنشور) عن القلق (1962 - 63)، يحدد أن الهدف الحقيقي للمازوكي ليس توليد **المتعة jouissance** في الآخر ، بل تقديم قلقها . و هذا يعني : أن المازوكي رغم أنه يُخضع نفسه لتعذيب الآخر ، رغم أنه يريد أن يخدم الآخر ، فإنه هو نفسه يحدد قواعد عبوديته ؛ وبالتالي ، فبينما يبدو أنه يقدم نفسه بوصفه أداة **متعة jouissance** الآخر فإنه فعليا يكشف رغبته هو للآخر وبذلك يولد في الآخر القلق - فالموضوع الحقيقي للقلق ، بالنسبة لللاكان ، هو على وجه الدقة القرب (المفرط) لرغبة الآخر . ذلك هو الاقتصاد الليبيدي في **معلمة البيانو** للحظة التي تقدّم فيها البطلة لمغويها سيناريو مازوكيا مفصلا للكيفية التي يجب عليه بها أن يسيء معاملتها : وما ينفّره هو هذا الكشف الكامل لرغبتها . (ألا يوضح ذلك أيضا بشكل كامل المشهد المؤلم في فيلم **نادى القتال Fight Club** لديفيد فينشر David Fincher وفيه يقوم إد نورتون Ed Norton بضرب نفسه أمام رئيسه ؟ إذ من البديهي أن هذا الاستعراض يثير قلق الرئيس ، بدلا من جعله يتمتع به.)

لهذا السبب ، فإن الخيار الحقيقي بصدد الصدمات traumas التاريخية ليس هو الخيار بين تذكرها و نسيانها : فالصدمات التي لا نكون مستعدين أو قادرين على تذكرها تطاردنا بصورة أقوى بكثير . ومن ثم يجب أن نقبل مفارقة أننا ، كي ننسى بالفعل حادثة ما ، لابد لنا أولاً أن نستجمع القوة لتذكرها بشكل مناسب . ولتعليل هذه المفارقة ، يجب أن يظل في ذهننا أن نقيض الوجود **existence** ليس اللاوجود nonexistence ، بل الإلحاح **insistence** : فما لا يوجد ، يواصل الإلحاح **insist** ، مجاهداً من أجل الوجود (و أول من يصوغ هذا التعارض كان ، بالطبع ، شيللينج Schelling ، حين أدخل ، في **مبحث في الحرية الإنسانية** ، التمييز بين الوجود وبين أساس الوجود) . فحين تفوتني فرصة أخلاقية حاسمة ، وأفضل في القيام بتحريك يمكن أن "يغيّر كل شيء" ، سوف يطاردني إلى الأبد نفس لا وجودٍ ما كان يجب أن أفعله : ورغم أن ما لم أفعله ليس له وجود ، فإن شبحه يواصل الإلحاح . وفي قراءة بارزة لـ "أطروحات في فلسفة التاريخ" لفالتر بنيامين ،(11) يطوّر إريك سانتنر Eric Santner مقولة بنيامين بأن تدخلا ثوريا راهنا يكرّر / يستردّ redeems المحاولات الماضية الفاشلة : "فالأعراض" - الرواسب traces الماضية التي يتم استردادها ارتجاعيا من خلال "معجزة" التدخل الثوري - ليست "أفعالا منسية" ، بل بالأحرى **إخفاقات** منسية في القيام بفعل ، إخفاقات في تعليق قوة الرابطة الاجتماعية التي تكبت أفعال التضامن مع "الآخرين" في المجتمع :

الأعراض لا تسجّل المحاولات الثورية الفاشلة فحسب ، بل تسجل ، بشكل أشدّ تواضعا ، **الإخفاقات** الماضية في **الاستجابة** للنداءات من أجل الفعل أو حتى للتقصص الوجداني لصالح أولئك الذين تنتمي معاناتهم بمعنى ما إلى شكل الحياة الذي يكون المرء جزءا منه . وهي تحتل مكان شيء **موجود is there** ، شيء **يلحّ** في حياتنا ، رغم أنه لم يحقق أبدا اتساقا أنطولوجيا كاملا . من هنا فإن الأعراض بمعنى من المعاني هي السجلات الافتراضية لـ **الخواءات** - أو ، بالأحرى ، دفاعات ضد الخواءات - التي تتواصل في الخبرة التاريخية .

يحدد سانتنر كيف يمكن لهذه الأعراض أن تأخذ أيضا شكل انقطاعات في الحياة الاجتماعية "العادية" ، مثل عمليات المشاركة في الطقوس البذيئة للإيديولوجيا المسيطرة . ألم تكن الـ **Kristallnacht** ***[ليلة الزجاج المكسور] السيئة الصيت لعام 1938 - هذا الانفجار شبه المنظم ، شبه - العفوى للهجمات العنيفة على المنازل ، والمعابد ، والمتاجر اليهودية ، والناس أنفسهم - "كرنفالا" باختينيا لو كان ثمة كرنفال من هذا النوع على الإطلاق ؟ يجب أن نقرأ هذه الـ **Kristallnacht** بالضبط على أنها "عرّض" : فالسخط المحتدم لمثل هذا الانفجار للعنف

يجعله عَرَضاً - يجعله التشكيل الدفاعي الذي يخفي خواء الفشل في التدخل بصورة فعالة في
الأزمة الاجتماعية . بعبارة أخرى ، فإن نفس سخط المذابح المعادية للسامية هو برهان **بالضد a**
contrario على إمكان الثورة البروليتارية الأصلية : وطاقته المفرطة لا يمكن قراءتها إلا
كرد فعلٍ للإدراك (اللا واعى) للفرصة الثورية الضائعة . كذلك أليست القضية النهائية للـ
أوستالجيا Ostalgie (الحنين للماضي الشيوعي) بين الكثير من المثقفين (وحتى "الناس
العاديين") في جمهورية ألمانيا الديمقراطية البائدة هي أيضاً توقُّ - ليس للماضي الشيوعي ،
لما جرى فعلاً في ظل الشيوعية ، بقدر ما هو ، بالأحرى ، توقُّ لما كان يمكن أن يحدث هناك ،
للفرصة الضائعة لإقامة ألمانيا أخرى ؟ وبالتالي ، أليست الانفجارات ما بعد - الشيوعية للعنف
النازي - الجديد هي أيضاً برهان سلبي على وجود هذه الفرص الانعناقية ، انفجار مرصّي
للسخط يُظهر إدراكاً للفرص الضائعة ؟ ولا يجب أن نخشى رسم توازن مع الحياة النفسية
الفردية : فمثلما يترك الوعي بفرصة "خاصة" ضائعة (لنقل ، فرصة الانخراط في علاقة حب
متحققة) آثاره عادة تحت قناع أشكال قلق "لاعقلانية" ، ونوبات صدام ، ونوبات سخط ، فإن
خواء الفرصة الثورية الضائعة يمكن أن ينفجر في نوباتٍ "لاعقلانية" من السخط المدمر

هل يجب ، إذن ، رفض "الشغف بالواقعي" بوصفه كذلك ؟ بالتأكيد لا ، لأننا فور أن نتبني هذا
الموقف ، سيكون التوجه الوحيد المتبقي هو رفض المضيّ الى نهاية المطاف ، توجه "الحفاظ
على المظاهر" . والمشكلة مع "شغف" القرن العشرين "بالواقعي" لم تكن أنه شغف بالواقعي ،
بل أنه كان شغفا زائفاً كان سعيه الذي لا يلين الى الواقعي خلف التبدلات هو الاستراتيجية
الخداعية **stratagem** النهائية لتجنب مواجهة الواقعي - كيف ؟ لنبدأ بالتوتر بين العام
universal والجزئي particular في استخدامنا لمصطلح "خاص" : فحين نقول "لدينا أموال
خاصة !" ، فإننا نعني أموالاً غير مشروعة أو سرية على الأقل ، وليس مجرد حصة خاصة
من الأموال العامة : وحين يقول شريك جنسيّ "هل تريد شيئاً خاصاً ؟" ، فإنه هو أو هي يعني
ممارسة غير - قياسية "منحرفة" ؛ وحين يشير ضابط أو صحفي الى "إجراءات استجواب
خاصة" ، فإنه يعني التعذيب أو غيره من الضغوط المماثلة غير المشروعة . (ألم تكن الوحدات
في معسكرات الاعتقال النازية ، التي تبقى على حدة وتستخدم في أفعاع أعمال قتل وإحراق
الآلاف ، والتخلص من الجثث ، تسمى **Sonderkommando** ، الوحدات الخاصة ؟) وفي
كوبا ، يشار كذلك للفترة الصعبة التي تلت تحليل الأنظمة الشيوعية في شرق أوروبا باعتبارها
"الفترة الخاصة" .

في ضوء ذلك ، لا بد أن نحتفي بعبقريّة فالتر بنيامين التي تتلأأ في نفس عنوان عمل مبكر هو :
في اللغة بوجه عام و اللغة الانسانية بوجه خاص . والمسألة هنا ليست أن اللغة الانسانية هي
فصيحة من لغة عامة ما "بوصفها كذلك" تتضمن بدورها فصائل أخرى (لغة الآلهة والملائكة ؟
اللغة الحيوانية ؟ لغة كائنات ذكية أخرى موجودة هناك في الفضاء ؟ لغة الكمبيوتر ؟ لغة الذي
إن إيه DNA [الحمض النووي] ؟) : فليس ثمة لغة موجودة فعلياً بخلاف اللغة الانسانية - لكن
، لكي نفهم هذه اللغة "الجزئية" particular ، يجب أن ندخل حداً أدنى من الاختلاف ، بأن
ندركها على أساس الفجوة التي تفصلها عن اللغة "بوصفها كذلك" (البنية الخالصة للغة المجردة
من العلامة المميزة للتناهي الانساني ، و المشاعر الشبقية والوفاة ، و الصراعات من أجل
السيطرة و بذاءة السلطة) . هذا الدرس البنياميني هو الدرس الذي غاب عن هابرماس
Habermas : فما يفعله هابرماس هو بالضبط ما يجب ألا يفعله المرء - إنه يطرح posits
"اللغة بوجه عام" (الكليات التفاعلية pragmatic universals) المثالية مباشرة باعتبارها
المعيار للغة الموجودة فعلياً . وهكذا ، في ضوء عنوان بنيامين ، يجب أن نصف منظومة
constellation القانون الاجتماعي على أنها منظومة "القانون بوجه عام والوجه السفلي
underside البذئ لأنها الأعلى بوجه خاص"

كيف ينطبق هذا على التحليل الاجتماعي ؟ لنأخذ تحليل فرويد لحالة الرجل الفأر. (12) كانت أم الرجل الفأر من مرتبة اجتماعية أعلى من أبيه، بينما كان لأبيه ولعٌ باللغة الخشنة وميراثٌ من الديون غير المدفوعة . وفضلا عن ذلك ، علم الرجل الفأر أن أبيه ، قبل أن يقابل أمه بقليل ، كان يطارده فتاة جذابة لكنها معدمة ، تخلى عنها ليتزوج امرأة غنية . ووضعت خطة أمه لتزويجه من عائلة غنية الرجل الفأر في نفس موقف أبيه : الخيار بين الفتاة الفقيرة التي أحبها وبين الزيجة التي رتبها أمه و الواعدة ماديا بدرجة أكبر. ضمن هذه الأحداث يجب أن نضع فانتازيا تعذيب الفأر (يربط الضحية بقدرٍ يحتوي على فئران جائعة ؛ ويوضع القدر مقلوبا فوق إلبته ، بحيث تقرض الفئران فاتحة طريقها الى إسته): وقد تم حكي هذه القصة للرجل الفأر خلال تدريبيه العسكري . كان حريصا على أن يُظهر للضباط النظاميين أن الناس من أمثاله (من عائلة ميسورة) يمكنهم رغم ذلك أن يتقبلوا صرامة حياة الجندي مثلما يفعل أي جندي متمرس من أصلٍ أكثر تواضعا - وبهذه الطريقة ، أراد الرجل الفأر التوفيق بين قطبي الغنى والفقر ، المنزل الاجتماعي الأعلى والأدنى ، اللذين قسّما تاريخ عائلته . دافع نقيب وحدته القاسي بحماس عن ممارسة العقوبة البدنية ، وحين اختلف معه الرجل الفأر بقوة ، ألقى الضابط ورقته الرابعة ووصف تعذيب الفأر . لا يقتصر الأمر على أن تعدد الروابط التي تدعم القوة الفاتنة الفظيعة لفانتازيا تعذيب الفأر يدعمها نسيج التداخيات الدالة (*Rat* - نصيحة ؛ *Ratte* - فأر ؛ *Rate* - الفوائد المصرفية الواجبة الدفع ؛ *heiraten* - يتزوج ؛ *Spielratte* - كلمة عامية تشير الى المقامر القهري . . .). فما يبدو حاسما هو الحقيقة - التي نادرا ، إن حدث على الإطلاق ، ما يذكرها المفسرون العديدون - والقائلة بأن الخيار الذي يواجهه كل من الأب والإبن يتعلق **بتناحر طبقي** : فكلاهما حاول التغلب على الانقسام الطبقي بالتوفيق بين الجانبين المتعارضين ؛ ونصيبهما هو نصيب صبي من أصول متواضعة يتزوج من عائلة ثرية ، لكنه رغم ذلك يحتفظ بتوجه طبقة دنيا متأصل . عند هذا المفترق بالضبط يتدخل شخص النقيب القاسي : وبذاته الخشنة تكذب فكرة المصالحة الطبقيّة ، مستحضرة ممارسات بدنية قاسية تبقي على السطوة الاجتماعية . ألا يكون ممكنا أن نقرأ شخص النقيب القاسي هذا باعتباره شخصا فاشيا يقوم بالممارسة البذيئة للسلطة الوحشية ؟ باعتباره بلطجيا فاشيا كلبيا ووحشيا ينبذ الليبرالي الرقيق القلب ، واعيا أنه يقوم بعمله القدر بدلا منه ؟

يرسم فيلم **يوم القيامة الآن ريداكس** (2000) *Apocalypse Now Redux*، النسخة الأطول الحديثة المونتاج لفيلم فرانسيس فورد كوبولا ، **يوم القيامة الآن** ، أحداثيات هذا الإفراط النبوي لسلطة الدولة بأوضح طريقة ممكنة . أليس مما له مغزى أن شخصية كورتز Kurtz ، "الأب البدئي" primordial الفرويدي - متعة - الأب البذيئة غير الخاضعة لأي قانون رمزي ، السيد الكلي الذي يتجاسر على مواجهة واقعي المتعة المفزعة وجها لوجه - لا يتم تقديمها على اعتبار أنها بقية من ماضٍ همجي ما ، بل على أنها النتاج الضروري للسلطة الغربية الحديثة ذاتها ؟ فقد كان كورتز جنديا مثاليا - وبوصفه كذلك ، من خلال تماهيه المفرط مع نسق السلطة العسكري ، تحول الى الإفراط الذي يجب على النسق التخلص منه . الأفق النهائي لـ **يوم القيامة الآن** هو هذا الاستبصار في كيفية توليد السلطة لإفراطها الخاص ، الذي يجب عليها التخلص منه في عملية يجب أن تحاكي ما تحاربه (مهمة ويللارد لقتل كورتز لا توجد في السجل الرسمي - "لم تحدث أبدا" ، كما يشير الجنرال الذي يقدم تقريرا الى ويللارد) . ومن ثم ندخل الى مجال العمليات السرية ، مجال ما تفعله السلطة دون أن تعترف به مطلقا . لكن ألا يصدق نفس الشيء على شخوص اليوم التي يقدمها الإعلام الرسمي باعتبارها تجسيدات للشر الجذري ؟ أليس هذا هو الصدق الكامن وراء حقيقة أن بن لادن و طالبان ظهرا كجزء من حركة مقاتلي عصابات مناهضة للسوفيت تدعمها المخابرات المركزية الأمريكية في أفغانستان ، و وراء حقيقة أن نوربيجا في بنما كان عميلا سابقا لوكالة المخابرات المركزية ؟ ألا تحارب الولايات المتحدة

إفراطها الخاص في كل هذه الحالات ؟ ألم يكن نفس الشيء صحيحا بالفعل بالنسبة للفاشية ؟ إذ كان على الغرب الليرالي أن يوحد جهوده مع الشيوعية كي يدمر ثمرة نموه المفرط ذاتها . (وبالتوازي مع ذلك ، أميل الى اقتراح ما كان يجب أن تكون عليه طبعة تخريبية حقا من يوم **القيامة الآن** : أن تكرر صيغة التحالف المناهض للفاشية ، وتجعل ويلارد يقترح على الفيتكونج حلفا لتدمير كورتز .) وما يظل خارج أفق **يوم القيامة الآن** هو منظور فعل سياسي جماعي يكسر هذه الحلقة الشريرة للنسق الذي يولد إفراط أنه الأعلى ثم يضطر الى إبادته : هو عنف ثوري لا يعود يعتمد على بذاءة الأنا الأعلى . هذا الفعل "المستحيل" هو ما يحدث في كل صيرورة ثورية أصيلة .

وعلى الجانب المقابل من المجال السياسي ، فإن النموذج الأصلي archetypal للمشهد السينمائي لأيزنشتاين ، الذي يعبر عن العريضة الماجنة orgy الفياضة للعنف الثوري المدمر (ما دعاه أيزنشتاين نفسه بأنه "عريضة باخوسية تدميرية حقيقية") ينتمي الى نفس السلسلة : فعندما يقتحم الثوريون المنتصرون ، في فيلم **أكتوبر** ، أقبية الخمر في قصر الشتاء ، ينغمسون في عريضة ماجنة نشوانية لتحطيم الآلاف من زجاجات الخمر الغالية الثمن ؛ وفي **مرج بيزين Bezhin Meadow** ، يشق رواد القرية طريقهم الى داخل الكنيسة المحلية ويدنسونها ، مجردينها من ذخائرها المقدسة ، ويتشاجرون على أيقونة ، ويجربون ارتداء الثياب بصورة تدينسية ، ويسخرون بزندقة من التماثيل في هذا التعليق للنشاط الأداتي الموجه الى هدف ، نجد أمامنا فعليا نوعا من "الإنفاق الجامح" على طريقة باتاي - والرغبة الورعة في تجريد الثورة من هذا الإفراط هي ببساطة الرغبة في الحصول على ثورة بدون ثورة .

هذا المشهد يجب وضعه في تعارض مع ما يفعله أيزنشتاين في المشهد النهائي المرعب للجزء الثاني من **إيفان الرهيب** : فالعريضة الماجنة الكرنفالية التي تجري تمثل المكان الباختيني الفانتازمي (التوهمي) الذي تنقلب فيه علاقات السلطة "العادية" : الذي فيه يكون القيصر عبدا للأحمق الذي يعلنه قيصرا جديدا . في مزيج غريب من الفيلم الموسيقي الهوليوودي و المسرح الياباني ، يرقص كورس الـ "أوبريتشنيكي Oprichniki" السيء الصيت (جيش إيفان الخاص ، الذي يقوم بالعمل القذر بدلا منه ، و يصفى أعداءه دون رحمة) ويغني أغنية بذئية تماما تحثي بالبلطة التي تقطع رؤوس أعداء إيفان . تصف الأغنية أولا جماعة من النبلاء الروس يتناولون وجبة فاخرة : "عند المنتصف . . . تنتقل الكؤوس الذهبية من يد الى يد" . عند ذلك يسأل الكورس ، بتوقع متوتر لذيذ : "تعال . تعال . ماذا يحدث بعد ذلك ؟ هيا ، إحك لنا المزيد !" . فيصبح الأوبريتشنيك المنفرد بالاجابة ، مائلا الى الأمام ومصفرا : "أضربوا بالبلطات !" . هنا نكون في الموقع البذئي حيث تلتقي المتعة الموسيقية بالتصفية السياسية - وإذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن الفيلم قد تم تصويره عام 1944 ، ألا يؤكد ذلك الطابع الكرنفالي لحملات التطهير الستالينية ؟ هذه هي العظمة الحقيقية لأيزنشتاين : أنه استشف (والتقط) التحول الجوهري في مرتبة العنف السياسي ، من انفجار الطاقة التدميرية "اللينيني" المحرر الى الوجه السفلي "الستاليني" البذئي للقانون .

و تعتمد الكنيسة الكاثوليكية ذاتها على مستويين (على الأقل) من تلك القواعد البذئية غير المكتوبة . فثمة ، أولا ، بالطبع ، الأوبوس ديبى Opus Dei السيئة الصيت ، "المافيا البيضاء" للكنيسة ذاتها ، المنظمة (شبه -) السرية التي تجسد على نحو ما القانون الخالص الذي يتجاوز أية مشروعية وضعية : وقاعدتها الأسمى هي الطاعة غير المشروطة للبابا والعزيمة التي لا تلين على العمل من أجل الكنيسة ، مع التعليق (المفترض) لكل القواعد الأخرى . وكقاعدة ، يقوم أعضاؤها ، الذين تكون مهمتهم اختراق الدوائر السياسية و المالية العليا ، بالإبقاء على هويتهم في الأوبوس ديبى سرا . وبوصفهم كذلك ، يكونون فعلا "أوبوس ديبى" - "عمل الرب" ؛ بمعنى

أنهم يتبنون الوضع الشاذ للأداة المباشرة لإرادة الآخر الأكبر . ثم هناك الحالات العديدة لانتهاك القساوسة الجنسي للأطفال - وهذه الحالات واسعة الانتشار من النمسا وإيطاليا إلى أيرلندا والولايات المتحدة ، الى درجة أن بإمكاننا في الحقيقة الحديث عن "ثقافة مضادة" متمفصلة داخل نطاق الكنيسة ، بمنظومتها من القواعد الخفية . وهناك ترابط متبادل بين المستويين ، حيث أن الأوبوس ديي تتدخل بانتظام لكتم أخبار الفضائح الجنسية التي يتورط فيها القساوسة . وبالمناسبة ، فإن رد فعل الكنيسة على الفضائح الجنسية يبين كذلك كيف تفهم دورها فعلا : إذ تصر الكنيسة أن هذه الحالات ، مهما كانت مؤسفة ، هي مشكلتها الداخلية ، وتبدي ممانعة هائلة عن التعاون مع الشرطة في تحقيقاتها . وفي الواقع ، فإنها على حق ، على نحو من الأنحاء : فانتهاك الأطفال هو مشكلة الكنيسة الداخلية ؛ بمعنى ، أنه نتاج كامن لنفس تنظيمها الرمزي المؤسسي ، وليس مجرد سلسلة من الحالات الجنائية الخاصة تتعلق بأفراد تصادف أنهم قساوسة . وبالتالي ، فإن الاجابة على هذه الممانعة لا يجب أن تكون فحسب أننا نتعامل مع حالات جنائية ، وأن الكنيسة إذا لم تشارك تماما في التحقيقات بشأنها ، يكون ذلك عنصرا إضافيا تاليا للحقيقة ؛ فضلا عن ذلك ، فإن الكنيسة بوصفها كذلك ، كمؤسسة ، يجب التحقيق بصدد الطريقة التي تخلق بها منهجيا الشروط اللازمة لتلك الجرائم . وهذا أيضا هو السبب في أننا لا نستطيع تفسير الفضائح الجنسية التي يتورط فيها القساوسة باعتبارها تلاعبا من جانب مناهضي العزوبة ، الذين يريدون البرهنة على وجهة نظرهم القائلة بأن الدوافع الجنسية للقساوسة إذا لم تجد متنفسا مشروعا ، فلا بد أن تنفجر بطريقة مَرَضِيَّة : فالسماح للقساوسة الكاثوليك بالزواج لن يحل شيئا على الإطلاق ، لن يكون لدينا قساوسة يؤدون عملهم دون التحرش بالصبي الصغار ، حيث أن البيدوفيليا [لواط الاطفال paedophilia] تولدها مؤسسة الكهنوت الكاثوليكية باعتبارها "انتهاكها الكامن" ، بوصفها ملحقها السري البذيء .

إن لبّ "الشغف بالواقعي" هو هذا التماهي مع - هذه الإيماء البطولية للتحمل الكامل لمسئولية - الوجه السفلي underside القدر للسلطة : التوجه البطولي القائل بأن "أحداً يجب أن يقوم بالعمل القدر ، فلنقم به إذن !" ، هو نوع من العكس - المرآوي للروح الجميلة التي ترفض التعرف على نفسها في نتيجتها . كذلك نصادف هذا الموقف في الإعجاب، اليميني بالمعنى المحدد ، بالاحتفاء بالأبطال المستعدين للقيام بالعمل القدر الضروري : من السهل القيام بشيء نبيل من أجل بلد المرء ، الى حد التضحية بحياة المرء من أجله - لكن الأصعب بكثير هو ارتكاب جريمة من أجل بلد المرء . . . وقد عرف هتلر جيدا جدا كيف يلعب هذه اللعبة المزدوجة بصدد المحرقة النازية [الهولوكوست] ، مستخدما هيملر Himmler ليفشي "السر القدر" . ففي خطابه لقادة قوات الحماية SS *** في بوزين Posen في 4 أكتوبر 1943 ، تحدث هيملر بشكل مكشوف تماما عن القتل الجماعي لليهود باعتباره "صفحة مجيدة في تاريخنا، صفحة لم تكتب أبدا ولن يمكن كتابتها أبدا" ؛ وأدرج في ذلك بوضوح قتل النساء والأطفال :

واجهنا السؤال : ماذا نفعل بالنساء والأطفال ؟ وقررت هنا أيضا أن أجد حلا واضحا تماما . ولم أعتبر أنني على حق في إبادة الرجال - أعني ، قتلهم أو جعلهم يقتلون - و السماح للمنتقمين على هيئة أطفال بأن يكبروا ليواجهوا أبناءنا وأحفادنا . كان يجب اتخاذ القرار الصعب بجعل هؤلاء الناس يخفون من على ظهر الأرض . (13)

وفي اليوم التالي مباشرة ، صدر الأمر الى قادة قوات الحماية SS بحضور اجتماع قدم فيه هتلر بنفسه تقريرا عن حالة الحرب ؛ وهنا ، لم يكن على هتلر أن يذكر الحل النهائي مباشرة - فقد كانت الاشارات المبهمة الى معرفة قادة قوات الحماية والى تواطؤهم المشترك ، كافية : "الشعب الألماني بأسره يعرف أنها مسألة ما إذا كانوا يوجدون أو لا يوجدون . وقد تم تدمير الجسور خلفهم . ولا يبقى سوى الطريق الى الأمام . (14) ومن الناحية المثالية ، يمكننا بالتوازي

مع ذلك أن نضع التعارض بين الشغف "الرجعي" و"التقدمي" بالواقعي : فبينما الشغف "الرجعي" هو مساندة الوجه السفلي البذيء للقانون ، فإن الشغف "التقدمي" هو المواجهة مع واقعيّ التناحر antagonism الذي ينكره "الشغف بالتطهر purification" ، الذي - في كلتا الطبعتين ، اليمينية واليسارية - يفترض أن الواقعي يجري تلمسه في ، ومن خلال ، تدمير العنصر المفرط الذي يُفسح المجال للتناحر . وهنا ، يجب أن نبتعد عن الاستعارات المألوفة للواقعي باعتباره الشيء المفزع الذي من المستحيل مواجهته وجها لوجه ، باعتباره الواقعي النهائي المخبوء تحت طبقاتٍ من الحجب المتخيلة imaginary و / أو الرمزية : إن نفس فكرة أنه ، تحت التبديات الخادعة ، يكمن مختبئاً نوعٌ من الشيء الواقعي النهائي مرعّب بالنسبة لنا بحيث لا نستطيع النظر إليه مباشرة ، هي التبدّي النهائي - فهذا الشيء الواقعي هو شبح فانتازمي يضمن حضوره اتساق بنائنا الرمزي ، وبذلك يمكننا من تجنب مواجهة عدم اتساقه المؤسّس constitutive ("التناحر") . خذ الإيديولوجيا النازية : اليهودي بوصفه الواقعي فيها هو شبحٌ يجري استحضاره من أجل إخفاء التناحر الاجتماعي - أي ، أن شخص اليهودي يمكننا من إدراك الكلية totality الاجتماعية باعتبارها كياناً كلياً Whole عضوياً . ألا يصدق نفس الشيء أيضاً على شخص المرأة - الشيء البعيد المنال بالنسبة لإدراك الذكر ؟ أليست هي أيضاً الشبح النهائي الذي يمكن الرجال من تجنب المأزق المؤسّس constitutive للعلاقة الجنسية ؟

هنا يجب إدخال مقولة *Homo sacer* **الإنسان المخلوع** ***** التي طوّرها مؤخرًا جيورجيو أجامبين Giorgio Agamben : (15) والتميز بين أولئك المندرجين في النظام القانوني وبين **الهومو ساكر** ليس أفقياً فقط ، ليس تمييزاً بين جماعتين من البشر ، لكنه أيضاً وبشكل مطرد تمييز "رأسي" بين طريقتين (متراكبتين) يمكن بهما معاملة **نفس** الناس - باختصار ، فإننا على مستوى القانون ، نعامل كمواطنين ، كرعايا قانونيين ، بينما على مستوى ملحق أنه الأعلى البذيء ، مستوى هذا القانون الفارغ غير المشروط ، نعامل باعتبارنا **هومو ساكر** . ومن هنا ، ربما كان أفضل شعار لتحليل الإيديولوجيا اليوم هو السطر الذي استشهد به فرويد في بداية عمله **تفسير الأحلام** : *Acheronto movebo* - إذا لم تستطع تغيير المنظومة الصريحة للقواعد الإيديولوجية ، فيمكنك محاولة تغيير المنظومة الكامنة للقواعد البذيئة غير المكتوبة .

(2) See Alain Badiou, *Le siecle*, forthcoming from Editions du Seuil, Paris.

(3) ولإضافة ملاحظة شخصية : فإنني في التسعينات المبكرة ، حين كنت أكثر إنخراطا في السياسة السلوفينية ، خُبرتُ تماسّي الخاص مع الشغف بالواقعي : فحين تم وضعي في الاعتبار لشغل منصب حكومي ، كان المنصب الوحيد الذي يثير اهتمامي هو منصب وزير الداخلية أو رئيس المخابرات – وبدت لي فكرة أن أخدم كوزير للثقافة ، أو التعليم ، أو العلوم مثيرة للسخرية تماما ، ولا تستحق حتى تفحصا جادا .

(4) هذا الوجود خارج الرأسمالية يمكن تبينه أيضا في الطريقة التي تواصل بها كوبا الاعتماد على الموقف الاشتراكي القديم للمحاسبة الرمزية : فمن أجل الحساب بطريقة صحيحة ، لا بد لكل حدث أن يتم إدراجه ضمن الآخر الأكبر . وكانت ملاحظة على لوحة إعلانات في أحد فنادق هافانا عام 2001 تقول : "الضيوف الأعزاء ، من أجل تحقيق برنامج تبخير هذا الفندق ، سوف يتم تبخير الفندق يوم 9 فبراير من الساعة 3 بعد الظهر الى 9 مساءً" . لماذا هذا التكرار ؟ لماذا لا يتم ببساطة إبلاغ الضيوف بأن الفندق سيخبر ؟ لماذا يجب أن يكون التبخير جزءا من "برنامج تبخير" ؟ (وبالمناسبة ، يغريني الأمر بأن أسأل إن كانت هذه هي أيضا الطريقة التي يعرض بها المرء لقاءً جنسيا في هذه الظروف : ليس طريقة الإغواء المعهودة ، بل "عزيتي، من أجل تحقيق برنامجنا الجنسي ، لماذا لا نـ . . .") .

(5) يمكن التعبير عن الخاصية النوعية للثورة الكوبية بأفضل ما يمكن عن طريق ثنائية فيديل وتشيه جيفارا : فيديل ، الزعيم الفعلي ، والسلطة العليا في الدولة ، مقابل التشيه ، المتمرد الثوري الأبدى الذي لم يستطع الاكتفاء بمجرد إدارة دولة . ألا يبدو هذا شبيها باتحاد سوفيتي لا يكون فيه تروتسكي قد تم رفضه باعتباره الخائن – الأعظم ؟ تخيل أن تروتسكي ، في منتصف العشرينات ، قد هاجر وتخلّى عن جنسيته السوفييتية لكي يحرض على الثورة الدائمة حول العالم ، وسرعان ما مات بعدها – بعد موته ، كان ستالين سيرفعه الى مرتبة العبادة . . . وبالطبع ، فإن هذا الوفاء للقضية ("الاشتراكية أو الموت !") ، بقدر ما تكون هذه القضية متجسدة في الزعيم ، يمكن بسهولة أن ينحط الى استعداد الزعيم للتضحية (ليس بنفسه من أجل البلد ، بل) بالبلد ذاته من أجل نفسه ، من أجل قضيتّه . (وبالمثل ، فإن البرهان على الوفاء الحقيقي لزعيم ما ليس أن يكون المرء مستعدا لتلقي رصاصة من أجله ؛ فوق هذا وقبله ، يجب أن يكون المرء مستعدا لتلقي رصاصة منه – أن يقبل تهيبته أو حتى التضحية به من قبله لو كان ذلك يخدم أغراضه العليا .)

(6) وعلى مستوى أكثر عمومية ، يجب أن نلاحظ كيف أن الستالينية – بكل وحشية "شغفها بالواقعي" ، واستعدادها للتضحية بملايين الحيوانات من أجل هدفها ، لمعاملة الناس على أنهم أشياء يمكن الاستغناء عنها – كانت في نفس الوقت النظام الأكثر حساسية إزاء الحفاظ على المظاهر المناسبة: وكانت ترد بفزع شامل أينما كان ثمة تهديد بإيقاع الاضطراب في هذه المظاهر (مثلا ، أن تنقل وسائل الإعلام حادثة ما تكشف بوضوح عن فشل النظام : في الاعلام السوفييتي لم تكن ثمة موضوعات سوداء ، ولا تقارير عن الجريمة و الدعارة ، ناهيك عن الاحتجاجات العمالية أو الجماهيرية).

(7) See Marilee Strong, *The Bright Red Scream* , London : Virago 2000.

* أفلام القتل (snuff): التعريف الأكثر شيوعا هو الأفلام التي تصوّر القتل الفعلي لكائن آدمي ويتم انتاجها وتوزيعها بهدف وحيد هو الربح ، وقد تتضمن الأفلام قتل الحيوانات ، أو عمليات القتل الزائفة ، أو حوادث القتل ، أو الانتحار ، وتقضى بعض التعريفات بضرورة أن تكون الأفلام ذات طبيعة بورنوجرافية. ويأتي الاستخدام الاستعاري للكلمة للتعبير عن القتل من

اشتقاقها من الفعل الذي يشير الى إطفاء لهب شمعة . وكان أول استخدام للمصطلح عام 1971 في كتاب عن تشارلز مانسون .

(8) حالة أخرى من الرقابة الإيديولوجية : حين أجرت محطة "سي إن إن" حوارات مع أرامل رجال الإطفاء ، قدم معظمهم الأداء المتوقع : دموع ، وصلوات . . . كلهن باستثناء واحدة ، قالت ، دون دمعة واحدة ، أنها لا تصلي من أجل زوجها المتوفي ، لأنها تعلم أن الصلاة لن تعيده . وعند سؤالها إن كانت تحلم بالانتقام ، قالت بهدوء أن ذلك سيكون خيانة حقيقية لزوجها : فلو كان قد بقي على قيد الحياة ، لكان قد أصر على أن أسوأ ما يمكن عمله هو الخضوع للرجبة في الرد ولسنا بحاجة الى أن نضيف أن هذا الشريط لم يعرض سوى مرة واحدة ، ثم اختفى بعدها من إعادات نفس الحوارات .

(9) See Chapter 3 of Raymond Bellour , *The Analysis of Film* ,
Bloomington : Indiana University Press 2000.

(10) Richard Boothby , *Freud as philosopher* , New York : Routledge
2000, pp. 275 – 6 .

** جانوس Janus : إله روماني يُصوّر بوجهين متعارضين . أحد أقدم الآلهة وأهمها في المجمع الروماني رغم أن طبيعته وأصله يلفهما الغموض . يرجع اسمه واسم جوبيتر الى نفس الجذر . يقال أنه علّم سكان لاتيوم الأوائل المدنية ، وهو حارس الأبواب في روما (januae) ولمعبده مدخلان يغلقان في أوقات السلم ، ويفتحان في أوقات الحرب ، حتى يمكنه أن يهرع لمساعدة الرومان . يفتتح العام لأن شهر يناير Januarius مكرّس له .

(11) Eric Santner , " *Miracles Happen : Benjamin, Rosenzweig, and the Limits of the Enlightenment* " (unpublished paper, 2001).

*** مع تصعيد النظام النازي لإجراءات العداء للسامية، نظّم النازيون ليلة 9-10 نوفمبر عام 1938 هجمات واسعة النطاق على اليهود وممتلكاتهم في ألمانيا والأراضي الخاضعة لها راح ضحيتها 92 يهوديا، وتم أحراق نحو مائتي معبد، كما تم تخريب ونهب آلاف المتاجر والمنازل، ثم اقتيد ما بين 25 ألفا و 30 ألفا الى معسكرات الاعتقال.

(12) See Sigmund Freud, "Notes Upon a Case of Obsessional

Neurosis" (Standard Edition, Vol. 10)

**** وحدات الحماية SS : وحدات الحرس الخاص لهتلر وكان يقودها بنفسه ، وتتكون من العناصر الجرمانية النقية . اشتهرت بنفوذها الواسع وقسوتها البالغة ، وكان أشدها قسوة المجموعات الخاصة ذات الزي الأسود التي تراقب المدنيين والعسكريين على حد سواء . أما قوات العاصفة SA ، فهي أول قوات شكلها النازيون من بقايا الجنود الذين اشتركوا في الحرب العالمية الأولى ، واستخدمها هتلر في عمليات الشوارع والعمليات القذرة لقتل واختطاف التقدميين والشيوعيين وإرهاب الأحياء العمالية . وتم قتل قوادها جميعا في ليلة واحدة بسبب تزايد نفوذهم .

(13) Quoted from Ian Kershaw , **Hitler , 1936-45 :Nemesis**,
Harmondsworth: Penguin 2001 ,pp. 604 – 5

(14) Kershaw , **Hitler** , p. 60.

(15) See Giorgio Agamben , **Homo Sacer**, Stanford University Press
1998.

****الهومو ساكر: الإنسان المنبوذ أو المخلوع . في القانون الروماني كان من يرتكب
نوعا معينا من الجريمة يصبح محظورا من المجتمع و تلغى كل حقوقه المدنية كمواطن
ولا يعود القانون ينطبق عليه. وبذلك يصبح "رجلا مقدسا" ، يمكن لأي شخص أن يقتله،
لكن حياته، من جهة أخرى، "مقدسة" بمعنى سلبي، بحيث لا يمكن التضحية به في طقس
ديني. ويعتبر أجامبين ذلك فصلا لحياة المرء البيولوجية عن حياته السياسية، التي لا يكون
لها أي دلالة. وبذلك يحيا "مجرد حياة" أو "حياة جرداء/ قاحلة/ عارية bare/naked
."life

=====

+++++

إِعادَات تملّك : درس المُلّا عمر

رد فعلنا الأولي هو أن التأثير المدمر لهجمات 11 سبتمبر لا يمكن تفسيره إلا على خلفية الحاجز الذي يفصل اليوم العالم الأول ذا الطابع الرقمي عن "صحراء الواقعي" في العالم الثالث . إن الوعي بأننا نحيا في كونٍ اصطناعي معزول هو الذي يولّد مقولة أن فاعلا مشنوماً ما يهدّدنا طوال الوقت بالدمار الشامل . في منظور ذهان الشك paranoiac ذاك ، يتحول الإرهابيون الى فاعلٍ لا عقلاني مجرد - مجرد بالمعنى الهيجلي لإخراجه من الشبكة السوسيو - إيديولوجية العينية التي أفرزته . يتم رفض كل تفسير يستدعي الظروف الاجتماعية باعتباره تبريراً خفياً للإرهاب ، ولا يتم استحضار كل كيان جزئي إلا بطريقة سلبية : الإرهابيون يخونون روح الإسلام الحقيقية ، ولا يعتبرون عن مصالح وآمال الجماهير العربية الفقيرة . . . في الأيام التي تلت 11 سبتمبر ، نقل الإعلام أن الترجمات الإنجليزية للقرآن وكذلك الكتب عن الإسلام والثقافة العربية عموماً قد احتلت على الفور مرتبة الكتب الأكثر مبيعاً : أراد الناس أن يفهموا ما هو الإسلام ، ومن المأمون أن نخمن أن الغالبية العظمى من أولئك الذين أرادوا فهم الإسلام لم يكونوا عنصريين معادين للعرب ، بل قوما يتلهفون على إعطاء الإسلام فرصة ، على أن يشعروا به ، أن يخبروه من الداخل ، وبذلك يخلصونه من الذنب - كانت رغبتهم أن يفتنوا أنفسهم بأن الإسلام قوة روحية كبرى لا يمكن لومها على الجرائم الإرهابية . و مهما بلغ من تعاطف هذا التوجه (وماذا يمكن أن يكون أكثر قبولاً من الناحية الأخلاقية ، وسط مواجهة عنيفة ، من محاولة أن يضع المرء نفسه داخل عقل الخصم ، وبذلك يُكسب موقفه ذاته طابعاً نسبياً ؟) ، فإنه يظل إيماءة تعمية إيديولوجية بامتياز: فسبر غور مختلف التقاليد الثقافية ليس هو بالتحديد طريقة فهم الديناميات السياسية التي أدت الى هجمات 11 سبتمبر . أليست حقيقة أن الزعماء الغربيين ، من بوش الى نتانياهو وشارون ، يكررون مثل ترتيلة كيف أن الإسلام دين عظيم ، لا شأن له بالجرائم البشعة المرتكبة باسمه ، هي علامة واضحة على أن شيئاً في هذا المديح خطأ ؟ وحين تقوه رئيس الوزراء الإيطالي ، سيلفيو برلوسكوني ، بـ "زلة اللسان" الشهيرة ، في أكتوبر 2001 ، وزعم ، مثيراً امتعاض الليبراليين الغربيين ، أن حقوق الإنسان والحريات نشأت من التقاليد المسيحية ، الأرقى بوضوح من الإسلام ، كان موقفه ، على نحو ما ، صائباً أكثر بكثير من احترام الزعماء الآخرين الليبرالي الأبوي المقرف تجاه العمق الروحي للآخر .

مؤخراً ، راجت في إعلامنا تعليقات من قبيل "نهاية عصر المفارقة" irony ، مؤكدة مقولة أن عصر انزياح المعنى التفكيكي ما بعد الحداثي قد انقضى : والآن نحتاج من جديد الى التزامات راسخة وغير ملتبسة . ومن سوء الحظ ، أن يورجن هابرماس Jurgen Habermas نفسه (في خطاب القبول عند تلقيه جائزة الناشرين الألمان في أكتوبر 2001) قد انضم الى هذه الجوقة ، مشدداً على أن زمن النسبية ما بعد الحداثي قد ولى . (وعلى أية حال ، تشير أحداث 11 سبتمبر الى العجز التام لأخلاقيات هابرماس - فهل يجب أن نقول أن ثمة "تواصلاً مُشوّهًا" بين المسلمين وبين الغرب الليبرالي ؟) وعلى نفس النهج ، أعلن المعلقون اليمينيون من أمثال جورج

ويل George Will على الفور نهاية "الإجازة" الأمريكية "من التاريخ" - إذ أن تأثير الواقع يحطم البرج المعزول للتوجه الليبرالي المتسامح وتركيز الدراسات الثقافية على النصية . نحن ، الآن ، مجبرون على الرد ، على التعامل مع الأعداء الواقعيين في العالم الواقعي . . . لكن ، من نضرب ؟ مهما كان الرد ، فلن يصيب الهدف الصحيح أبدا ، مانحا إيانا رضى كاملا . وسخافة مهاجمة أمريكا لأفغانستان هي حالة بارزة : إذا كانت أعظم قوة في العالم تقصف أحد أكثر البلدان فقرا ، حيث يبقى الفلاحون بالكاد على قيد الحياة فوق التلال المجذبة ، ألا تكون تلك هي الحالة النهائية لتنفيس الغضب العاجز ؟ وفيما عدا ذلك فإن أفغانستان هدف مثالي : بلد أصبح بالفعل حطاما ، دون بنية تحتية ، دمرت الحرب مرارا طوال العقدين الأخيرين . . . لا يمكننا تجنب افتراض أن اختيار أفغانستان قد حددته كذلك الاعتبارات الاقتصادية : أليس أفضل إجراء أن تنفّس عن غضبك في بلد لا يهم أحدا وليس فيه شيء يمكن تدميره ؟. ولسوء الحظ ، لا يمكن لاختيار أفغانستان إلا أن يستحضر النكته عن المجنون الذي يبحث عن مفتاح ضائع تحت عمود نور streetlamp ؛ وحين يُسأل لماذا يبحث هناك ، في حين أنه فقد المفتاح في ركن مظلم ، يجيب : "لكن من الأسهل البحث تحت ضوء قوي !" أليست المفارقة النهائية أنه ، قبل قصف الولايات المتحدة ، كانت كابول بأكملها تبدو فعلا مثل قلب مانهاتن بعد 11 سبتمبر ؟ من هنا تعمل "الحرب على الإرهاب" بمثابة فعل هدفه الحقيقي أن يهددنا لنعتقد على نحو زائف اعتقادا جازما بأن شيئا لم يتغير فعلا .

أصبح كليشيهًا صحفيا بالفعل أن شكلا جديدا من الحرب يبرز الآن : حربٌ تكنولوجيا متقدمة high-tech يقوم بالمهمة فيها القصف الدقيق ، وما إلى ذلك ، دون أي تدخل مباشر من جانب القوات البرية (وإذا كان ثمة احتياج لها على الإطلاق ، فيمكن ترك هذه المهمة لـ "الحلفاء المحليين") . وقد أصبحت عتيقة تلك المقولات القديمة عن القتال وجهها لوجه ، والشجاعة ، وما إلى ذلك . ولابد أن نلاحظ التناظر البنيوي بين هذه الحرب الجديدة عن بعد ، حيث يضغط "الجندي" (وهو خبير كمبيوتر) أزراراً على بعد مئات الأميال ، وبين قرارات الأجهزة الإدارية التي تؤثر على الملايين (خبراء صندوق النقد الدولي وهم يملون الشروط التي يجب أن يلبيها أحد بلدان العالم الثالث كي يستحق المساعدة المالية ؛ ولوائح منظمة التجارة العالمية ؛ ومجالس أدارات الشركات الضخمة وهم يتخذون قرارا بشأن "إعادة الهيكلة" الضرورية) : في كلتا الحالتين ، يكون التجريد منقوشا في ذات الموقف "الواقعي" - يجري اتخاذ قرارات سوف تؤثر على الآلاف ، وتسبب فوضى ودمارا مفرعين في بعض الأحيان ، لكن الصلة مقطوعة بين هذه القرارات "الهيكليّة" وبين الواقع المؤلم للملايين ؛ ف "الخبراء" الذين يتخذون القرارات عاجزون عن تخيل العواقب ، حيث أنهم يقيسون تأثيرات هذه القرارات على أسس مجردة (إذ يمكن لبلد أن يكون "متعافيا ماليا" حتى لو كان الملايين فيه يموتون من الجوع) .

"إرهاب" اليوم هو ببساطة اللحن المضاد المصاحب counterpoint لهذه الحرب . والتهديد الحقيقي على المدى البعيد هو المزيد من أعمال الإرهاب الجماعي التي تشحّب بالمقارنة بها ذكرى انهيار مركز التجارة العالمي - أعمال أقل استعراضيةً ، لكنها أشد رعبا بكثير . ماذا عن الحرب البكتيرية ، ماذا عن استخدام الغاز القاتل ، ماذا عن احتمال إرهاب الذي إن إيه DNA [الحمض النووي] (تطوير سموم لن تؤثر إلا على من يشتركون في جينوم genome [تركيب جيني] بعينه)؟ على النقيض من ماركس ، الذي ارتكز على مقولة الصنم fetish كموضوع صلب يُشوَّش حضوره المستقر على توسطه الاجتماعي ، يجب أن نؤكد أن الصنمية تبلغ ذروتها بالضبط حين يتم "نزع مادية" الصنم ذاته ، ويتحول إلى كيان افتراضي "لا مادي" مائع ؛ ستبلغ صنمية النقود ذروتها بالتحول إلى شكلها الإلكتروني ، حين تكون آخر آثار ماديتها قد اختفت - وعند هذه المرحلة فحسب ستكتسب شكل حضور شبحي غير قابل للتدمير : أنا ادين لك بـ 1000 دولار ، ومهما كان عدد أوراق البنكنوت المادية التي أحرقها ، أظل مدينا لك بـ

1000 دولار - الدين منقوش في مكان ما في الفضاء الرقمي الافتراضي . . . ألا يصدق نفس الشيء على الحرب أيضا ؟ بعيدا عن الإشارة الى حرب القرن العشرين ، فإن انفجار وانهيار برجى مركز التجارة العالمي في سبتمبر عام 2001 مثلاً ، بالأحرى ، آخر صيحة استعراضية لحرب القرن العشرين . وما ينتظرنا هو شيء أشدّ هولاً بكثير : شبح حرب "لا مادية" يكون الهجوم فيها غير مرئي - فيروسات ، وسموم يمكن أن تكون في أى مكان و في لا مكان . على مستوى الواقع المادي المرئي ، لا يحدث شيء ، لا انفجارات ضخمة ؛ ورغم ذلك يبدأ الكون المعروف في الانهيار ، وتتحلل الحياة .

إننا ندخل عصرا جديدا من حروب ذهان الشك paranoiac ستكون أعظم مهمة فيها هي تحديد العدو وأسلحته . وفي هذه الحروب الجديدة ، يتخلى الفاعلون شيئا فشيئا عن تحمل مسؤولية أفعالهم علنا : ليس فقط أن "الارهابيين" ذاتهم لم يعودوا متلهفين على تحمل المسؤولية عن أفعالهم (فحتى القاعدة السيئة الصيت لم تتحمل صراحة مسؤولية هجمات 11 سبتمبر ، ناهيك عن اللغز المحيط بمصادر خطابات الأنثراكس)؛ بل إن الإجراءات الحكومية "المناهضة للإرهاب" تلفها هي ذاتها سحابة من السرية - ويشكل هذا كله تربة مثالية لتفريخ نظريات المؤامرة و ذهان الشك الاجتماعي المعمم .

لكن ، أليس الوجه الآخر لهذا الحضور الكلي الذهاني التشككي paranoiac للحرب غير المرئية هو نزاع جوهرها ؟ مثلما نشرب بيرة بدون كحول أو قهوة بدون كافيين ، فإننا الآن ننال حربا مجردة من جوهرها - حربا افتراضية يجرى خوضها خلف شاشات الكمبيوتر ، حربا يخبرها المشاركون فيها باعتبارها لعبة فيديو ، حربا ليس فيها ضحايا (على جانبنا ، على الأقل) . مع انتشار الهلع من الأنثراكس في أكتوبر عام 2001 ، جرب الغرب أول مذاق لهذه الحرب الجديدة "غير المرئية" التي فيها - وهذا جانب لا بد أن نضعه في أذهاننا دوماً - نكون ، نحن المواطنون العاديون ، مُعتمدين بالكامل على السلطات من أجل المعلومات عما يجري : فنحن لا نرى ولا نسمع شيئا ؛ وكل ما نعرفه يأتي من الإعلام الرسمي . قوة عظمى تقصف بلداً صحراويا موحشا وتكون ، في نفس الوقت ، رهينة لبكتيريا غير مرئية - هذه ، وليست انفجارات مركز التجارة العالمي ، هي أولى صور حرب القرن الواحد والعشرين . وبدلا من تنفيس الغضب السريع ، لابد أن نواجه بعض الأسئلة الصعبة : ماذا ستعنى "الحرب" في القرن الحادى والعشرين ؟ من سيكونون "هم" إن لم يكونوا ، بوضوح ، لا دولا ولا عصابات إجرامية ؟ وهنا لا يمكننى مقاومة إغراء استحضار التعارض الفرويدي بين القانون العام وبين قرين أنه الأعلى البذئ : وبالتوازي ، أليست "المنظمات الإرهابية الدولية" هي القرين البذئ للشركات الكبرى متعددة الجنسية - الآلة الريزومية النهائية ، الكلية الحضور ، رغم أنها دون قاعدة إقليمية واضحة ؟ أليست هي الشكل الذي تلاعت به "الأصولية" القومية و/ أو الدينية مع الرأسمالية الكوكبية ؟ ألا تجسد التناقض النهائي ، بمضمونها الجزئي/الحصري و أدائها الكوكبي الدينامي ؟

على نحو ما ، يستبق فيلم صربي (بعد -) يوغوسلافي شهير ، هو قرية جميلة ، لهب جميل (سرديان دراجوفيتش Srdjan Dragojevic ، 1996) هذا التحول في صورة العدو . (16) تحدث القصة خلال الشتاء الأول للحرب البوسنية ، حين يحاصر الجنود البوسنيون مجموعة من مقاتلي الجيش الصربي في نفق سكك حديد مهجور ؛ وبين نوبات اندلاع القتال ، يستفز الجنود داخل وخارج النفق بعضهم بتبادل الشتائم القومية . لكن الملمح الأساسى للفيلم هو أن هذه المواجهة بين الجانبين المنخرطين في النزاع ، الذي يدوم عشرة أيام ، يتم تقديمها بشكل كامل من منظور أولئك الموجودين داخل النفق ، أي المقاتلين الصرب ؛ وحتى لحظة التنوير النهائية، يتم تقديم "الجانب المسلم" كمجرد تجميع لما سماه ميشيل شيون Michel Chion "أصواتا سمعية"

؛ شتائم فجة أو صيحات شبه - حيوانية لم تنسب (بعد) الى أفراد معينين محددين بصريا ، وهكذا تكتسب بعدا شبحيا كلي القوة .(17) وبالطبع ، فإن الأداة السردية التي يتم استنفارها بهذه الطريقة ، مأخوذة من الكثير من أفلام الرعب ، وحتى من أفلام الغرب الأمريكي ، التي يتم فيها تطويق مجموعة من الشخصيات الودودة من جانب عدو غير مرئي لا يتم سماعه ورؤيته إلاّ تحت قناع أشباح عابرة وتبديلات غائمة (من فيلم الغرب الأمريكي الذي لم يلق التقدير الواجب ، **طبول الأباتشي Apache Drums** ، لجاك تورنير Jacques Tourneur ، الى فيلم جون كاربنتر John Carpenter **الهجوم على المنطقة 13 - Assault on Precinct 13**) . (18)

هذه الأداة الشكلية ذاتها تجربنا ، نحن المشاهدين ، على التماهي مع المجموعة الصربية المحاصرة ، كذلك يدعم ملمح غريب آخر حقيقة تقديم الجنود الصرب باعتبارهم نقطة تماهي المشاهد : فرغم أننا نرى ، في بداية الفيلم ، قرى مسلمة مدمرة من جانب جنود صرب هائجين بعنف ، فهؤلاء الجنود ليسوا أولئك الذين يقعون فيما بعد في شرك النفق ؛ فهؤلاء الجنود يعبرون فقط بشكل غامض من خلال القرى المحترقة - لا يبدو أن قتلا يجري ، ولا يبدو أن احدا يموت هذا الانقسام الصنمي بالمعنى المحدد (رغم أننا ، نحن المشاهدون ، نعلم جيدا جدا أن هؤلاء الجنود لابد أنهم قاموا بنصيبهم من قتل المدنيين المسلمين ، فذلك لا يعرض لنا ، حتى يمكننا مواصلة الاعتقاد بأن ايديهم ليست ملطخة بالدماء) يخلق شروط تماهينا المتعاطف معهم . وعلى نقبض المسلمين - الذين هم كيان شبحي غير محدد من الشتائم ، والتهديدات ، والصيحات المتوحشة - نجد بهذه الطريقة أن الصرب مكتسبون تماما للطابع الفردي ، ومتميزون أساسا كحفنة من الأبطال المضادين "المجانين لكنهم ودودون". وكما يلاحظ بافل ليفي Pavle Levi بصورة نفاذة ، فإن البعد التخريبي المحتمل لهذه الأداة (إذا كان العدو سمعيا بشكل خالص ، وشبحيا لهذا السبب ، ماذا لو كان مجرد إسقاط ينتجه ذهائ الشك لدى الصرب أنفسهم ، نتيجة لخيالهم الإيديولوجي ؟) يتم تشذيبه "بنزع الطابع السمعي" في النهاية ، حين يتم إظهار خليل ، الجندي المسلم المحوري ، وتحديد هويته تماما باعتباره أفضل أصدقاء الطفولة لميلان ، الشخصية الصربية الرئيسية .

ألا توضح هذه الأمثلة أطروحة "صدام الحضارات" السيئة الصيت ؟ ثمة ، بالطبع ، صدق جزئي في هذه المقولة - لاحظ دهشة الأمريكي العادي : "كيف يمكن أن يُظهر هؤلاء الناس ويمارسوا مثل هذا الاستخفاف بحياتهم ذاتها ؟" أليس الوجه الآخر لهذه الدهشة هو الحقيقة الحزينة التي تقول أننا ، في بلدان العام الأول ، نجد أن من الصعب بصورة متزايدة حتى أن نتخيل قضية عامة أو شاملة يمكننا أن نكون على استعداد للتضحية بحياتنا من أجلها ؟ حينما ، بعد عمليات القصف ، قال وزير خارجية طالبان ذاته أنه يستطيع "الشعور بألم" الأطفال الأمريكيين ، ألم يؤكد بذلك على الدور الإيديولوجي المهيمن لعبارة بيل كلينتون الأثيرة ؟ يبدو كما لو أن الانقسام بين العالم الأول والعالم الثالث يمر أكثر فأكثر على طول خطوط التعارض بين أن يحيا المرء حياة طويلة ومشبعة زاخرة بالثراء المادي والثقافي ، وبين أن يكرّس حياته لقضية متسامية بعينها .

يقفز الى الذهن على الفور مرجعان فلسفيان بشأن هذا التناحر الإيديولوجي بين أسلوب الحياة الاستهلاكي الغربي وبين الأصولية الإسلامية : هما هيجل ونييتشه . أليس هذا هو التناحر القائم بين ما وصفه نييتشه بالعدمية "السلبية" والعدمية "الإيجابية" ؟ نحن في الغرب آخر البشر النيتشويون ، المنغمسون في المتع اليومية الحمقاء ، بينما الراديكاليون المسلمون مستعدون للمخاطرة بكل شيء ، ومنخرطون في الصراع حتى الى حدّ دمارهم الذاتي . (لايمكننا أن نخفق في ملاحظة الدور الدال لبورصة الأوراق المالية في الهجمات : وكان البرهان النهائي على تأثير الصدمة traumatic لهذه الهجمات هو إغلاق بورصة نيويورك للأوراق المالية أربعة أيام ،

وتم تقديم افتتاحها يوم الإثنين التالي باعتباره العلامة المحورية على أن الأشياء تعود الى طبيعتها .) فضلا عن ذلك ، إذا نظرنا الى هذا التعارض الثنائي من خلال عدسة الصراع الهيجلي بين السيد وبين الخادم ، لا يمكننا تجنب تناقض معين : فرغم أننا في الغرب يتم إدراكنا على أننا السادة المستغلون ، فإننا نحن من نحتل موقع الخادم الذي يعجز عن المخاطرة بحياته ، حيث أنه يتعلق بالحياة ومتعتها (تذكر مقولة كولين باول عن حرب التقنية - المتقدمة دون خسائر بشرية) ، بينما الراديكاليون المسلمون سادة مستعدون للمخاطرة بحياتهم إلا أن مقولة "صدام الحضارات" هذه لا بد من رفضها رفضاً قاطعاً : لأن ما نشهده اليوم هي ، بالأحرى ، صدمات داخل كل حضارة . فضلا عن ذلك ، فإن نظرة سريعة الى التاريخ المقارن للإسلام والمسيحية تنبئنا بأن "سجل حقوق الإنسان" للإسلام (إذا استخدمنا هذا المصطلح الذي ينطوي على مفارقة زمنية) أفضل بكثير من سجل المسيحية : ففي القرون الماضية ، كان الإسلام أكثر تسامحاً بشكل ملحوظ تجاه الأديان الأخرى من المسيحية . وقد حان الوقت الآن أيضاً لنتذكر أننا في غرب أوروبا استعدنا ، من خلال العرب ، في العصور الوسطى ، الصلة بترائنا الإغريقي العتيق . وبينما لا تقدم هذه الحقائق عذراً بأية حال عن أعمال اليوم الإرهابية ، فإنها رغم ذلك تبين بوضوح أننا لا نتعامل مع سمة منقوشة في الإسلام "بوصفه كذلك" ، بل مع نتاج شروط اجتماعية - سياسية حديثة .

عم يدور "صدام الحضارات" هذا ، إذا نظرنا بإمعان أكثر ؟ أليست كل "صدمات الحياة الواقعية مرتبطة بوضوح بالرأسمالية الكوكبية ؟ لا يقتصر هدف "الأصولية" الإسلامية على تأثير الرأسمالية الكوكبية الذي يُوقع التآكل في الحياة الاجتماعية ، بل يمتد أيضاً الى الأنظمة "التقليدية" الفاسدة في العربية السعودية ، والكويت ، وما إليها . وأشد المذابح هولاً (مذابح رواندا ، والكونجو ، وسيراليون) لم تجر فحسب - وما زالت تجري - داخل إطار نفس "الحضارة" ، لكنها مرتبطة بوضوح أيضاً بتفاعل المصالح الاقتصادية العالمية . وحتى في الحالات القليلة التي قد تلائم بصورة غامضة تعريف "صدام الحضارات" (البوسنة وكوسوفا ، وجنوب السودان ، الى آخره) ، يمكن بسهولة تبين ظلال مصالح أخرى . ومن ثم يكون من الملائم هنا تبني جرة مناسبة من "الاختزالية الاقتصادية" : فبدلاً من التحليلات اللانهائية عن كيف أن "الأصولية" الإسلامية غير متسامحة تجاه مجتمعاتنا الليبرالية ، وغير ذلك من موضوعات "صدام الحضارات" ، يجب أن نعيد تركيز انتباهنا على الخلفية الاقتصادية للنزاع - على صدام المصالح الاقتصادية ، والمصالح الجيو - سياسية للولايات المتحدة ذاتها (كيف تحتفظ بروابط متميزة مع إسرائيل ومع الأنظمة العربية المحافظة مثل أنظمة السعودية والكويت).

تحت التعارض الثنائي بين المجتمعات "الليبرالية" و"الأصولية" ، "عالم ماك ضد الجهاد" ، يكمن طرف ثالث مُخرج : بلدان من قبيل العربية السعودية والكويت ، ملكيات محافظة بعمق لكنها حليفة إقتصادية لأمريكا ، مندمجة تماماً في الرأسمالية الغربية . هنا يكون للولايات المتحدة الأمريكية مصلحة بسيطة وبالغة الدقة : فلكي يمكن الاعتماد على هذه البلدان من أجل احتياطاتها النفطية ، يجب أن تظل غير ديموقراطية (والفكرة الكامنة وراء ذلك ، بالطبع ، هي أن أي صحو ديموقراطية يمكن أن تؤدي الى توجهات مناهضة لأمريكا) . وهذه حكاية قديمة كان فصلها الأول السيء الصيت بعد الحرب العالمية الثانية هو الانقلاب الذي دبرته المخابرات المركزية الأمريكية ضد رئيس وزراء إيران المنتخب ديموقراطياً ، هدايت مصدق ، عام 1953 - هنالك لم يكن ثمة "أصولية" ، ولا حتى "تهديد سوفيتي" ، بل مجرد صحو ديموقراطية بسيطة ، مع فكرة أن البلد لا بد أن يتولى السيطرة على موارده البترولية ويحطم احتكار شركات البترول الغربية . وقد اتضح المدى الذي تكون الولايات المتحدة على استعداد للوصول إليه في سبيل الحفاظ على هذا الحلف في حرب الخليج عام 1990 ، حين توجب نقل الجنود الأمريكيين

اليهود المتمركزين في السعودية بطائرات الهليكوبتر الى حاملات الطائرات في الخليج كي يُصلّوا ، حيث أن الطقوس الدينية غير الإسلامية ممنوعة على الأراضي السعودية .

هذا الموقف "الشاذ" perverted للأنظمة العربية المحافظة "الأصولية" الحقيقية هو مفتاح الألغاز (الكوميديّة عادة) للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط : فهي تعبّر عن النقطة التي تكون الولايات المتحدة عندها مُجبرة على الاعتراف صراحةً بأسبقيّة الاقتصاد على الديمقراطية - أي ، بالطابع الثانوي والمراوغ لإضفاء المشروعية على التدخلات الدولية - عن طريق الزعم بحماية الديمقراطية وحقوق الإنسان . و ما يجب أن يظل في أذهاننا دوماً بصدد أفغانستان هو أنها ، حتى أعوام السبعينات - أي ، قبل الزمن الذي وقعت فيه البلاد مباشرة في أحبولة صراع القوتين الأعظم - كانت أحد أكثر المجتمعات الإسلامية تسامحا ، بتقاليد علمانية ممتدة : وكانت كابول معروفة بأنها مدينة ذات حياة ثقافية وسياسية نابضة . و بذلك تكون المفارقة أن صعود طالبان ، هذا "النكوص" الظاهري الى النزعة الأصولية المتطرفة ، بعيدا عن أن يعبّر عن ميل "تقليدي" عميق ، كان نتيجة وقوع البلاد في دوامة السياسة الدولية - لم يكن مجرد رد فعل دفاعي عليها ، بل نشأ مباشرة كنتيجة لدعم القوى الأجنبية (باكستان ، والعربية السعودية ، والولايات المتحدة ذاتها).

أما بشأن "صدام الحضارات" ، فدعونا نتذكر الخطاب الذي بعثته صبية أمريكية في السابعة كان أبوها طيارا حارب في أفغانستان : كتبت تقول أنها - رغم أنها أحبّت أباهما كثيرا جدا ، مستعدة لأن تدعه يموت ، أن تضحي به في سبيل بلدها . حين أورد الرئيس بوش هذه السطور ، تم إدراكها على أنها فورة "عادية" للوطنية الأمريكية ؛ دعونا نُجري تجربة ذهنية بسيطة ونتخيل صبية عربية مسلمة تردد أمام الكاميرا بصورة مؤثرة نفس الكلمات عن أبيها الذي حارب من أجل طالبان - لن يكون علينا أن نفكر طويلا في الكيفية المحتملة لرد فعلنا : الأصولية الإسلامية المريضة التي لا تتوقف حتى عن التلاعب والاستغلال القاسيين للأطفال . . . كلُّ سمة منسوبة الى الآخر موجودة بالفعل في أعماق قلب الولايات المتحدة الأمريكية. التعصب القاتل ؟ في الولايات المتحدة اليوم أكثر من مليونين من "الأصوليين" اليمينيين الشعبويين الذين يمارسون كذلك إرهابا يخصصهم ، يكتسب المشروعية من (فهمهم لـ) المسيحية . وحيث أن أمريكا "تؤويهم" ، على نحو من الأنحاء ، هل كان يتوجب على الجيش الأمريكي أن يعاقب الأمريكيين أنفسهم بعد تفجير أو كلاهما ؟ وماذا عن طريقة رد فعل جيرى فالويل Jerry Falwell* و بات روبرتسون Pat Robertson* على أحداث 11 سبتمبر ، بإدراكهما لهذه الأحداث على أنها علامة على أن الرب قد سحب حمايته للولايات المتحدة الأمريكية بسبب حياة الأمريكيين الغارقة في الخطيئة ، وإلقائهما اللوم على المادية اللذّية ، والليبرالية ، و الرغبة الجنسية المتفشية ، وزعمهما أن أمريكا قد نالت ما تستحق ؟ و يجب أن تقدم لنا مادة للتفكير حقيقة أن نفس هذه الإدانة لأمريكا "الليبرالية" ، مثل الإدانة من الآخر المسلم ، جاءت من أعماق قلب أمريكا العميقة *l'Amérique profonde* . وفي 19 أكتوبر ، اضطر جورج دبليو بوش نفسه الى التسليم بأن المدبرين الأرجح لهجمات الأنثراكس ليسوا إرهابيين إسلاميين بل أصوليين مسيحيين يمينيين متطرفين من أمريكا ذاتها - ومرة أخرى ، ألا تقدم حقيقة أن أفعالا تنسب في البداية الى عدو خارجي يمكن أن يتضح أنها أفعال ترتكب في أعماق قلب أمريكا العميقة *l'Amérique profonde* ، تأكيدا إضافيا لفرضية أن الصدام الحقيقي هو الصدام داخل كل حضارة ؟ (19)

والآن ، خلال الأشهر التي تلت الهجمات ، كان الأمر كما لو أننا نحيا في الزمن الفريد بين حادث صادم وبين تأثيره الرمزي ، مثلما في تلك اللحظات الوجيزة بعد اصابتنا بجرح عميق ، وقيل أن يضربنا الألم بكامل مداه . لا ندري بعد كيف سيجري ترميز الأحداث ، وكيف ستكون فاعليتها الرمزية ، وما هي الأفعال التي سنستحضر هذه الرموز لتبريرها . على الأقل ، يمكننا

من جديد أن نخبر بوضوح حدود ديموقراطيتنا : يتم اتخاذ قرارات ستؤثر على مصيرنا جميعا ، و نكتفى جميعا بالانتظار ، مدركين أننا لا حول لنا على الإطلاق . في أعقاب 11 سبتمبر أعاد الأمريكيون في مجموعهم en masse اكتشاف كبريائهم الأمريكي ، رافعين الأعلام ومنشدين معا علانية ، لكنني يجب أن أشدد أكثر من أي وقت مضى على أنه ليس ثمة أي شيء "بريء" في هذه الإعادة لاكتشاف البراءة الأمريكية ، في التخلص من الشعور بالذنب أو المفارقة irony التاريخيين الذين منعنا الكثير من الأمريكيين من تحمّل عبء هويتهم القومية . وما كانت تعنيه هذه الإيماءة هو "موضوعيا" تحمّل عبء كل ما كان يعنيه كون المرء "أمريكيا"

في الماضي — حالة نموذجية للمساءلة الإيديولوجية ، للتحمّل الكامل لتفويض المرء الرمزي ، الذي يدخل الى المشهد بعد الارتباك الذي تسببه صدمة تاريخية . في الصدمة التي أعقبت 11 سبتمبر ، حين بدا أن الأمن القديم قد تحطم لحظيا ، ماذا كان يمكن أن يكون أكثر "طبيعية" من اللجوء الى براءة تمام إيديولوجي صارم ؟ (20) ورغم ذلك ، فإن لحظات البراءة الشفافة تلك على وجه الدقة ، لحظات "العودة إلى الأساسيات" ، حين تبدو إيماءة التماهي "طبيعية" ، هي التي تكون ، من وجهة نظر نقد الإيديولوجيا ، الأشدّ غموضا — وربما الغموض ذاته ، على نحو ما .

لنتذكر لحظة أخرى بريئة الشفافية، هي لقطة الفيديو التي يُعاد عرضها بلا نهاية من طريق السلام السماوى ببيكين ، في ذروة "قلاقل" عام 1989 ، لشابٍ ضئيلٍ بعضا، يقف ، وحيدا ، أمام دبابة عملاقة تتقدم ، ويحاول بشجاعة منعها من التقدم ، بحيث أن الدبابة ، حين تحاول الالتفاف حوله بالاستدارة يمينا أو يسارا ، يتحرك الرجل جانبا كذلك ، ليعاود الوقوف في طريقها : "التمثيل من القوة بحيث أنه يهدم كل فهم آخر . مشهد الشارع هذا ، هذا الزمن وهذا الحدث ، أصبح يشكل البؤرة لكل الرحلات الغربية تقريبا الى داخل الحياة السياسية والثقافية المعاصرة للصين . " (21)

مرة أخرى ، فإن نفس لحظة الوضوح الشفاف هذه (تُقدّم الأشياء في أقصى عريها : رجلٌ وحيد في مواجهة القوة العاشمة للدولة) ، بالنسبة لنظرتنا الغربية ، تعضدها شبكة من التضمينات الإيديولوجية ، تجسد سلسلة من التعارضات الثنائية : الفرد ضد الدولة ؛ المقاومة السلمية ضد عنف الدولة ؛ الانسان ضد الآلة ؛ القوة الداخلية لفرد ضئيل ضد عجز الآلة الجبارة . . . هذه التضمينات ، التي تمارس اللقطة على خلفيتها كامل تأثيرها المباشر ، هذه "التوسطات" التي تعضد التأثير الفوري للقطة ، غير موجودة بالنسبة للمراقب الصيني ، حيث أن هذه السلسلة من التعارضات الثنائية كامنّة في الميراث الإيديولوجي الأوروبي . ونفس الخلفية الإيديولوجية تشرط بصورة مفردة كذلك ، إدراكنا ، مثلا ، للصور المرعبة لأفراد ضئيلين يقفزون من البرج المحترق لمركز التجارة العالمي إلى موت مُحقق .

فماذا عن العبارة التي تطن في كل مكان : "لن يكون أى شيء على حاله أبداً بعد 11 سبتمبر" ؟ مما له دلالة أن هذه العبارة لا يتم أبدا تطويرها الى مدى أبعد — إنها مجرد إيماءة فارغة لقول شيء "عميق" دون أن ندري حقا ما نود قوله . ولهذا يجب أن يكون رد فعلنا الأول عليها هو : حقا ؟ ماذا ، بالتحديد ، لو أن شيئا فارقا لم يحدث في 11 سبتمبر ؟ ماذا لو أن الخبرة القاصمة ليوم 11 سبتمبر قد افادت في النهاية — كما يبدو أن العرض الجماعي للوطنية الأمريكية يُظهر — كأداة مكتت إيديولوجيا الهيمنة الأمريكية من "العودة الى أساسياتها" ، من إعادة تأكيد احداثياتها الإيديولوجية الأساسية ضد نزعة مناهضة العولمة وغيرها من الإغراءات النقدية ؟ ربما توجب عليّ رغم ذلك وضع شرط لهذا القول بإدخال زمنية temporality المستقبل السابق futur anterieur : في 11 سبتمبر ، أتاحت للولايات المتحدة الأمريكية الفرصة

لتدرك نوع العالم الذي تُشكّل جزءا منه . كان يمكن أن تنتهز هذه الفرصة - لكنها لم تفعل ؛ وبدلا من ذلك اختارت أن تُعيد التأكيد على التزاماتها الإيديولوجية التقليدية : لتسقطُ مشاعرُ المسؤولية والذنب تجاه العالم الثالث البائس ، **فنحن** الضحايا الآن ! ولذلك فحين يطالب تيموثي جارتون آش Timothy Garton Ash بصورة مؤثرة ، بصدد محكمة لاهاي : "لا فوهرر ولا دوتشي ، لا بينوشيه ، ولا عيدي أمين ، ولا بول بوت ، يجب أن يُسمح له بعد الآن بالشعور بالأمان من تدخل عدالة الشعب خلف بوابات قصر السيادة" ، (22) يجب علينا ببساطة أن نلاحظ من **ينقص** هذه السلسلة من الأسماء التي ، بصرف النظر عن الاقتران المألوف لهتلر وموسوليني ، تشمل ثلاثة من دكتاتورات العالم الثالث : ألا يوجد على الأقل اسمٌ واحد من الدول السبع الكبرى - شخص مثل هنري كيسنجر Kissinger ، على سبيل المثال ؟

لنأخذ انهيار نظام سياسي - مثلا ، انهيار الأنظمة الشيوعية في شرق أوروبا عام 1990 : عند لحظة معينة ، أصبح الناس واعين فجأة بأن اللعبة قد انتهت ، بأن الشيوعيين قد خسروا . كان الانقطاع رمزيا خالصا ؛ فلم يتغير شيء "في الواقع" - ورغم ذلك ، من تلك اللحظة فصاعدا ، كان الانهيار النهائي للنظام لا يُعد سوى أيام قليلة . . . ماذا لو كان شيء من نفس النوع قد حدث يوم 11 سبتمبر ؟ ربما كانت الضحية النهائية لانهيار مركز التجارة العالمي هي شخصية معينة من الآخر الأكبر ، من المجال الأمريكي . أثناء خطاب نيكيتا خروشوف السري في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي ، الذي يشجب فيه جرائم ستالين ، عانى نحو ستة من المندوبين من انهيارات عصبية و توجّب نقلهم الى الخارج وتقديم العناية الطبية لهم ؛ حتى أن أحدهم ، بوليسلاف بيروت Boleslaw Bierut ، السكرتير العام المتشدد للحزب الشيوعي البولندي ، توفي بأزمة قلبية بعدها بأيام قليلة . (وبعدها بأيام قليلة أطلق الكاتب الستاليني النموذجي ألكساندر فادييف Alexander Fadeyev النار على نفسه) . وليست المسألة أنهم كانوا "شيوعيين نزيهين" - فمعظمهم كانوا متحايلين وحشيين دون أية أوام ذاتية حول طبيعة النظام السوفييتي . ما انهار كان وهمهم "الموضوعي" ، صورة "الآخر الأكبر" الذي على خلفيته استطاعوا ممارسة سعيهم الذي لا يرحم من أجل السلطة : فقد تفكك الآخر الذي نقلوا إليه إيمانهم ، الآخر الذي ، كما هي الحال ، كان يؤمن لصالحهم ، الذات - المفترض - أن - تؤمن بالنسبة لهم . لكن ، ألم يحدث شيء مناظرٌ في أعقاب 11 سبتمبر ؟ ألم يكن 11 سبتمبر هو المؤتمر العشرون للحلم الأمريكي ؟

يجري بالفعل الاستحواذ على 11 سبتمبر لأسباب إيديولوجية : بدءا من المزاعم في كل وسائل الإعلام بأن مناهضة العولمة قد انتهت الآن ، الى مقولة أن صدمة هجمات مركز التجارة العالمي قد كشفت الطابع اللاجوهري للدراسات الثقافية ما بعد الحداثية ، وفقدان صلتها بـ "الحياة الواقعية" . وبينما المقولة الثانية صحيحة (جزئيا) للأسباب الخطأ ، فإن الأولى خطأ محضٌ . الأمر الحقيقي هو أن الطابع التافه نسبيا للموضوعات النقدية للدراسات الثقافية القياسية قد انكشف : إذ ما فائدة تعبير غير مقبول سياسيا politically incorrect قد تكون له ظلال عنصرية ، بالمقارنة مع الموت المضمّن للآلاف ؟ هذا هو مأزق الدراسات الثقافية : هل ستنتمسك بنفس الموضوعات ، معترفة صراحة بأن حربها ضد الاضطهاد هي حربٌ داخل إطار كون رأسمالية العالم الأول - مما يعني أنه ، في النزاع الأوسع بين العالم الأول الغربي وبين التهديد الخارجي له ، لا بد للمرء أن يعيد التأكيد على ولائه للإطار الليبرالي - الديموقراطي الأمريكي الأساسي ؟ أم أنها ستخاطر بأن تخطو باتجاه تحذير موقفها النقدي ؛ هل ستطرح هذا الإطار نفسه بوصفه إشكالية ؟ أما بالنسبة لنهاية مناهضة العولمة ، فإن التلميحات القاتمة التي ترجع الى الأيام الأولى بعد 11 سبتمبر والقائلة بأن الهجمات كان يمكن أيضا أن تكون من عمل إرهابيين مناهضين للعولمة ، ليست ، بالطبع ، إلا تلاعبا فظا : فالطريقة الوحيدة لإدراك ما حدث في 11 سبتمبر هي أن نحدد موقعه في سياق تناحرات الرأسمالية الكوكبية .

لا ندري بعد ماذا ستكون عواقب هذا الحدث على الاقتصاد ، والإيديولوجيا ، والسياسة ، والحرب ، لكن المؤكد شيء واحد : أن الولايات المتحدة الأمريكية، التي ظلت حتى الآن تترك نفسها على أنها جزيرة تتمتع بالحصانة من هذا النوع من العنف ، ولا تشاهده إلا من المسافة المأمونة لشاشة التلفزيون ، متورطة مباشرة الآن . وهكذا فإن البديل هو : هل سيقدر الأمريكيون المزيد من تحصين "مجالهم sphere" ، أم يخاطرون بالخروج منه ؟ إما أن تصرّ أمريكا على - وحتى أن تدعم التوجه اللا أخلاقي العميق القائل "لماذا يجب أن يحدث هذا لنا ؟ الأشياء من هذا القبيل لا تحدث هنا !" ، مما يؤدي إلى المزيد من العدوانية تجاه الخارج المهدّد - إلى تنفيس الغضب موسوم بذهان الشك ، باختصار . وإما أن تخاطر أمريكا أخيراً بالعبور من خلال الشاشة الفانتازمية [التوهمية] التي تفصلها عن العالم الخارجي ، قابلةً لحلها في العالم الواقعي، قائمةً بالنقطة التي طال انتظارها من "لا يجب أن يحدث هنا شيء من هذا القبيل !" إلى "لا يجب أن يحدث في أي مكان شيء من هذا القبيل !" . ذلك هو الدرس الحقيقي للهجمات : فالطريقة الوحيدة لضمان ألا يحدث ذلك هنا ثانية هي منع حدوثه في أي مكان آخر . وباختصار ، يجب أن تتعلم أمريكا بتواضع قبول كونها مُعرّضة للإيذاء كجزء من هذا العالم ، وأن توقع العقاب بالمسؤولين عنه كواجب حزين ، وليس كردٍ مُبهج - لكن ما نناله بدلاً من ذلك هو إعادة التشديد الفعال على الدور الاستثنائي للولايات المتحدة الأمريكية بوصفها رجل شرطة عالمي ، كأن ما يسبب التذمر ضد الولايات المتحدة ليس هو إفراطها في القوة ، بل افتقارها إليها .

تواجهنا هجمات مركز التجارة العالمي بضرورة أن نقاوم إغراء ابتزاز مزدوج . فإذا قمنا بإدانتها ، فقط ودون شروط ، فسوف يبدو ببساطة أننا ندعم الموقف الإيديولوجي الصارخ للبراءة الأمريكية التي تتعرض للهجوم بواسطة شرّ العالم الثالث ؛ وإذا لفتنا الانتباه إلى الأسباب الاجتماعية - السياسية الأعمق للتطرف العربي ، فسوف يبدو ببساطة أننا نلوم الضحية التي نالت ما تستحقه في النهاية . . . والحل الوحيد الممكن هنا هو رفض نفس هذا التعارض الثنائي وتبني كلا الموقفين في آن واحد ؛ ولا يمكن عمل ذلك إلا إذا لجأنا إلى مفهوم الكلية totality الديالكتيكي : ليس ثمة خيار بين هذين الموقفين ؛ فكلاهما أحادي الجانب وزائف . وبعيداً عن طرح قضية يمكننا بصدها أن نتبنى موقفاً أخلاقياً واضحاً ، نصادف هنا حدود التعليل الأخلاقي : فالضحايا أبرياء ، من وجهة النظر الأخلاقية ، والعمل كان جريمة بغیضة ، إلا أن هذه البراءة ذاتها ليست بريئة - وتبنى مثل هذا الموقف "البريء" في عالم الرأسمالية الكوكبية اليوم هو في حد ذاته تجريباً زائفاً . ونفس الشيء يصدق على صدام التفسيرات الأكثر إيديولوجية : إذ يمكننا الزعم بأن الهجوم على مركز التجارة العالمي كان هجوماً على كل ما يستحق القتال من أجله في الحريات الديمقراطية - فأسلوب الحياة الغربي المنحط المدان من قبل الأصوليين من المسلمين وغيرهم هو عالم حقوق المرأة والتسامح التعددي الثقافات ؛ (23) لكننا ، أيضاً ، يمكننا الزعم بأنه كان هجوماً على ذات بؤرة ورمز الرأسمالية المالية العالمية . وهذا ، بالطبع ، لا يستتبعه بأية حال مفهوم الذنب المشترك الوسطي الطابع (الإرهابيون ملومون ، لكن الأمريكيين أيضاً ملومون جزئياً . . .) - المسألة ، بالأحرى ، هي أن الجانبين ليسا متعارضين حقاً : أنهما ينتميان إلى نفس المجال . باختصار ، فإن الموقف الذي يجب تبنيه هو قبول ضرورة الحرب ضد الإرهاب ، لكن مع إعادة تعريفه وتوسيع حدوده بحيث يشمل أيضاً (بعض) الأفعال الأمريكية وأفعال القوى الغربية الأخرى : الخيار بين بوش وبين بن لادن ليس خيارنا ؛ فكلاهما يمثلان "هم" مقابل "نحن" . وحقيقة أن الرأسمالية العالمية هي كلٌ متكامل totality تعني أنها الوحدة الجدلية لذاتها ولآخرها ، للقوى التي تقاومها على أسس إيديولوجية "أصولية" .

وبالتالى ، فمن بين الروائيتين اللتين بزغتا بعد 11 سبتمبر ، نجد أن كليهما أسوأ ، كما كان يمكن لستالين أن يقول . السردية الأمريكية الوطنية – البراءة تحت الحصار ، فورة الكبرياء الوطني – عقيمة ، بالطبع ؛ لكن ، هل السردية اليسارية (بشمتاتها ؟ *Schadenfreude* : نالت الولايات المتحدة الأمريكية ما كانت تستحق ، ما ظلت تفعله بالآخرين طوال عقود) أفضل حقا ؟ كان رد الفعل الغالب لليساريين الأوروبيين – وكذلك الأمريكيين – فضائحا على أقل تقدير : فقد قيلت وكتبت كل الحماقات التي يمكن تخيلها ، وصولا الى الحجة "النسوية" القائلة بأن برجي مركز التجارة العالمي كانا رمزين قضيبين phallic ، ينتظران التدمير ("الإخصاء") . ألم يكن ثمة شئ وضيع وبائس في الرياضيات التي تذكرنا بنزعة مراجعة الهولوكوست [المحرقة النازية لليهود] (ما قيمة 3000 قتيل مقابل الملايين في رواندا ، والكونجو ، وما إلى ذلك) ؟ وماذا عن حقيقة أن المخابرات المركزية الأمريكية CIA قد خلقت (بالمشاركة) طالبان وبن لادن ، ومولتهم وساعدتهم ليحاربوا السوفييت في أفغانستان ؟ لماذا تم الاستشهاد بهذه الحقيقة كحجة ضد مهاجمتهم ؟ ألا يكون أكثر منطقية بكثير أن نزعّم أن واجب أمريكا على وجه الدقة هو أن تخلصنا من الوحش الذى خلّقه ؟ في اللحظة التي نفكر فيها على أساس "نعم ، كان انهيار مركز التجارة العالمي مأساة ، لكننا لا يجب أن نتضامن كليا مع الضحايا ، لأن ذلك سيعني دعم إمبريالية الولايات المتحدة" ، تكون الكارثة الأخلاقية قد حلت فعلا : والموقف الوحيد الملائم هو التضامن غير المشروط مع كل الضحايا . الموقف الأخلاقي بالمعنى المحدد يتم استبداله هنا بالرياضيات الوعظية للذنب والرعب ، مما يفوّت عليه النقطة الجوهرية : أن الموت المروّع لكل فرد هو أمرٌ مطلقٌ ولا يقبل المقارنة . دعونا ، بإيجاز ، نقوم بتجربة ذهنية بسيطة : إذا تبينت في نفسك أي نفور من التقمص الوجداني التام لضحايا انهيار مركز التجارة العالمي ، إذا شعرت برغبة ملحة في أن تشرطَ تقمصك بعبارة "نعم ، لكن ماذا عن الملايين الذين يعانون في أفريقيا . . ." ، فإنك لا تُظهر ضروب تعاطفك مع العالم الثالث ، بل مجرد الإيمان السيء *mauvaise foi* الذي يشهد على توجهك الضمني الأبوي العنصري إزاء ضحايا العالم الثالث . (على نحو أدق ، فإن المشكلة مع مثل هذه العبارات المقارنة هي أنها ضرورية وغير مقبولة في آن واحد : **على المرء** أن يقولها ، **على المرء** أن يوضح أن فظائع أسوأ بكثير تجري في جميع أنحاء العالم على أساس يومي – لكن على المرء أن يفعل ذلك دون أن ينخرط في الرياضيات البذيئة للإحساس بالذنب .)

يجد أحد أشكال الحكمة اليسارية الراهنة أفضل مثال له في صورة ظهرت على غلاف كتالوج مطبوعات فيرسو Verso لربيع عام 2002 : جورج بوش كرّجل دين مسلم بلحية – الليبرالية الرأسمالية العالمية التي تعارض الأصولية الإسلامية هي ذاتها ضرب من الأصولية ، وهكذا فإننا ، في "الحرب" الراهنة "ضد الإرهاب" ، نتعامل فعليا مع صدام للأصوليات . ورغم الكفاءة البلاغية لهذا **اليقين doxa** ، فإنه يشوّش على التعارض المقابل – الأشد إزعاجا بكثير : الأصوليون المسلمون ليسوا أصوليين حقيقيين ، فهم بالفعل "حدثيون" ، نتاجٌ وظاهرة للرأسمالية العالمية الحديثة – يمثلون الطريقة التي يجاهد بها العالم العربي كي يتوافق مع الرأسمالية العالمية . ومن ثم يجب أيضا أن نرفض الحكمة الليبرالية القياسية التي طبقا لها ما زال الإسلام بحاجة الى إنجاز الثورة البروتستانتية التي ستجعله يفتح على الحداثة : فهذه الثورة البروتستانتية قد تم إنجازها بالفعل منذ أكثر من قرنين ، تحت قناع الحركة الوهابية التي نشأت في (ما يشكل الآن) العربية السعودية . ومبدأها الأساسي ، ممارسة **الاجتهاد** (الحق في إعادة تفسير الإسلام على أساس الظروف المتغيرة) ، هو المقابل الدقيق لقراءة لوثر للإنجيل . و**الاجتهاد** مفهوم جدلي تماما : فلا هو الانغماس التلقائي في التقاليد القديمة ولا الحاجة الى "التوافق مع الظروف الجديدة" والحلل الوسط ، بل الرغبة الملحة في إعادة ابتكار الأبدية ذاتها في شروط تاريخية جديدة . كان الوهابيون من دعاة "النقاء" و"العقيدة الجامدة" [الدوجما] الى أبعد حد ، معارضين لأى نوع من التوافق الرخيص مع الاتجاهات الجديدة للحدثة الأوروبية ؛

وفي نفس الوقت ، دعوا الى التخلي الضاري عن العادات العضوية الخرافية القديمة - وهي نفس صيغة العودة "البروتستانتية" الى الأصول ضد القصور الذاتي المُفسد للتقاليد .

وثمة طريقة أخرى أخفق بها اليسار بصورة بائسة هي أنه لجأ ، في الأسابيع التي أعقبت الهجمات ، الى التسبيحة القديمة "إمنحوا السلام فرصة ! الحرب لا توقف العنف !" - حالة حقيقية للتهور الهستيرى ، تقوم برد فعل على شيء لن يحدث حتى بالشكل المتوقع . وبدلاً من التحليل العيني للوضع المعقد الجديد بعد الهجمات ، للفرص التي يمنحها لليسار لاقتراح تفسيره الخاص للأحداث ، تلقينا الأنشودة الطقسية العمياء "لا للحرب !" ، مما يعجز حتى عن مواجهة الحقيقة الأولية ، الاعتراف الفعلى *de facto* من جانب حكومة الولايات المتحدة ذاتها (من خلال تأجيلها لفعل الرد لمدة شهر) ، بأن هذه الحرب ليست مثل غيرها ، بأن قصف أفغانستان ليس حلاً . إنه موقف حزين ، أظهر فيه جورج بوش قدرةً على التأمل أكثر من معظم اليسار ! ورغم ذلك كانت حجة يسارية زائفة أخرى تقول أن مرتكبي هجمات مركز التجارة العالمي يجب محاكمتهم ومعاملتهم باعتبارهم مجرمين - لأن ما حدث كان عملاً إجرامياً . هذه المقولة يغيب عنها تماماً البعد السياسي "لإرهاب" اليوم . (24)

مع مثل هذا "اليسار" ، من يحتاج الى اليمين ؟ لا عجب ، إذن ، أنه فى مواجهة مثل تلك الحماقات "اليسارية" ، كانت السهولة التي استحوذت بها الإيديولوجيا المهيمنة على مأساة 11 سبتمبر وفرضت رسالتها الأساسية أكبر حتى مما قد يتوقع المرء مع التسليم بأن التيارين الرئيسيين لليمين والوسط الليبرالى يسيطران على وسائل الإعلام الجماهيرية : الآن انتهت الألعاب السهلة ، ولا بد أن ننحاز - ضد أو مع (الإرهاب) . وحيث أن أحداً ليس مع الإرهاب بشكل مكشوف ، فإن هذا يعنى أن الشك ذاته ، وهو توجهٌ يطرح أسئلةً ، يتم شجبه على أنه تأييد مستتر للإرهاب هذا ، بالضبط ، هو الإغواء الذى يجب مقاومته : **ففى مثل لحظات الوضوح الظاهري للخيار تلك على وجه الدقة ، تكون التعمية شاملةً .** والخيار المقترح علينا ليس هو الخيار الحقيقي . اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، لا بد لنا ان نستجمع القوة لنخطو الى وراء ونتأمل بشأن خلفية الموقف . والمتفقون الذين خضعوا للإغواء تعد مثالا عليهم مجموعة الخمسين الذين ، فى فبراير 2002 ، وقعوا نداءً مثيراً للسخرية من أجل الوطنية الأمريكية - وهي حالة واضحة للتناقض البراجماتي للتحديد الذي يُلغى الذات (لأن المثقفين الذين وقّعوا ذلك النداء قد فقدوا بذلك على نحو لارجعة فيه مكانتهم بوصفهم مثقفين).

التعقيد الأول : هل الخيار الحاسم اليوم هو حقاً خيار الديمقراطية الليبرالية ضد الأصولية أو مشتقاته (مثل التحديث ضد المقاومة له) ؟ الطريقة الوحيدة لتفسير التعقيد والانعطافات الغربية للوضع الكوكبي اليوم هي الإصرار على أن الخيار الحقيقي هو الخيار بين الرأسمالية وبين آخرها (وتمثله في هذه اللحظة تيارات هامشية مثل الحركة المناهضة للعولمة) ؛ عندئذ تصاحب هذا الخيار ظواهر ثانوية من الناحية البنيوية ، يكون محورياً بينها التوتر الكامن بين الرأسمالية وبين إفراطها الخاص . على طول القرن العشرين ، يمكن بوضوح تبين نفس المنظومة : فلكي تسحق الرأسمالية عدوها الحقيقي ، بدأت باللعب بالنار ، واستنفرت إفراطها البذوي تحت قناع الفاشية ؛ إلا أن هذا الإفراط قد اتخذ حياةً خاصةً به ، وبلغ من القوة حد أن توجب على رأسمالية التيار الرئيسي "الليبرالية" أن تضم قواها الى قوى عدوها الحقيقي (الشيوعية) كي تخضعه . ومما له دلالة أن الحرب بين الرأسمالية والشيوعية كانت حرباً باردة ، بينما جرى خوض الحرب الكبرى الساخنة ضد الفاشية . لكن أليست حالة طالبان هي نفس الشيء ؟ فبعد أن جرى تليفق شبحها ليحارب الشيوعية ، تحولت هي الى العدو الرئيسي . وبالتالي ، فحتى لو أحرقتنا الإرهاب جميعاً ، فإن "حرب" الولايات المتحدة "ضد الإرهاب" ليست صراعاً ، بل صراعٌ داخلي ضمن الكون الرأسمالي . والواجب الأول لأي مثقف تقدمي (إذا كان لا يزال لهذا المصطلح أى معنى اليوم) هو ألا يخوض صراعات العدو بدلاً منه .

التعقيد الثاني : يجب علينا " تفكيك " أفغانستان ذاتها ؛ فلم توجد أبدا " في ذاتها "، بل كانت من خلق القوى الخارجية منذ البداية . ولو تتبعنا الخطوط " الطبيعية " للتقسيم العرقي ، لكان من الواجب إدراج الأجزاء الشمالية و الغربية من أفغانستان ضمن الجمهوريات الإسلامية السوفييتية السابقة (طاجيكستان ، و أوزبكستان) أو إيران ؛ بينما يجب أن يشكل الغرب والجنوب ، مع شمال شرق باكستان ، دولة باشتون قائمة بذاتها (ينقسم الباشتون نحو 50 / 50 بين أفغانستان وباكستان) . وماذا عن النتوء الغريب الشبيه بالدودة عند الشمال الشرقي ، و يقطنه الطاجيك ؟ لقد تم نحته بصورة مصطنعة منذ مائة عام كمنطقة عازلة ، لمنع الاتصال المباشر بين الممتلكات البريطانية والروسية . وفي نفس الوقت ، تم تقسيم منطقة الباشتون بخط دوران التوسع لمنع الباشتون من تهديد المصالح البريطانية في باكستان (الهند وقتها) . (ومن السهل توضيح أن نفس الشيء ينطبق على باكستان ذاتها ، - بلد ليس له تقاليد خاصة به ، كيان مصطنع كأوضح ما يكون .)

وهكذا ، بعيدا عن كونه مجالا عتيقا خارج نطاق التحديث ، لم يدخل التاريخ إلا مؤخرا ، فإن وجود أفغانستان ذاته هو نتيجة لتفاعل القوى الأجنبية . وأقرب ما يمكن أن يشبه أفغانستان في أوروبا سيكون شيئا من قبيل بلجيكا : منطقة عازلة بين فرنسا وهولندا ترجع الى الحرب بين البروتستانت وبين الكاثوليك (البلجيك هم أساسا قوم هولنديون ظلوا كاثوليكاً) . وإذا كان الأفغان معروفين بوصفهم منتجي أفيون ، فالبلجيك معروفون بإنتاجهم مادة أخرى للذات الخطيئة ، أشد لطفا (هي الشيكولاتة) . وإذا كان الأفغان يُرهبون النساء ، فالبلجيك معروفون ببورنوجرافيا وانتهاك الأطفال . وأخيرا ، إذا كانت هذه الصورة للبلجيك كأكلي شيكولاتة ومنتهكي أطفال هي كlišيه إعلامي ، فذلك هي صورة أفغانستان كبلد للأفيون واضطهاد النساء . يشبه ذلك النكتة القديمة الحزينة : " لليهود و متسابقو الدراجات هم أصل كل مشاكلنا ! " " لماذا اليهود ؟ ! " الدراجات ؟ " ولماذا اليهود ؟ ! "

كانت " إجازة " أمريكا " من التاريخ " زيفا : فثمن سلام أمريكا كان الكوارث التي تجرى في أماكن أخرى . ووجهة النظر السائدة ، هذه الأيام ، هي القائلة بنظرة بريئة تواجه شرًا لا يوصف وجهه ضربته من الخارج - وبصدد هذه النظرة ، علينا ، من جديد أن نستجمع شجاعة أن نطبق عليها قول هيجل المعروف بأن الشرّ يكمن (أيضا) في ذات النظرة البريئة التي تدرك الشرّ في كل ما حولها . ومن هنا ، ثمة عنصرٌ من الصدق حتى في أشد رؤى الأغلبية الأخلاقية تزمّناً عن أمريكا فاسقة تتركس نفسها للذات اللاهية ، في الفرع المحافظ إزاء هذا العالم السفلي من الاستغلال الجنسي والعنف المرّضي : وما لا يدركونه هو مجرد التماهي التأملي الهيجلي بين هذا العالم السفلي وبين نفس موقفهم ، موقف البراءة الزائفة - وحقيقة أن العديد من الوعاظ الأصوليين قد اتضح أنهم منحرفون جنسيون في السرّ هي أكثر من مجرد حقيقة إمبيريقية عارضة . وزعم جيمي سواجارت Jimmy Swaggart السيء الصيت بأن حقيقة قيامه بزيارة العاهرات تمنح قوة إضافية لوعظه (فقد عرّف نتيجة الصراع الحميم ما كان يعظّ ناهياً عنه) ، رغم كونه منافقا بلا شك على المستوى الذاتي المباشر ، إلا أنه صادق موضوعيا .

هل يمكننا تخيل مفارقة أكبر من حقيقة أن الاسم الحركي الأول لعملية الولايات المتحدة ضد الإرهابيين كان " العدالة اللانهائية " (تغير بعدها استجابة لتأنيب رجال الدين المسلمين الأمريكيين بأن الله وحده يمكنه تنفيذ العدالة اللانهائية) ؟ وإذا أخذنا هذا الاسم على محمل الجد ، نجده ملتبسا بشكل عميق : فإما أنه يعني أن للأمريكيين الحق في أن يدمروا بلا رحمة ليس كل الإرهابيين فحسب بل كذلك كل من منحوهم دعما ماديا ، ومعنويا ، وإيديولوجيا ، الخ - وهذه العملية ستكون ، بالتعريف ، لا نهائية بالمعنى الدقيق لـ " اللانهائية السيئة " الهيجلية ، فلن يتم أبدا

إنجاز العمل حقاً ، إذ سيكون ثمة على الدوام تهديدٌ إرهابي آخر (و فعلاً ، في أبريل عام 2002 ، أعلن ديك تشيني مباشرةً أن "الحرب ضد الإرهاب" قد لا تنتهي أبداً ، ليس في حياتنا على الأقل) ؛ أو أنه يعني أن العدالة المطبقة يجب أن تكون لانهائية حقاً بالمعنى الهيجلي الدقيق - أنها ، في ارتباطها بالآخرين ، يجب أن ترتبط بذاتها : أنها ، باختصار ، يجب أن تسأل كيف أننا نحن أنفسنا ، الذين نطبق العدالة ، متورطون فيما نحارب ضده . في 22 سبتمبر 2002 ، حين تلقى جاك ديريدا Jacques Derrida جائزة تيودور أدورنو Theodor Adorno ، أشار في خطابه إلى هجمات مركز التجارة العالمي : "إن تعاطفي اللامشروط ، الموجه إلى ضحايا 11 سبتمبر ، لا يمنعني من القول بصوت عالٍ : أنه بصدد هذه الجريمة ، لا أعتقد أن أحداً بلا ذنبٍ سياسياً" . هذا الربط - للذات ، إدراج المرء لنفسه في الصورة ، هو "العدالة اللانهائية" الوحيدة الصادقة .

ضد الحديث الكلي المخادع عن "العدالة اللانهائية" ، أميل إلى استحضار كلمات زعيم طالبان الملاً محمد عمر في خطابه إلى الشعب الأمريكي يوم 25 سبتمبر 2001 : "إنكم تقبلون كل ما تقوله حكومتكم ، سواء كان حقيقياً أو زائفاً . . . ألا تستطيعون التفكير بأنفسكم ؟ . . . سيكون من الأفضل لكم أن تستخدموا شعورك وفهمكم أنتم" . بينما نجد أن هذه الأقوال هي تلاعبٌ كلي بلا شك ، (فماذا عن إعطاء نفس الحق في استخدام المرء لشعوره وفهمه للأفغان أنفسهم ؟) ، أليست رغم ذلك ، إذا أُخذت بمعنى مجرد خارج سياقها ، مناسبة تماماً ؟

الهوامش :

16. أعتمد هنا على أطروحة الدكتوراه البارزة لبافل ليفي
Pavle Levi , "Disintegration in Frames" (New York University 2002).
17. راجع
Michel Chion , *The voice in Cinema*, New York :Columbia University Press 2000.
18. هذه الإشارة الضمنية لأفلام الويستيرن أكثر تعقيدا ، حيث أن الفيلم **يلتف حول** الفهم المعتاد للبوسنيين على أنهم سكان المدن المحاصرون وللصرب على أنهم المهاجمون المحاصرون الذين يجوعون مدينة كبيرة (سراييفو ، بصورة نموذجية) : فهنا ، نجد أن الصرب هم المحاصرون والبوسنيين هم المهاجمون المحاصرون . (و بالصدفة ، فإن بيتر هاندكه Peter Handke هو الذى يشير ، في دفاعه عن الصرب ، الى هذا الكليشيه ، مانحا إياه إنعطافة مقبولة سياسيا politically correct : حيث أننا نعرف اليوم أن الهنود (الأمريكيين الأصليين) كانوا "الأخير" الذين يدافعون عن بلدهم ضد المستعمرين الأوروبيين الغزاه ، ألا يجب أن نستخلص نفس النتيجة بصدد الحرب البوسنية وندعم الصرب ، الذين يلعبون هنا دور الأمريكيين الأصليين ؟)
- 19 . طبقا لبعض المحامين الأمريكيين المحافظين ، لا يمكن لعملٍ تم القيام به بدافع القناعة الدينية أن يكون جنونيا بالتعريف ، لأن الدين يمثل أسمى بعد روجي للبشرية . فكيف ، إذن ، نصنّف منفذي التفجيرات الانتحارية الفلسطينيين ؟ هل إيمانهم الدينى أصيل أم لا ؟ وإذا لم يكن ، هل يمكن تطبيق نفس تصنيفة الجنون على الإرهابيين الأمريكيين المحليين ؟ هذا هو موضوع التنوير القديم المتعلق بالحد الهش بين الدين وبين الجنون ، أو بين "الغيبية" الدينية وبين الدين "العقلاني" الخالص .
- 20 . أرتكز هنا على تطويري النقدي لمقولة ألتوسير عن الاستجاب في الفصل 3 من *Metastases of Enjoyment* , London & New York : Verso 1995.
21. Michael Dutton , *Streetlife China* , Cambridge : Cambridge University Press 1998 , p. 17 .
22. Timothy Garton Ash , "Slobo und Clara " , *Suddeutsche Zeitung* , 14 March 2002 , p. 15 (my translation).
- 23 بالتوازي مع هذا ، تذكر إجابة وزير خارجية طالبان ، على سؤال صحفي غربي : لماذا لا تلعب النساء في أفغانستان دورا أكبر (أو بالأحرى ، أي دور) في الشؤون العامة ؟ "كيف يمكنك أن تثق في شخص ينزف دما على نفسه لمدة يومين كل شهر !"
- 24 . حين نتعامل مع يسار اليوم ، لا بد أيضا أن تظل في ذهننا على الدوام نرجسية القضية الخاسرة اليسارية ، وأفضل توصيف لها أنها معكوس inversion نزعة تاليران Talleyrand الكلبية المعروفة : فحين بلغته ، وهو يتناول العشاء ، أصوات معركة شوارع ، علق قائلا لرفاقه على المائدة : "أثرون ، جانبنا يكسب !" و حين سئل " أى جانب ؟" ،

أجاب : "سنعرف غدا ، حين نتبين من الذي كسب !" والتوجه النوستالجي اليساري هو:
"أثرون ، جانبنا يخسر !" "أى جانب ؟" "سنعرف ذلك غدا ، حين نتبين من الذى خسر!"

+++++

السعادة بعد 11 سبتمبر

في التحليل النفسي ، تحمل خيانة الرغبة إسما دقيقا هو : السعادة . متى ، بالضبط ، يمكن أن يقال أن الناس سعداء ؟ في بلد مثل تشيكوسلوفاكيا في أواخر السبعينات و الثمانينات ، كان الناس سعداء فعلا على نحو ما : فقد تحققت هناك ثلاثة شروط جوهرية للسعادة .

1. كانت احتياجاتهم المادية مُشبعة بصورة أساسية - ليست مشبعة بصورة بالغة الجودة ، حيث أن الإفراط في الاستهلاك يمكنه في ذاته أن يولد التعاسة . ومن المستحسن أن نخبر نقصا عارضا في بعض السلع في السوق من حين لآخر (لا يوجد بن لمدة يومين ، ثم لا يوجد لحم بقر ، ثم لا توجد أجهزة تلفزيون) : عملت هذه الفترات القصيرة من النقص بمثابة الاستثناءات التي تذكر الناس بأنهم يجب أن يبتهجوا بأن تلك السلع متوفرة بوجه عام - فلو كان كل شيء متوفرا طوال الوقت ، لا اعتبر الناس هذه الوفرة حقيقة بديهية من حقائق الحياة ، ولم يعودوا يقدرون قيمة حظهم . هكذا مضت الحياة بطريقة منتظمة وقابلة للتنبؤ ، دون مجهودات أو صدمات كبرى ؛ وكان مسموحا للمرء بالانسحاب داخل عالمه الخاص .
2. الملمح الثاني - البالغ الأهمية : كان هناك الآخر (الحزب) لإلقاء اللوم عليه في كل شيء يمضي خطأ ، وبذلك لا يشعر المرء بأنه مسئول حقا - فلو حدث نقص مؤقت في بعض السلع ، وحتى لو سببت عاصفة دمارا كبيرا ، فذلك "خطوهم" .
3. وأخيرا ، وليس آخرا - كان ثمة مكان آخر (الغرب الاستهلاكي) كان مسموحا للمرء بأن يحلم به ، وحتى بأن يزوره أحيانا - وكان هذا المكان على المسافة المناسبة بالضبط : ليس بالغ البعد ، وليس بالغ القرب .

اختل هذا التوازن الهش - ماذا أخلّ به ؟ الرغبة ، بالتحديد . كانت الرغبة هي القوة التي أجبرت الناس على المضي قدما - لينتهي بهم الأمر الى نظام من المؤكد أن الغالبية الساحقة فيه أقل سعادة .

هكذا فإن السعادة - إذا استخدمنا مصطلحات آلان باديو Alain Badiou - ليست مقولة صدق ، بل مقولة مجرد وجود ، وهي ، بوصفها كذلك ، مشوشة ، وغير محددة ، وغير متسقة (خذ مثلا على ذلك الإجابة التي صارت مثلا لمهاجر ألماني الى الولايات المتحدة الأمريكية ، حين سئل : "هل أنت سعيد ؟" ، أجاب : "نعم ، نعم ، أنا سعيد جدا ، ... aber glücklich bin ich nicht [لكنني لست محظوظا]" . إنها مفهوم وثني : فهدف الحياة ، بالنسبة للوثنيين ، هو أن يكون المرء سعيدا (وفكرة العيش "سعيدا بعدها على الدوام" [في التبات والنبات] هي صيغة مسيحية الطابع من الوثنية) ، والخبرة الدينية والنشاط السياسي يعدّان أسمى أشكال السعادة (راجع أرسطوطاليس) - ولا غرو أن الدالاي لاما قد نال نجاحا واسعا مؤخرا بتقديم مواعظ إنجيل السعادة حول العالم ، ولا عجب أنه يلقي أعظم استجابة في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الدقة ، الإمبراطورية النهائية لـ (البحث عن) السعادة ... باختصار ، تنتمي "السعادة" الى مبدأ اللذة ، وما يدمرها هو إلحاح ما وراء مبدأ اللذة .

بالمعنى اللاكاني الضيق للمصطلح ، يجب من ثم أن نطرح أن "السعادة" تعتمد على عدم قدرة أو عدم استعداد الذات لمواجهة عواقب رغبتها بشكل كامل : ثمن السعادة هو أن تظل الذات منغمسة في عدم اتساق رغبتها . وفي حياتنا اليومية (نتظاهر بأننا) نرغب في أشياء لا نرغب فيها حقا ، بحيث ، في نهاية المطاف ، يكون أسوأ ما يمكن أن يحدث بالنسبة لنا أن ننال ما نرغب فيه "رسميا" . وهكذا فإن السعادة

مناقشة بصورة متأصلة : إنها سعادة أن نحلم بأشياء لا نريدها فعلاً . وحين يقصف يسار اليوم النظام الرأسمالي بمطالب لا يمكنه تحقيقها بداهةً (القضاء على البطالة ! الإبقاء على دولة الرفاهية ! الحقوق الكاملة للمهاجرين !) ، فإنه يلعب أساساً لعبة استفزاز هستيري ، لعبة مطالبة السيد بمطلب سيكون من المستحيل عليه أن يلبيه ، وبذلك يكشف عجزه . إلا أن المشكلة مع هذه الاستراتيجية ، ليست أن النظام لا يمكنه تلبية هذه المطالب فحسب ، بل ، علاوة على ذلك ، أن من يطالبون بها لا يريدونها أن تتحقق فعلاً . مثلاً ، حين يطالب الأكاديميون "الراديكاليون" بالحقوق الكاملة للمهاجرين وفتح الحدود ، هل هم واعون بأن التطبيق المباشر لهذا المطلب ، لأسباب بديهية ، سوف يُغرق البلدان الغربية المتقدمة بملايين القادمين الجدد ، مثيراً بذلك ردة فعل عنصرية عنيفة من جانب الطبقة العاملة سوف تهدد بدورها الوضع المتميز لهؤلاء الأكاديميين ذاتهم ؟ هم واعون بالطبع ، لكنهم يعتمدون على حقيقة أن مطلبهم لن تتم تلبية - وبهذه الطريقة ، يمكنهم بصورة مناقشة أن يحافظوا على ضميرهم الراديكالي المستريح بينما يواصلون الاستمتاع بوضعهم المتميز . في عام 1994 ، حين كان متوقعاً حدوث موجة جديدة من الهجرة من كوبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حذر فيديل كاسترو الولايات المتحدة الأمريكية من أنها إذا لم تتوقف عن تحريض الكوبيين على الهجرة ، فلن تعود كوبا تمنعهم من ذلك - و هو ما قامت به السلطات الكوبية فعلاً بعدها بيومين ، مُخرجةً الولايات المتحدة بآلاف القادمين الجدد غير المرغوب فيهم ... ألا يشبه ذلك المرأة التي صارت مثلاً والتي ردت ردّاً لاذعاً على رجل كان يغازلها مغازلة ذكورية متحيزة [macho] : "إخرس ، أو سيكون عليك أن تفعل ما تتبجح به !"

في كلتا الحالتين ، تكون الإيماءة هي كشف خدعة الآخر ، اعتماداً على حقيقة أن ما يخشاه الآخر فعلاً هو أن يلبي المرء مطلبه بالكامل . لكن ، ألن تزرع نفس الإيماءة الفرع في صفوف أكاديمينا الراديكاليين ؟ هنا نجد أن شعار عام 1968 القديم " **لنكن واقعيين ، لنطلب المستحيل** " ، **Soyons réalistes , demandons l'impossible !** يكتسب معنى كلياً وشريراً جديداً ربما يكشف عن حقيقته : "لنكن واقعيين : نحن ، اليسار الأكاديمي ، نريد أن نبذو انتقاديين ، بينما نتمتع بالكامل بالمزايا التي يقدمها النظام لنا . فلنقص النظام إذن بمطالب مستحيلة : نعرف جميعاً أن هذه المطالب لن تتم تلبية ، وبذلك يمكننا التأكد من أن شيئاً لن يتغير بالفعل ، ونحافظ نحن على مكانتنا المتميزة !" إذا اتهم أحد شركة كبرى بجرائم مالية معينة ، فسوف يتعرض لمخاطر قد تصل إلى حد محاولات الاغتيال ؛ لكن إذا طلب من نفس الشركة الكبرى أن تمول مشروع بحث في العلاقة بين رأس المال الكوكبي و بين نشوء هويات ما بعد كولونيالية مهجئة ، فسوف تكون أمامه فرصة طيبة للحصول على مئات الآلاف من الدولارات . من هنا فإن المحافظين على حق تماماً في إسباغ المشروعية على معارضتهم للمعرفة الراديكالية على أساس السعادة : فالمعرفة تجعلنا تعساء في نهاية المطاف . وعلى نقيص مقولة أن الفضول كامن في البشر - أن ثمة ، عميقاً داخل كل واحد منا ، دافع للمعرفة ، **Wissentrieb** - يزعم جاك لاكان أن التوجه العفوي لأي كائن بشري هو توجه "لا أريد أن أعرف شيئاً عن ذلك" - مقاومة جوهرية ضد أن يعرف أكثر مما ينبغي . وكل تقدم حقيقي في المعرفة يجب تحقيقه على حساب صراع مؤلم ضد ميولنا العفوية - أليس علم الجينات الحيوية biogenetics أوضح برهان على هذه الحدود لاستعدادنا للمعرفة ؟ فقد تم عزل الجين المسؤول عن مرض هنتنغتون * Huntington's chorea ، بحيث يمكن لكل واحد منا أن يعرف على وجه الدقة ليس فحسب إن كان سيصاب بمرض هنتنغتون ، بل كذلك متى سيصاب به . ويعتمد بدء المرض على خطأ في التدوين الجيني - على التكرار المتلثم لـ "كلمة" CAG في قلب الجين : ويعتمد السن الذي سيظهر فيه المرض ، بشكل صارم و لا مندوحة عنه ، على عدد تكرارات CAG في مكان واحد من الجين (لو كان ثمة أربعين تكراراً ، فسوف تصاب بالأعراض الأولى في سن التاسعة والخمسين ، و في سن الرابعة والخمسين ، لو كانت التكرارات واحداً وأربعين ... وفي سن السابعة والعشرين ، لو كانت التكرارات خمسيناً) . ولا يمكن لنمط الحياة الجيد ، ولا اللياقة البدنية ، ولا الدواء الأفضل ، ولا الطعام الصحي ، ولا الحب والدعم العائلي ، أن تفعل شيئاً حياله - قدريةٌ خالصة ، لا تخففها قابلية التنوع البيئي . ليس ثمة بعد دواء له ؛ لا يمكننا عمل شيء إزاءه . (25) ماذا يجب إذن أن نفعل

حين نعلم أن بإمكاننا إخضاع أنفسنا للاختبار وبذلك نكتسب معرفة تخبرنا بالضبط ، لو كانت إيجابية ، متى سنصاب بالجنون ونموت ؟ هل يمكننا تخيل مواجهة أوضح مع الصدفة العبثية التي تحكم حياتنا ؟

من هنا يواجهنا مرض هنتجتون بخيار مقلق : لو كان ثمة تاريخ لهذا المرض في عائلتي ، هل أجري الاختبار الذي سيبلغني إن كنت (ومتى) سأصاب به حتما أم لا ؟ ما هي الإجابة ؟ إذا كنت لا أتحمّل إمكانية أن أعرف متى سأموت ، فإن الحل المثالي (التوهمي [الفانتازمي] أكثر من كونه واقعيا) قد يبدو هو التالي : أن أرخص لشخص أو مؤسسة أخرى أثق فيها تماما بأن تجري عليّ الاختبار **وَأَلّا تخبرني بالنتيجة** ، لمجرد أن تقتلني بشكل غير متوقع وبدون ألم أثناء نومي قبل انقضاء المرض القاتل ، لو كانت النتيجة إيجابية ... لكن المشكلة مع هذا الحل هي أنني أعلم أن الآخر يعلم (الحقيقة عن مرضي) ، وهذا يدمر كل شيء ، مُعرّضا إياي لشكٍ مرعب ينهشني .

لفت لاكان الانتباه إلى الوضع المتناقض لهذه المعرفة بمعرفة الآخر . خذ الانقلاب النهائي لفيلم إديث وارتن Edith Wharton ، **عصر البراءة Age of Innocence** ، الذي يعلم فيه الزوج ، الذي ظل لسنوات طويلة يكنّ عاطفة غير مشروعة للكونتيسة أولينسكا Olenska ، بأن زوجته الشابة كانت تعرف بعاطفته السرية طوال الوقت . وربما قدم ذلك أيضا طريقة للغفران **لجسور مقاطعة ماديسون Bridges of Madison County** السينة الحظ : لو كانت فرنسيسكا المحتضرة ، في نهاية الفيلم ، قد علمت أن زوجها ، المفترض أنه بسيط ، وواقعي ، كان يعرف طول الوقت بعلاقتها العاطفية القصيرة الجياشة مع مصوّر مجلة **ناشيونال جيوغرافيك** ، ومقدار ما تعنيه بالنسبة لها ، لكنه ظل صامتا بشأنها حتى لا يجرحها . هذا هو لغز المعرفة : كيف يمكن أن يتغير مجمل الاقتصاد النفسي لموقفٍ ما بشكل جذري ، ليس حين يعرف البطل شيئا ما بصورة مباشرة (سرا طال كبته) ، بل حين يعرف أن الآخر (الذي حسبه جاهلا) كان يعرف به أيضا طول الوقت ، وتظاهر بأنه لا يعرف لمجرد المحافظة على المظاهر – هل ثمة ما هو أشد مهانة من موقف زوج يعلم فجأة ، بعد علاقة حب سرية طويلة ، أن زوجته كانت تعرف بالأمر طوال الوقت ، لكنها ظلت صامته بشأنه بدافع الأدب أو ، وهذا أسوأ ، بدافع الحب له ؟

هل الحل المثالي ، إذن ، هو الحل المضاد : إذا شككت في أن طفلي قد يكون مصابا بالمرض ، فإنني أجري عليه الاختبار دون أن يعرف هو ، ثم أقتله دون ألم قبل انقضاء المرض مباشرة ؟ هنا سيكون وهم السعادة النهائي متمثلا في مؤسسة مجهولة تابعة للدولة تقوم بذلك بالنسبة لنا جميعا دون علمنا – لكن ، من جديد ، يطل السؤال برأسه : هل نعلم بذلك (بحقيقة أن الآخر يعلم) أم لا ؟ يكون الطريق مفتوحا أمام مجتمع شمولي كامل ... وثمة طريق واحد للخروج من هذا المأزق : ماذا لو كان الشيء الزائف هنا هو الفرضية الكامنة ، مقولة أن الواجب الأخلاقي النهائي هو واجب حماية الآخر من الألم ، واجب إبقائه في جهل وقائي ؟ ومن هنا ، فحين يدافع هابرماس عن فرض قيود على التلاعب الجيني biogenetic مشيرا إلى التهديد الذي يفرضه على الاستقلال الذاتي الإنساني ، والحرية ، والكرامة الإنسانية (26) فإنه "يعش" فلسفيا ، مخفيا السبب الحقيقي في أن تسلسل حججه يبدو مقنعا : فما يشير إليه حقا ليس الاستقلال الذاتي و الحرية ، بل السعادة – فلصالح السعادة انتهى به الأمر ، هو الممثل الكبير لتقاليد التنوير ، بأن يقف على نفس الجانب مع المدافعين المحافظين عن الجهل المبارك .

ما هي المنظومة الإيديولوجية التي تدعم هذا "البحث عن السعادة" ؟ إن مسلسل الرسوم المتحركة المشهور و البالغ النجاح **الأرض قبل الزمن The Land Before Time** ، من انتاج ستيفن سبيلبرج Steven Spielberg ، يقدم ما يمكن الجدال بأنه أوضح مَفَصلةٍ للإيديولوجيا المهيمنة الليبرالية التعددية الثقافية . يتم تكرار نفس الرسالة المرة بعد المرة : جميعنا مختلفون – بعضنا ضخم ، وبعضنا ضئيل ؛ بعضنا يعرف كيف يحارب ، والآخرين يعرفون كيف يهربون – لكننا يجب أن نتعلم كيف نحيا مع هذه الاختلافات ، أن ندركها باعتبارها شيئا يجعل حياتنا أغنى (تذكّر صدى هذا التوجه في التقارير الأخيرة عن كيفية معاملة سجناء القاعدة في معسكر خليج جوانتانامو : يُقدّم لهم طعام ملائم لاحتياجاتهم الثقافية

والدينية النوعية ، ويُسمح لهم بالصلاة ...) من وعلى السطح ، نبدو مختلفين ، لكننا في داخلنا ، متماثلون - أفراد مفزوعون متحيرون في العالم ، بحاجة الى مساعدة الآخرين . في إحدى الأغاني ، تغني الديناصورات الضخمة السيئة عن كيف أن باستطاعة الضخام أن يكسروا كل القواعد ، ويسلكوا سلوكا سيئا ، و يسحقوا الضئيلين الذين لا حول لهم :

حين تكون ضخما / يمكنك أن تعامل / الضئيلين بعنف /إنهم ينظرون الى أعلى / بينما
تنظر أنت الى أسفل ... تكون الأمور أفضل حين تكون ضخما ... فكل القواعد التي
وضعها البالغون / لا تنطبق عليك .

وإجابة الصغار المضطَّهدين في الأغنية التالية ليست أن يحاربوا الضخام ، بل أن يفهموا أنهم ،
خلف مظهرهم المتممّر ، لا يختلفون عنا - خائفون سرا ، بنصيبيهم من المشكلات .

لأنهم ضخام ،/ لا نطن أنهم يملكون ، لكنهم يملكون / مشاعر مثلنا تماما / ومشاكل
أيضا ./هم أعلى صوتا وهم أقوى ، / ويحدثون ضجيجا أضخم ، / لكن في أعماق
أعماقهم / أظنهم أطفالا مثلنا .

ومن ثم فإن النتيجة البديهية هي مديح الاختلاف :

كل الكائنات ضرورية / لتصنع عالما / الكائنات القصيرة والطويلة / الضخمة والضيئلة / لتملأ
هذا الكوكب الجميل / بالحب والضحك . / لتجعل العيش فيه رائعا / غدا و بعد غد . / كل الأنواع
ضرورية / دون أدنى شك / الأنواع الحمقاء والحكيمة / أنواع كل الأحجام / لعمل كل الأشياء /
التي يجب عملها / لتجعل حياتنا بهيجة .

لا عجب ، إذن ، أن رسالة الفيلم النهائية هي رسالة الحكمة الوثنية : فالحياة دورة أبدية تحل فيها الأجيال
الجديدة محل الأجيال الأكبر ، و لابد فيها لكل ما يظهر أن يختفي إن عاجلا أو آجلا . . . والمشكلة ،
بالطبع ، هي : إلى أي مدى نمضي ؟ كل الكائنات ضرورية - هل يعني ذلك الكائنات اللطيفة والفضة ،
الفقيرة والغنية ، الضحايا وممارسي التعذيب ؟ والإحالة الى مملكة الديناصورات ملتبسة هنا بوجه خاص ،
بما لها من طابع وحشي لفصائل حيوانية تلتهم بعضها بعضاً - هل هذا أيضا أحد الأشياء "التي يجب عملها
لتجعل حياتنا بهيجة" ؟ هكذا يشهد نفس عدم الاتساق الداخلي لهذه الرؤية لـ "الأرض قبل الزمن" السابقة
على الخطيئة الأولى prelapsarian على أن رسالة التعاون - ضمن - الاختلاف هي إيديولوجيا في أنقى
صورها - لماذا ؟ بالتحديد ، لأن أي مفهوم عن تناحر "رأسي" يتخلل الجسد الاجتماعي قد تم استبعاده
بصرامة ، وتم استبداله بـ / أو ترجمته الى المفهوم المختلف تماما للاختلافات "الأفقية" التي يجب أن
نتعلم العيش معها ، لأنها تكمل بعضها البعض . والرؤية الأنطولوجية الكامنة هنا هي رؤية التعددية
plurality غير القابلة للاختزال للمنظومات constellations الجزئية particular ، كل واحدة
منها multiple مُركبة و مُزاحة في ذاتها ، ولا يمكن إدراجها تحت أي تصنيفة container محايدة
عامة universal . في اللحظة التي نجد فيها أنفسنا على هذا المستوى ، تتوافق هوليوود مع النقد مابعد
الكولونيالي الأشد جذرية للعمومية universality الإيديولوجية : يتم إدراك المشكلة المحورية على أنها
مشكلة العمومية المستحيلة . وبدلا من فرض مفهومنا للعمومية (حقوق الانسان العامة ، الخ.) ، يجب
إدراك العمومية - فضاء التفاهم المشترك بين مختلف الثقافات - باعتبارها مهمة ترجمة لا تنتهي ، إعادة
تنقيح دائمة لوضع المرء الخاص . هل من الضروري أن نضيف أن مقولة العمومية هذه بوصفها عمل
الترجمة الذي لا ينتهي ليس لها أي علاقة على الإطلاق بتلك اللحظات السحرية التي تقدم فيها العمومية
الفعالية تبديها العنيف تحت قناع فعل أخلاقي - سياسي تحطيمي ؟ العمومية الفعلية ليست الفضاء المحايد

الذي لا نكسبه أبدا للترجمة من ثقافة معينة إلى أخرى ، بل إنها ، بالأحرى ، الخبرة العنيفة لتقاسمنا ، عبر خط الانقسام الثقافي ، لنفس التناحر.

عند هذه النقطة ، بالطبع ، يفرض نقدٌ بديهي نفسه : أليست تلك الحكمة الهوليوودية المتسامحة مجرد كاريكاتور للدراسات ما بعد الكولونيالية الجذرية حقا ؟ على هذا يجب أن نجيب : **هل هي كذلك حقا؟** على أية حال ، ثمة في هذا الكاريكاتور التبسيطي المسطح من الصدق أكثر مما في أشد النظريات ما بعد الكولونيالية تعقيدا elaborated : فهوليوود على الأقل تقطّر الرسالة الإيديولوجية الراهنة من الرطانة المعقدة - الزائفة . التوجه المهيمن اليوم هو توجه "المقاومة" - كل شعرية "الحشود" المبعثرة الهامشية ، الجنسية ، والعرقية ، والمتعلقة بنمط الحياة (المثليين ، والمرضى العقليين ، والسجناء . . .) وهي "تقاوم" السلطة الغامضة المركزية (المكتسبة للطابع الرأسمالي). الجميع "يقاومون" - من المثليين والمثليات الى أنصار البقاء اليمينيين - فلماذا إذن لا نستخلص النتيجة المنطقية القائلة بأن خطاب "المقاومة" هذا هو القاعدة اليوم ، ويشكل ، بوصفه كذلك ، العقبة الرئيسية أمام بزوغ الخطاب الذي يمكنه فعليا أن يطرح العلاقات السائدة للتساؤل؟ (27) ومن هنا فإن أول ما يجب عمله هو مهاجمة ذات قلب هذا التوجه المهيمن ، أعني مقولة أن "احترام الأخرية" هو البديهية الأخلاقية الأشد أولية:

لا بد أنؤكد بوجه خاص على أن صيغة "احترام الآخر" لا تتعلق بأي تعريف جدّي للخير والشر. ماذا يعنى "احترام الآخر" حين يكون المرء في حرب ضد عدو ، حين تنبذه امرأة بوحشية من أجل شخص آخر ، حين يتوجب عليه أن يحكم على أعمال "فنان" مبتذل ، حين يكون العلم في مواجهة طوائف ظلامية ، إلى آخره؟ غالبا ما يكون "احترام الآخر" هو الشيء الضار ، الشيء الشرير. خصوصا حين تكون المقاومة ضد آخرين ، أوحى كراهية آخرين ، هي الدافع وراء فعل عادل ذاتيا. (28)

النقد البديهي هنا هو : ألا تكشف أمثلة باديو ذاتها عن حدود منطقة ؟ نعم ، كراهية العدو ، عدم التسامح مع الحكمة الزائفة ، وما الى ذلك ، لكن أليس درس القرن الأخير أننا حتى - وخصوصا - حين نكون مشتبكين في مثل هذا الصراع ، يجب أن نحترم حداً معيناً - هو ، على وجه الدقة ، حد آخرية الآخر الجذرية؟ لا يجب أبدا أن نختزل الآخر الى مجرد عدونا ، الى مجرد حاملٍ لمعرفة خاطئة ، وما الى ذلك : فتمة دوما فيه/فيها مطلق الهوة المستعصية على النفاذ لشخص آخر. وتبين النزعة الشمولية للقرن العشرين ، بملايينها من الضحايا ، المحصلة النهائية لاتباع مايبدو لنا "فعلا عادلا ذاتيا" الى النهاية - ولا عجب ، إذن ، أن باديو انتهى به الأمر الى التأييد المباشر للإرهاب الشيوعي .

هذا ، بالضبط ، هو خط التعليل الذي يجب أن نرفضه ؛ لنأخذ الحالة الحدية ، حالة صراع قاتل وعنيف ضد عدوٍ فاشي . هل يجب أن نبدي احتراما لهوة الأخرية الجذرية لشخصية هتلر تحت كل أفعاله الشريرة ؟ هل يجب هنا أن نطبق كلمات المسيح الشهيرة عن كيف أنه جاء ليخلص السيف و الانقسام ، وليس الوحدة و السلام : **بدافع من ذات حينا للإنسانية** ، بما فى ذلك (ما يمكن أن يتبقى من) انسانية النازيين أنفسهم ، لابد أن نقاثلهم بطريقة لا تعرف الرحمة ولا الاحترام مطلقا . وباختصار ، فإن المثل اليهودي الذى يتم الاستشهاد به دوما بصدد الهولوكوست [المحرقة النازية لليهود] ("حين ينقذ شخصٌ ما إنسانا واحدا من الموت ، فإنه ينقذ الإنسانية بأسرها") يجب نكملة بما يلي : "حين يقتل شخصٌ ما عدوا واحدا حقيقيا للإنسانية ، فإنه (لا يقتل ، بل) **ينقذ** الإنسانية بأسرها" . الاختبار الأخلاقي الحقيقي ليس الاستعداد لإنقاذ الضحايا فحسب ، بل كذلك - وربما ، بدرجة أكبر - التقاني بلا رحمة في إبادة من جعلوهم ضحايا.

ما يخفيه التشديد على الكثرة والتنوع هو ، بالطبع ، الرتابة الكامنة لحياة اليوم الكونية. في كتّبه الثاقب عن ديلوز Deleuze (29)، لفت آلان باديو الانتباه إلى كيف أنه ، إذا كان ثمة على الإطلاق فيلسوف يقوم ، بصدد أي موضوع مهما كان ، من الفلسفة الى الأدب والسينما ، بتكرار وإعادة اكتشاف نفس المصنوفة

المفهومية المرة بعد المرة، فإنه ديلوز. والمفارقة في هذا الاستبصار هي أن هذا ، على وجه الدقة ، هو النقد الأساسي standard لهيجل - فمهما كان ما يكتبه هيجل أو يتحدث عنه ، فإنه يتمكن دوماً من ضغطه في نفس قالب الصيرورة الديالكتيكية. أليس ثمة نوع من العدالة الشعرية في حقيقة أن الفيلسوف الذي يمكن للمرء أن يزعم هذا بشأنه فعلاً هو ديلوز ، المناهض للهيجلية ؟ ويصدق هذا بوجه خاص بالنسبة للتحليل الاجتماعي : فهل ثمة ما هو أشد رتابة من الشعر الديلوزي للحياة المعاصرة بوصفها الانتشار المزاح للحشود multitudes ، للاختلافات غير القابلة للإجمال ؟ وما يحجب (ومن ثم يُبقي على) هذه الرتابة هو كثرة إعادات - الدلالة و الإزاحات التي يخضع لها النسيج الإيديولوجي الأساسي.

غير قابل للكسر Unbreakable (م . نايت شيامالان M.Night Shyamalan ، عام 2000 - مع بروس ويليز Bruce Willis) هو عرض نموذجي لمنظومة اليوم الإيديولوجية في ذات تضادها بين الشكل وبين المضمون. ولا يمكن لمضمونها إلا أن يصدمنا بكونه مثيراً للسخرية على نحو طفولي : فالبطل يكشف أنه بطل قصص مصورة يحيا فعليا ولا يمكن جرحه ، لا يمكن هزيمته . . . ومن حيث الشكل ، فإن الفيلم أقرب إلى الدراما السيكلوجية المجودة مصورة بمزاج سوداوي متمهل : إنها معاناة البطل الذي يجد صعوبة صادمة traumatically difficult في قبول ما هو عليه حقا ، في قبول مساءلته، قبول تفويضه الرمزي (30). ويتضح هذا جيدا في المشهد الذي يريد فيه ابنه أن يطلق النار عليه، وبذلك يبرهن له أنه لا يهزم حقا : وحين يقاوم الأب ، يشرع الابن في البكاء ، يائسا من أن أباه غير قادر على قبول حقيقته. لماذا يقاوم ويليز أن يتم إطلاق النار عليه ؟ هل يخشى ببساطة أن يموت، أم أنه ، بالأحرى ، يخشى أن يحصل على برهان قاطع على أنه لا يهزم ؟ أليس هذا هو نفس مأزق كيركجارد المتمثل في "المرض حتى الموت"؟ إننا نخشى أن نكتشف لا أننا فانون ، بل بالأحرى ، أننا خالدون. هنا يجب أن نربط بين كيركجارد وبين باديو : فمن الصعب ، بل أنه لأمر صادم حقا ، بالنسبة لحيوان آدمي أن يقبل أن حياته ليست مجرد صيرورة حمقاء من التناسل والبحث عن اللذة ، بل انها في خدمة حقيقة. وهذه هي الطريقة التي يبدو أن الإيديولوجيا تعمل بها اليوم، في كوننا الذي أعلنه ما بعد - إيديولوجي : فنحن نؤدى تفويضاتنا mandates الرمزية دون أن نتولاها و "نأخذها بجدية" : بينما يقوم أب بوظيفته كأب ، فإنه يصاحب اداءه بفيض دائم من التعليقات التهكمية/التأملية عن حماقة كونه أباً ، وما إلى ذلك.

يعبر عن هذا الأداء السائد للإيديولوجيا على أفضل نحو فيلم التحريك الجماهيري الساحق **Shrek** ، الذي أنتجته شركة دريمووركس Dreamworks مؤخراً (أندرو آدمسون و فيكي جينسون Andrew Adamson & Vicky Jenson ، عام 2001) : فخطط الحدود القياسي (البطل ومعاونه الكوميدي المرتبك بشكل ودود يذهبان ليهزما التنين وينقذا الأميرة من مخالبه) يتشع برداء "إغرابات" بريشتية هازلة (حين يراقب الحشد الضخم الزفاف في الكنيسة ، يجرى إعطاؤه تعليمات بكيفية ردود أفعاله ، مثلما في التلقائية المزيفة لعرض تلفزيوني : "ضحك!" ، "صمت توقيري!") ، وانعطافات مقبولة correct سياسيا (بعد القبلية بين الحبيبين ، ليس الغول القبيح هو من يتحول الى أمير جميل ، بل إن الأميرة الجميلة هي التي تتحول الى فتاة عادية مثلثة) ، وطعنات تهكمية للخيلاء الأنثوي (بينما تنتظر الأميرة النائمة قبلة منقذها ، تسوي شعرها بسرعة كي تبدو أكثر جمالا) ، وانقلابات غير متوقعة لشخصيات شريرة الى شخصيات خيرة (يتضح أن التنين الشرير هو أنثى حنون تساعد البطلين فيما بعد) ، وحتى إشارات في غير أوانها إلى العادات الحديثة والثقافة الشعبية.

وبدلاً من المسارعة بامتداح هذه الإزاحات وأوجه إعادة التدوين باعتبارها "تخريبية" محتملة ورفع شريك الى مرتبة "موقع" آخر "للمقاومة" ، يجب علينا أن نركز على الحقيقة البيديهية القائلة بأنه ، من خلال كل هذه الإزاحات ، يجرى حكي نفس القصة القديمة. باختصار ، فإن الوظيفة الحقيقية لهذه الإزاحات والتخريبات هي بالضبط جعل القصة التقليدية ذات معنى لعصرنا "ما بعد الحداثي" - ومنعنا بذلك من استبدالها بسرديّة جديدة. ولا عجب أن نهاية الفيلم تتكون من طبعة تهكمية من "أنا مؤمن" ، أغنية فريق مونكيز Monkees القديمة الشهيرة من ستينات القرن العشرين : هذه هي طريقة كوننا مؤمنين اليوم -

نسخر من معتقداتنا ، بينما نواصل ممارساتها ، أي نعتمد عليها باعتبارها البنية الكامنة لممارساتنا اليومية.

في جمهورية ألمانيا الديمقراطية القديمة الطيبة ، كان من المستحيل لنفس الشخص أن يجمع بين ثلاث خصائص : الاعتقاد (الإيمان بالإيديولوجيا الرسمية) ، والذكاء ، والنزاهة. فلو كنت تؤمن وكنت ذكيا ، فلن تكون نزيها ؛ و لو كنت ذكيا ونزيها ، فلن تكون مؤمنا ؛ ولو كنت مؤمنا ونزيها ، فلن تكون ذكيا. ألا يصدق نفس الشيء أيضا على إيديولوجيا الديمقراطية الليبرالية ؟ فلو كنت (تتظاهر بأنك) تأخذ الإيديولوجيا الليبرالية المهيمنة على محمل الجد ، فلن يمكنك أن تكون ذكيا ونزيها معا : لأنك إما أحمق أو كلبٌ فاسد. ولذا فلو سمحت لنفسك بالانقياد الى إشارة بلا طعم لكتاب أجاميين **الانسان المخلوع Homo sacer** لأمكنني المخاطرة بالزعم بأن النمط الليبرالي السائد للذاتية اليوم هو **الانسان الأبله Homo sucker** : لأنه بينما يحاول استغلال الآخرين والتلاعب بهم ، ينتهي به الأمر إلى أن يصبح هو ذاته الأبله الأكبر. وحين نطن أننا نسخر من الإيديولوجيا السائدة ، فإننا نقوّي سطوتها علينا فحسب. (31)

ثمة درسان يجب استخلاصهما من هذه المنظومة الإيديولوجية. أولا ، يجب أن نحاذر من أن ننسب الى الآخر الإيمان الساذج الذي لا يمكننا الحفاظ عليه، محولين إياه الى "ذات يفترض أنها تؤمن". وحتى حالة اليقين الأكبر - الحالة الشهيرة لـ "أصولي إسلامي" في مهمة أنتحارية - ليست حالة فاصلة بقدر ما قد تبدو: فهل من الواضح حقا أن هؤلاء الناس ، على الأقل ، لا بد أن "يؤمنوا حقا" أنهم ، بعد موتهم ، سيستيقظون في السماء وتحت تصرفهم سبعين عذراء (تذكروا قصة الإرهابي الانتحاري الذي ، قبل الذهاب لإتمام مهمته ، ضمّخ نفسه بالعطر ، حتى تروق رائحته للعذارى)؟ ماذا لو كانوا ، رغم ذلك ، غير واثقين من إيمانهم على نحو مرعب ، ويستخدمون فعلهم الانتحاري كوسيلة لحل مأزق الشك ذاك بتوكيد هذا الإيمان : "لا أدري إن كنت أؤمن حقا - لكنني ، بقتل نفسي من أجل القضية ، سوف أبرهن **بالفعل in actu** على أنني أؤمن. . . ؟" وبالمثل ، يجب أن نتجنب استنتاج أن ألكسندر فادييف Aleksandr Fadeyev ، الكاتب الستاليني الأكبر ورئيس اتحاد الكتاب السوفييت الذي أطلق الرصاص على نفسه بعد سماع تقرير خروشوف السري في المؤتمر العشرين ، لا بد أنه كان "مؤمنا نزيها" : فالاحتمال الأرجح ، أنه كان واعيا تماما بالفساد التام للنظام ؛ وما كان يؤمن به هو الآخر الأكبر ، أي ، التبدي العام للإنسان الجديد الاشتراكي ، وما إلى ذلك. وبالتالي ، فإنه لم يقتل نفسه لأنه عرف أي شيء جديد من تقرير خروشوف؛ لم يتحطم أي وهم من أوهامه - وما تحطم كان إيمانه بـ "القوة الأدائية" للوهم الإيديولوجي ذاته.

ويمكن مقارنة انتحار فادييف بانتحار العمدة الألماني الذي ، في أوائل عام 1945 ، حين احتل الجيش الأمريكي بلده وأجبره على زيارة معسكر الاعتقال القريب ، انتحر فور عودته الى منزله : ليس لأنه لم يكن مدركا لما كان يجري باسم النظام الذي يخدمه ، بحيث أنه حين ووجه بالحقيقة ، لم يتحملها ، وقتل نفسه ؛ بل على العكس ، فقد كان يعرف كل شيء بدرجة أو بأخرى - ومن لم يكن يعلم هو الآخر الأكبر ، نظام التبديات الاجتماعية ، وبذلك كان انتحاره بمثابة فعل النفاق النهائي ، فعل **التظاهر** بأنه لم يكن يعلم . قتل نفسه لينقذ مظهر جهله النزيه. (يكاد الأمر يبدو وكأن ستالين كان على صواب حين أدان الانتحار بوصفه فعل الجبن النهائي ، بوصفه الخيانة النهائية للحزب - على الأقل لو طبقنا كلماته على هذه الحالات. . .)

نفس الشيء يصدق على "النازي النزيه" الذي لقي حفاوة بالغة ، عمدة البلدة الصغيرة في ألمانيا الشرقية الذي ، حين كان الروس يقتربون في فبراير عام 1945 ، ارتدى زي العمودية و وضع كل ميدالياته ، وتمشّى في الشارع الرئيسي ، حيث صرعه الروس بالرصاص - في تضاد مع كثيرين آخرين ، سارعوا بتدمير كل آثار ماضيهم النازي : فهل هذه الإيماءة - إيماءة الإعلان علنا عن ولاء المرء لألمانيا النازية في لحظة انهزامها - نبيلة حقا الى هذا الحد ؟ ماذا كان للعمدة أن يفخر به ؟ لكنه لم يكن يدري في أي دولة

يعيش! ألم تكن إيماءته كذلك ، من ثم ، محاولة مرائية يائسة لإسباغ نوع من النبالة على حياة كانت - حتى في أحسن الأحوال - حافلة بالتسويات مع أسوأ المجرمين ؟

الدرس الثاني : بدلا من التنازل للعدو مقدما عن أي أرض ، يجب أن نناضل حتى من أجل مفاهيم يبدو أنها تنتمي للعدو "بصورة طبيعية". ولذا ، ربما ، وجب أن نعود بلا خجل إلى التقاليد الأمريكية العظيمة لأفلام الويسترن ، التي تحظى بإعجاب الآن باديو بوصفها النوع الفني العظيم **للشجاعة الأخلاقية**. بالطبع لا يمكننا العودة إلى سذاجة أفلام الويسترن لأعوام الثلاثينات وبداية الأربعينات ، فقد جرد النوع الفني من براءته صعوداً ما أطلق عليه أندريه بازان André Bazan أفلام الـ "ميتا - ويسترن" لأعوام بداية الخمسينات. ورغم ذلك ، فقد اكتسب النوع الفني فترة حياة جديدة في النصف الثاني من الخمسينات - خذ مثلاً على ذلك رائعة ديلمر ديفز Delmer Daves العظيمة **3:10 إلى يوما 3.10 to Yuma** ، و **شجرة الشنق The Hanging Tree** ، وكلتاهما تتفوق بكثير على الفيلم "الميتا - ويسترن" النهائي الذي يبدو أنه يجسد الفعل الشجاع في أنقى صوره ، فيلم فريد زينمان Fred Zinnemann ، **أوج الظهيرة High Noon** . وما يشترك فيه الفيلمان هو بنية القرار المزاح : فالفعل المحوري لا تؤديه الشخصية الرئيسية التي يبدو أنها بؤرة المحنة الأخلاقية ، بل تؤديه شخصية ثانوية ربما تكون هي نفس مصدر الغواية. (ثمة صدق لهذا في **أوج الظهيرة** ذاته : فعند نهاية الفيلم ، يتضح أن جاري كوبر Gary Cooper ليس هو من تخضع شجاعته للامتحان في الحقيقة ، بل زوجته الشابة ، التي لعبت دورها جريس كيللي Grace Kelly).

يحكي **3:10 إلى يوما** قصة مزارع فقير (فان هيفلين Van Heflin)، من أجل 200 دولار يحتاجها بشدة لإنقاذ ماشيته من الجفاف ، يقبل وظيفة اصطحاب قاطع طريق خُصّصت لرأسه جائزة كبيرة (جلين فورد Glen Ford) من الفندق الذي يُحتجز به إلى القطار الذي سيأخذه إلى السجن في يوما. ما لدينا ، بالطبع ، هو قصة كلاسيكية عن محنة أخلاقية ؛ وعلى طول الفيلم ، يبدو أن الشخص الواقع تحت وطأة المحنة هو المزارع ذاته ، المُعرض للغواية على غرار **أوج الظهيرة** ، الأكثر شهرة (بصورة لا يستحقها) : ويتخلّى عنه كل من وعدوه بالمساعدة حين يكتشفون أن الفندق تطوّقه عصابة أقسمت أن تنقذ زعيمها : ويقوم قاطع الطريق السجين ذاته بتهديد المزارع مرة ومحاولة رشوته مرة ، وهكذا دواليك. إلا أن المشهد الأخير ، بالنظر إلى وراء ، يغيّر تماماً إدراكنا للفيلم : فقرب القطار ، الذي يغادر المحطة فعلاً ، يجد قاطع الطريق و المزارع نفسيهما وجها لوجه مع كل العصابة التي تنتظر اللحظة المناسبة لقتل المزارع ، وبذلك تطلق سراح زعيمها. في هذه اللحظة المتوترة ، حين يبدو الموقف يائساً بالنسبة للمزارع ، يستدير إليه قاطع الطريق بغتة ويقول : "ثق بي ! ولنقفز إلى العربة معا !". باختصار ، فإن من عانى المحنة حقاً هو قاطع الطريق ، وسيط الغواية ظاهرياً : في النهاية ، تستميله استقامة المزارع ويضحى بحريته ذاتها من أجله.

ألا يصدق نفس الشيء ، مع إجراء كل التعديلات الواجبة mutatis mutandis ، علينا جميعاً اليوم - على المثقفين الغربيين "التقدميين" الذين يصدر عن الأحكام المتبجحة high عن كيف أن العمال في مجتمعاتنا أو الجموع في العالم الثالث قد خانت مهمتها الثورية بجنون وخضعت للغوايات القومية أو الرأسمالية ؟ لنأخذ الشخصية المنقّرة لـ "اليساري الراديكالي" الانجليزي أو الفرنسي المرقّ ، الجيد الأجر ، وهو يدين الجماهير اليوغوسلافية لخضوعها لغناء الحوريات العرقي في أواخر الثمانينات : هؤلاء "اليساريون الراديكاليون" كانوا هم من يخضعون للمحاكمة فعلياً ، وهم من أخفقوا بصورة بائسة في الاختبار بسوء إدراكهم للحرب مابعد - اليوغوسلافية . ويصدق نفس الشيء بدرجة أكبر على دعاة التعددية الثقافية الليبراليين الذين يشجبون صعود عنف اليمين الجديد في المجتمعات الغربية : لأنهم بتبنيهم توجهها مُترفعاً وأبويًا تجاه الظواهر التي يدينونها ، يخفقون في الاختبار. . . نعم ، الوطنيون الذين ولدوا من جديد على حق : فما نحتاجه اليوم حقاً هو شجاعة جديدة ، والافتقار إلى هذه الشجاعة (التي هي أيضاً في نهاية

المطاف شجاعة أن نضع موضع التساؤل موقف المرء ذاته) هو أكثر ما يلفت النظر في رد فعل المثقفين الأمريكيين (والأوروبيين) على 11 سبتمبر و توابعه.

في الجزء الثاني من *Harmonienlehr* ، البيان النظري الأكبر لأرنولد شونبرج Arnold Schoenberg الذي يرجع الى عام 1911 ، يطوّر شونبرج معارضته للموسيقى النغمية tonal بتعبيرات تكاد تُذكرُ، سطحيًا، بالمنشورات النازية المتأخرة المعادية للسامية : فالموسيقى النغمية قد أصبحت عالما "سقيما" ، و "منحطا" بحاجة الى حل تطهيري ؛ لقد خضع النسق النغمي لـ "الاستيلاء الداخلي وسفاح المحارم" ؛ والألحان الرومانسية مثل النغمة السابعة المتلاشية "خنثى" ، و "تائهة" ، و "كوزموبوليتانية" . . . ولا شيء أسهل من الزعم بأن مثل هذا التوجه الخلاصي - القيامي هو جزء من نفس "الموقف الروحي الأعمق" الذي وُلد منه "الحل النهائي" النازي. إلا أن هذه النتيجة هي بالضبط ما يجب أن نتجنبه : فما يجعل النازية مثيرة للاشمئزاز ليس بلاغة الحل النهائي في حد ذاته ، بل الانعطافة العينية التي تسبغها عليه. والموضوع الجماهيري الآخر لهذا النوع من التحليل هو الطابع "الفاشي - النمطي" لتصميم الرقصات الجماهيري الذي يعرض حركات منضبطة لآلاف الأجساد (المواكب ، والعروض الجماهيرية في الاستادات ، الى آخره) ؛ وإذا كنا نرى هذا في الاشتراكية أيضا ، فإننا نستخلص على الفور النتيجة القائلة بأن ثمة "تضامنا أعمق" بين المذهبين "الشموليين". لكن هذه العملية ، التي تمثل ذات النموذج النمطي للبيرالية الإيديولوجية ، تخطيء الهدف : فلا يقتصر الأمر على أن هذه العروض الجماهيرية ليست فاشية بصورة متأصلة ؛ بل انها ليست حتى "محايدة" ، في انتظار أن يستحوذ عليها اليسار أو اليمين - وكانت النازية هي التي سرققتها واستحوذت عليها من الحركة العمالية ، التي هي مسقط رأسها الأصلي.

هنا يجب أن نعارض الجينالوجيا التاريخية القياسية (البحث عن الأصول ، والمؤثرات ، الى آخره) بالجينالوجيا النيتشوية الصارمة. وبصدد النازية ، فإن الجينالوجيا القياسية تتمثل في البحث عن العناصر "الفاشية - النمطية" أو النواة التي نمت منها النازية (حين يطارد هاجن ، في خاتم فاجنر ، ذهب الراين ؛ وحين قام الرومانسيون الألمان بإضفاء الطابع الجمالي على السياسة . . .) ؛ بينما تضع الجينالوجيا النيتشوية في اعتبارها بالكامل القطيعة rupture المؤسسة لحدث تاريخي جديد : ليس أي واحد من العناصر "الفاشية - النمطية" فاشيا في ذاته ، والشئ الوحيد الذي يجعلها "فاشية" هو مفصلتها النوعية - أو ، إذا وضعنا ذلك بتعبيرات ستيفن جاي جولد Stephen Jay Gould ، فإن كل هذه العناصر "تم توليفها - مسبقا" ex - apted بواسطة الفاشية. وبعبارة أخرى ، ليس ثمة "فاشية قبل التسمية" ، لأن التسمية ذاتها هي التي تصنع الفاشية بمعناها الدقيق انطلاقا من حزمة العناصر.

وبالتوازي مع ذلك ، يجب أن نرفض بجذرية مقولة أن الانضباط (من التحكم في النفس الى التدريب البدني) هو ملمح "فاشي - نمطي" - ويجب التخلي عن نفس المُسند [المحمول] predicate "فاشي - نمطي" : لأنه الحالة النموذجية لمفهوم - زائف وظيفته أن يعترض سبيل التحليل المفهومي : فحين نقول أن الاستعراض المنظم لآلاف الأجساد (أو ، مثلا ، الإعجاب بالرياضات التي تتطلب مجهودا ضخما وتحكما في النفس مثل تسلق الجبال) هو "فاشي - نمطي" ، فإننا لا نقول شيئا على الإطلاق ، بل نعبر ببساطة عن تداعٍ مبهم يحجب جهلنا. وهكذا ، منذ عقود ، حين كانت أفلام الكونج فو شعبية ، (بروس لي Bruce Lee ، الخ.) ، ألم يكن بديهيا أننا نتعامل مع إيديولوجيا طبقة عاملة أصيلة لفتية طريقهم الوحيد الى النجاح هو التدريب الانضباطي لمليكتهم الوحيدة ، أجسادهم ؟ إن التلقائية وتوجه "دع الأمور تمضي" للانغماس في الحريات المفرطة ، ينتميان لمن لديهم القدرة على ذلك - أما من لا يملكون شيئا فليس لديهم سوى انضباطهم. والانضباط البدني "السيء" ، إن وجد ، ليس التدريب الجماعي بل هو ، بالأحرى ، العدو jogging و بناء الأجسام كجزء من الاقتصاد الذاتي لتحقيق إمكانات الذات الكامنة - ولا عجب أن الهوس بجسد المرء يكاد يكون جزءا إجباريا من عبور الراديكاليين اليساريين السابقين الى "نضج" السياسة

البراجماتية : من جين فوندا Jane Fonda الى يوشكا فيشر Joschka Fischer، تتميز "فترة الكمون" بين المرحلتين بالتركيز على جسد المرء ذاته.

هناك نكتة اسرائيلية شهيرة عن زيارة بيل كلينتون لببي نتانيا هو : حين يرى كلينتون تليفونا أزرق غامضا في مكتب بببي ، يسأل بببي ما هو ، ويجيب بببي أنه يتيح له أن يطلب الرب في سماه. وعند عودته الى الولايات المتحدة ، يطلب كلينتون الحسود من مخابراته أن تزوده بذلك التليفون - بأى ثمن. يسلمونه خلال أسبوعين ، ويعمل على ما يرام ، لكن فاتورة التليفون باهظة - مليونان من الدولارات مقابل مكالمة لدقيقة واحدة مع الرب في الأعلى. ومن ثم يطلب كلينتون بببي و هو ثائر ويشكو : "كيف تقدرتون على تكاليف مثل هذا التليفون ، إذا كنا نحن ، من ندعمكم ماليا ، لا نستطيع ؟ هل هذه هي الطريقة التي تنفقون بها أموالنا ؟" فيرد بببي بهدوء : "لا ، ليس الأمر كذلك - أتعرف، بالنسبة لنا ، نحن اليهود ، تحتسب تلك المكالمات كمكالمات محلية !" وبشكل مثير للاهتمام ، يحل الجحيم محل الرب ، في النسخة السوفييتية من النكتة : فحين يزور نيكسون بريجنيف ويرى تليفونا خاصا ، يوضح له بريجنيف أنه صلة مع الجحيم ؛ وعند نهاية النكتة ، حين يشكو نيكسون من ثمن المكالمات ، يجيب بريجنيف بهدوء : "بالنسبة لنا في الاتحاد السوفييتي ، تحتسب المكالمات مع الجحيم كمكالمات محلية".

سيكون رد الفعل الأول ، شبه - التلقائي ، لشخص ديموقراطي ليبرالي مابعد حداشي ، على هذه النكتة هو : هذا ، بالضبط ، هو منبع الشر اليوم - الناس الذين يعتقدون أن لديهم خطأ مباشرا مع الرب (الحقيقة ، العدل ، الديموقراطية ، أو أي مطلق آخر) ، ويشعرون أن لديهم الحق في شجب الآخرين ، خصومهم ، باعتبار أن لديهم خطأ مباشرا مع الجحيم (إمبراطوريات الشر أو محاور الشر) ؛ وضد هذا التعميم الإطلاقي ، لا بد أن نقبل بتواضع بأن كل مواقفنا نسبية ، مشروطة بمنظومات تاريخية مصاحبة ، ومن هنا لا يملك أحد حولا نهائية حاسمة ، بل مجرد حلول براجماتية مؤقتة. وقد شجب تشسترتون زيف هذا الموقف : "عند أي ناصية شارع قد تقابل رجلا ينطق العبارة المسعورة والتجديفية بأنه قد يكون مخطئا . كل يوم يصادف المرء شخصا يقول أن رأيه بالطبع قد لا يكون الرأي الصحيح. بالطبع لا بد أن يكون رأيه هو الرأي الصحيح ، وإلا فلن يكون هو رأيه". (32) ألا يمكن تبين نفس الزيف بوضوح في بلاغة الكثيرين من دعاة التفكيك ما بعد الحداثيين ؟ إن تشسترتون على حق تماما في استخدام تعبير "تجديفية" القوي ، الذي يجب منحه كامل ثقله هنا : فالإضفاء المتواضع ظاهريا للطابع النسبي على موقف المرء هو نمط التبدى لعكسه تماما ، لمنح الامتياز لوضع النطق الخاص بالمرء. لنقارن صراع وألم "الأصولي" بالسلام الوادع لليبرالي الديموقراطي الذي ، من موقفه الذاتي الآمن ، يرفض باستهزاء كل انخراط ناضج ، وكل انحياز "دوجمائي".

هل نروج إذن للدرس القديم القائل بأن المعنى الإيديولوجي لعنصر ما لا يكمن في هذا العنصر ذاته ، بل يتوقف على الطريقة التي يجرى بها "تملكه" ، مفصلته ضمن سلسلة ؟ نعم - مع شرط واحد فاجع : أننا يجب أن نستجمع شجاعة أن نتخلى عن الديموقراطية بوصفها الدال - الحاكم Master-Signifier لهذه السلسلة. الديموقراطية هي الصنم السياسي الأكبر اليوم ، هي التنصل من التناحرات الاجتماعية الأساسية : ففي الوضع الانتخابي ، يتم لحظيا تعليق المراتبية الاجتماعية ، يجري اختزال الهيئة الاجتماعية social body الى حشد خالص يمكن ترفيمه ، وهنا يتم أيضا تعليق التناحر. منذ عقد من الزمن ، في انتخابات حاكم ولاية لويزيانا ، حين كان البديل الوحيد لعضو الكوكلو كس كلان السابق ، ديفيد ديوك ، ديموقراطيا فاسدا ، وضعت سيارات كثيرة ملصقا يقول : "صوتوا لمحتال - الأمر هام !" وفي الانتخابات الرئاسية الفرنسية في مايو 2002 ، وصل زعيم الجبهة الوطنية ، جان - ماري لوبن الى الجولة النهائية ضد الرئيس جاك شيراك ، المشكوك في قيامه بمخالفات مالية. وفي مواجهة هذا الاختيار الذي لا يحسدون عليه ، رفع المتظاهرون راية تقول "L'arnaque plutôt que la haine" [الخداع أفضل من الكراهية]. هذه هي المفارقة النهائية للديموقراطية : ضمن النظام السياسي القائم ، ينتهي الأمر بكل حملة ضد الفساد الى أن يصطفها co opted اليمين المتطرف الشعبوي. ففي إيطاليا ، كانت النتيجة النهائية لحملة "الأيدي

النظيفة" ، التي دمرت المؤسسة السياسية القديمة المتمركزة حول الديمقراطية المسيحية ، هي تولي برلوسكوني للسلطة ؛ وفي النمسا ، أضفى هايدر المشروعية على صعوده إلى السلطة على أسس محاربة الفساد ؛ وحتى في الولايات المتحدة ، يعدّ حكمه شائعة مقبولة أن أعضاء الكونجرس الديمقراطيون أشد فسادا من زملائهم الجمهوريين. إن فكرة "ديموقراطية نزيهة" هي وهم ، مثلما هو مفهوم نظام القانون دون ملحق أنه الأعلى البذوي : ما يبدو كأنه نشوء عارض في المشروع الديمقراطي منقوش في قلب مفهومه ذاته - أي أن الديمقراطية هي [ديموقراطية قذرة] *démocrassouille* . فالنظام السياسي الديمقراطي قابل للفساد بحكم طبيعته ذاتها. والخيار النهائي هو : هل نقبل ونساند هذا الفساد بروح الحكمة الواقعية المذعنة ، أم يمكننا أن نستجمع شجاعة أن نصوغ بديلا يساريا للديموقراطية كي نكسر الحلقة الشريرة للفساد الديمقراطي والحملات اليمينية للتخلص منه؟ (33)

أين ، إذن ، يجب أن نبحث عن بديل؟ هنا ، يجب أن نتقدم بحذر بالغ و في نفس الوقت ، دون أي تحيزات مسبقة - لماذا لا يجب أن نرى إمكانية انعاقية حتى في مقولات تبدو "رجعية" مثل "الهوية الروسية"؟ وربما أمكن لخصوصية الكلمات أن تكون مرشدا لنا في هذا الشأن : في الروسية هناك ، عادة ، كلمتان لـ (ما يبدو لنا ، نحن الغربيين) نفس المصطلح - إحداهما تشير إلى معناه العادي ، وتشير الأخرى إلى استخدام "مطلق" مشحون أخلاقيا بدرجة أكبر. هناك *إستينا istina* ، المفهوم الشائع للصدق باعتباره مطابقة الوقائع *adequacy to facts* ؛ وهناك *برافدا Pravda* (التي تكتب عادة بحروف كبيرة) ، وهي الصدق المطلق الذي يشير أيضا إلى النظام المثالي للخير الملتزم أخلاقيا. هناك *سفوبودا svoboda* ، الحرية العادية في أن نفعل ما نشاء ضمن إطار النظام الاجتماعي القائم ؛ وهناك *فوليا volia* ، الدافع المطلق ، المشحون ميتافيزيقيا بدرجة أكبر ، لاتباع إرادة المرء إلى حد تدمير الذات - وكما يروق للروس القول ، فإنكم في الغرب ، لديكم *سفوبودا* ، لكن لدينا نحن *فوليا*. هناك *جوسودارستفو gosudarstvo* ، الدولة في جوانبها الإدارية المعتادة ؛ و *دير جافا derzhava* ، الدولة بوصفها الوسيط الوحيد للسلطة المطلقة. (و بتطبيق تمييز بنيامين - شमित المشهور ، يمكنني أن أتجاسر على الزعم بأن الفرق بين *جوسودارستفو* وبين *دير جافا* هو الفرق بين السلطة المؤسّسة وبين السلطة المؤسّسة : *جوسودارستفو* هي آلة الدولة الإدارية التي تجري في مسارها الذي تحدده سلفا القواعد القانونية ؛ بينما *دير جافا* هي وسيط السلطة غير المشروطة.) هناك *متقفون intellectuals* ، أناس متعلمون ، وهناك *إنتلجنسيا intelligentsia* ، متقفون مكلفون بـ و مكسسون لـ مهمة خاصة لإصلاح المجتمع. (34) (و بالتوازي مع ذلك ، ثمة بالفعل لدى ماركس تمييز ضمنى بين "الطبقة العاملة" - مقولة category بسيطة للوجود الاجتماعي - و "البروليتاريا" - مقولة صدق ، الذات الثورية بالمعنى المحدد.)

أليس هذا التعارض في نهاية المطاف هو التعارض ، الذي طوّره آلان باديو ، بين الحدث وبين وضعية مجرد الوجود ؟ "إستينا" هي مجرد الصدق الوقائعي (التناظر ، الانطباق) ، بينما تشير "برافدا" إلى حدث الصدق المرتبط - بذاته ؛ "سفوبودا" هي حرية الاختيار المألوفة ، بينما "فوليا" هي حدث الحرية الوطيد . . . وهذه الفجوة منقوشة مباشرة ، في الروسية ، وتظهر باعتبارها كذلك ، وبذلك تكشف عن المخاطرة الجذرية المتضمنة في كل حدث - صدق : ليس ثمة ضمان أنطولوجي بأن "برافدا" ستنجح في تأكيد نفسها على مستوى الوقائع (التي تغطيها "إستينا") . ومن جديد ، يبدو كما لو أن الوعي بهذه الفجوة ذاتها منقوش في اللغة الروسية ، في التعبير الفريد *awos* أو *na awos* ، الذي يعني شيئا من قبيل "[بناءً] على حظنا" ؛ وهو يعبر عن الأمل في أن تصبح الأشياء على ما يرام حين يقوم المرء بإيماء جذرية خطيرة دون أن يكون قادرا على تبئ كل عواقبها المحتملة - انه شيء من قبيل عبارة نابوليون *on attaque, et puis on verra* ، [لنهاجم ، ثم نرى] التي طالما استشهد بها لينين. والسمة المثيرة للاهتمام في هذا التعبير هي أنه يقرن النزعة الإرادية ، التوجه الفعال للقيام بمخاطر ، بقدرية أكثر جوهرية : المرء يفعل ، يقوم بقفزة ، ثم يأمل أن تصبح الأشياء على ما يرام . . . ماذا لو كان هذا الموقف هو ما نحتاجه اليوم ، فيما نحن ممزقون بين النزعة البراجماتية النفعية *utilitarian* الغربية وبين النزعة القدرية الشرقية باعتبارهما وجهي "الإيديولوجيا العفوية" الكونية اليوم ؟

كان السياسي الهولندي اليميني الشعبوي بيم فورتوين Pim Fortuyn ، الذي قتل في أوائل مايو عام 2002 ، قبل اسبوعين من الانتخابات التي كان متوقعا أن يفوز فيها بخمس الأصوات ، شخصية متناقضة ذات دلالة : يميني شعبوي كانت خصائصه الشخصية ، وحتى (أغلب) آرائه، مقبولة سياسيا correct بشكل شبه كامل : كان مثليا ، وله علاقات شخصية طيبة مع العديد من المهاجرين ، ويتمتع بحس كامن بالمفارقة، وما الى ذلك - باختصار ، كان ليبراليا جيدا متسامحا بصدد كل شيء باستثناء موقفه السياسي الأساسي. ومن ثم كان ما يجسده هو التقاطع بين النزعة الشعبوية اليمينية وبين المقبولية correctness السياسية الليبرالية - وربما توجب أن يموت لأنه كان برهانا حيا على أن التعارض بين النزعة الشعبوية اليمينية وبين التسامح الليبرالي هو تعارض زائف ، على أننا نتعامل مع وجهين لنفس العملة. ألا يجب ، من ثم ، أن نجاهد من أجل النقيض التام لفورتوين التعس : لا الفاشي ذو الوجه الإنساني ، بل المحارب من أجل الحرية ذو الوجه اللا - إنساني ؟

الهوامش:

See Matt Ridley, *Genome*, New York: Perennial, 2000, p.64 (25)

See Jurgen Habermas, *Die Zukunft der menschlichen Natur*, Frankfurt: Suhrkamp 2001. (26)

(27) بالتوازي مع ذلك، يجب أن نشدد بوجه خاص على الطبيعة الملتبسة ("غير القابلة للتحدد"، إذا استخدمنا المصطلح الرائج) للنزعة النسوية المعاصرة في البلدان الغربية المتطورة - فالنزعة النسوية الأمريكية السائدة ، بانعطافتها القانونية **على طريقة** كاثارين ماكينون، هي في نهاية المطاف حركة إيديولوجية رجعية بشكل عميق ، مستعدة دائماً لاضفاء المشروعية على تدخلات جيش الولايات المتحدة باعتبارات نسوية ، وموجودة دائماً لإبداء ملاحظات أبوية رافضة حول سكان العالم الثالث (ابتداء من هوسها المناق بالختان وحتى ملاحظات ماكينون العنصرية عن كيف أن التطهير العرقي والاعتصاب موجودان في جينات الصرب. . .).

"On Evil: An Interview With Alain Badiou", *Cabinet*, Issue 5 (Winter 2001), (28) p.72.

See Alain Badiou , *Deleuze*, Paris: Hachette 1997 (29)

(30) والصعوبة في تولي المسألة هي موضوع ضخم لهوليوود مابعد - التقليدية. و هي السمة الموحدة بين فيلمين لمارتين سكورسيزي ، **الإغواء الأخير للسيد المسيح** و **كوندون** ؟ في كلتا الحالتين يتم تصوير التجسد البشري للشخصية المقدسة (السيد المسيح، الدالاي لاما) خلال العملية الصعبة لتولي تفويضها. (31) وهذا الوضع ليس قاصراً بأية حال على البلدان الغربية "ما بعد الحداثية". ففي عام 2001، ظهرت في روسيا حركة سمّيت "السير معا" ، منظمة الشباب الرسمية لبوتين وإيديولوجيتها "يورآسيوية"، تدعو الى "القيم الروسية" ضد الغرب. وإحدى أفكارهم الأصلية هي اللجوء لحرق الكتب : من أجل محاربة تأثير الانحطاط الليبرالي الغربي، يقترحون تجمعات جماهيرية يجلب اليها الناس كتبهم المنحطة وينالون في المقابل نسخاً مجانية من الكتب الروسية المناسبة ، بينما يتم إلقاء الكتب المنحطة فوق كومة وتحرق علناً. وبالطبع ، تم استنكار هذه الدعوة الى حرق الكتب، في روسيا ذاتها وفي الخارج ، باعتبارها تمهيدا كوميديا لم تأخذ المراتب القيادية العليا لبوتين ذاتها على محمل الجد؛ لكنها، بوصفها كذلك على وجه الدقة ، تعمل كمؤشر على مستقبل محتمل - كان هربرت ماركوزه هو من زعم ، بشأن كتاب ماركس **الثامن عشر من برومير** ، أنه في تاريخ صعود الفاشية ، **تسبق** الكوميديا التراجيديا ، يبدو الرعب النهائي في البداية (يتم إدراكه) على أنه كوميديا شبيهة - بالأوبريت.

Chesterton, *Orthodoxy*, p. 37 (32)

(33) هذا الحد الكامن للديموقراطية يفسر كذلك قوة الإبهار الفريدة التي يمارسها شخص سلفادر الليندي : إذ بقدر ما حاول أن يمزج بين الاشتراكية و"الديموقراطية التعددية" ، فإن دوره الحقيقي ليس دور نموذج ينبغي اتباعه ، بل (بصرف النظر عن نواياه الذاتية) دور بطل سلبي كانت مهمته أن يبين ، بواسطة هزيمته ذاتها ، (موته التراجيدي عام 1973)، استحالة الاشتراكية دون عنف ، بطريقة برلمانية "ناعمة". ويعني هذا ، ولنواجه الأمر : أننا نحن (الكبار بما يكفي لنكون معاصريه) كنا نعرف جميعاً أن مشروعه كان مقضياً عليه ، و هكذا كنا في نهاية المطاف ننتظر أن يحدث ذلك ، ونتحرق حتى سراً لموته.

(34) هذه التمييزات تعادلها بعض التكتيفات الهامة ، معان متعددة للكلمات ؛ فمثلاً ، الكلمة الروسية التي تعني السلام ، **مير mir** ، تعني كذلك "العالم، الكون" والكون المغلق لمجتمع القرية الزراعية قبل الحديثة ، بالطبع ، مع الفكرة الضمنية ، القائلة بأن الكون بأسره هو كل متناغم ، مثل قرية زراعية جيدة الضبط.

+++++

من الانسان الأبله الى الانسان المخلوع

الخطر الذي يغازله الغرب في "حربه على الإرهاب" كان قد أدركه بوضوح ، مرة أخرى ، تشسترتون الذي طرح ، في آخر صفحات كتابه "الأرثوذكسية" *Orthodoxy* ، هذا العمل النهائي للدعاية الكاثوليكية ، المأزق الجوهري لنقاد الدين الثوريين - الزائفين : فهم يبدأون بشجب الدين باعتباره قوة القمع التي تتهدد الحرية الانسانية ؛ إلا أنهم ، ، في محاربتهم للدين ، يضطرون للتخلي عن الحرية ذاتها ، وبذلك يضخون بالضبط بما كانوا يريدون الدفاع عنه - الضحية النهائية للرفض الإلحادي النظري والعملي للدين ليس الدين (الذي يواصل حياته، لا يزعه شيء) ، بل الحرية ذاتها ، التي يزعمون أنه يتهددها. الكون الإلحادي الجذري ، المجرد من المرجع الديني ، هو الكون الرمادي للرعب المساواتي والاستبداد :

الرجال الذين يبدأون بمحاربة الكنيسة من أجل الحرية والانسانية ينتهي بهم الأمر بطرح الحرية والانسانية جانبا لو أرادوا أن يتفرغوا لمحاربة الكنيسة . . . أعرف رجلا بلغ من شغفه بإثبات أنه لن يكون له وجود شخصي بعد الموت درجة النكوص الى موقف أنه ليس له وجود شخصي الآن. . . وعرفت قوما أوضحوا أنه لا يمكن وجود حساب إلهي بأن أوضحوا أنه لا يمكن وجود حساب بشري. . . إننا لا نكن الإعجاب ، ولا نلتمس العذر ، للمتعب الذي يدمر هذا العالم بدافع الحب للآخر. لكن ماذا نقول عن المتعب الذي يدمر هذا العالم بدافع الكراهية للآخر؟ إنه يضحي بوجود البشرية ذاته للـ وجود الرب. إنه لا يقدم ضحاياه للمذبح ، بل لمجرد تأكيد بطلان المذبح وخواء العرش. . . بشكوكهم الشرقية في الشخصية لا يجعلون من المؤكد أننا لن تكون لنا حياة شخصية في العالم الآخر ؛ بل يجعلون من المؤكد فحسب أننا لن تكون لنا حياة هائلة أو مكتملة هنا. . . الدنيويون لم يدمروا الأشياء المقدسة ؛ الدنيويون دَمَرُوا الأشياء الدنيوية ، لو كان هذا يجلب لهم أي قدرٍ من الراحة. (35)

أول ما يمكن إضافته اليوم الى هذا هو أن نفس الشيء يصدق على المدافعين عن الدين أنفسهم : فكمن من المدافعين المتعصبين عن الدين بدأوا بأن يهاجموا بعنف الثقافة الدنيوية secular المعاصرة ، وانتهاوا الى التخلي عن الدين ذاته (فقدان أي خبرة دينية ذات معنى)؟ أليس صحيحا كذلك ، بطريقة مماثلة تماما ، أن المحاربين الليبراليين متعاطشون لمحاربة الأصولية المناهضة للديموقراطية لدرجة أن ينتهي بهم الأمر الى نيل الحرية والديموقراطية ذاتهما ، لو كان ذلك سيمكنهم فحسب من محاربة الإرهاب؟ يبلغ من شغفهم لإثبات أن الأصولية غير - المسيحية هي التهديد الرئيسي للحرية لدرجة أنهم مستعدون للنكوص الى موقف أن علينا أن نحدد حريتنا ذاتها هنا والآن ، في مجتمعاتنا المسيحية المزعومة. إذا كان "الإرهابيون" مستعدين لتدمير هذا العالم بدافع الحب للآخر ، فإن محاربينا ضد الإرهاب مستعدون لتدمير عالمهم الديموقراطي ذاته بدافع الكراهية للآخر المسلم. إن ألتر Alter وديرشوفيتس Dershowitz يحبان الكرامة الانسانية بشدة الى حد أنهما مستعدان لتقنين التعذيب - الحط النهائي من قيمة الكرامة الانسانية - للدفاع عنها.

ألا ينطبق نفس الشيء على الاحتقار مابعد الحداثي للقضايا الإيديولوجية الكبرى - على مقولة أننا ، في حقبتنا ما بعد الإيديولوجية ، بدلا من محاولة تغيير العالم ، لابد أن نعيد اختراع أنفسنا ، وكوننا بأسره ، بأن نخرط في أشكال جديدة من الممارسات الذاتية (الجنسية ، والروحية ، والجمالية . . .)؟ وكما أوضح حنيف قريشي Hanif Kureishi في حوار حول كتابه **حميمية Intimacy** : "منذ عشرين عاما كان أمرا سياسيا أن تحاول عمل ثورة وتغيّر المجتمع ، بينما تنحصر السياسة الآن في أن جسدين يمارسان الحب في بدروم يمكنهما إعادة خلق العالم بأسره". في مواجهة أقوال مثل هذه ، لا يمكننا سوى أن نتذكّر الدرس القديم للنظرية النقدية : حين نحاول الحفاظ على المجال الحميم الأصيل للخصوصية ضد هجوم التبادل العام الأداتي/المتشيء "المُستَلَب" ، فإن الخصوصية ذاتها هي التي تصبح مجالا متشيئا "سلعي الطابع" بالكامل. الانسحاب إلى دائرة الخصوصية اليوم يعني تبني صيغ للأصالة الخاصة تقرخها صناعة الثقافة الحديثة - بدءاً من أخذ دروس في الاستنارة الروحية ، وأتباع آخر الموضوعات الثقافية وغير الثقافية ، الى الانخراط في رياضة العدو jogging وبناء الأجسام. الحقيقة النهائية للانسحاب إلى دائرة الخصوصية هي اعترافٌ علنيّ بالأسرار الحميمة في عرض تلفزيوني - وضد هذا النوع من الخصوصية ، لا بد أن نشدد على أن الطريقة الوحيدة ، اليوم ، للإفلات من قيود التسليع "المُستَلَب" هي اختراع جماعية جديدة . اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، يكون لدرس روايات مارجريت دوراس Marguerite Duras معنى : الطريقة - الطريقة الوحيدة - لإقامة علاقة شخصية (جنسية) مكثّفة ومُشبعة ليست أن ينظر المحبّان في عيون بعضهما ، متناسيين العالم حولهما ، بل أن ينظرا معا ، بينما يشبكان أيديهما ، إلى الخارج ، إلى نقطة ثالثة (الى القضية التي يحارب كلاهما من أجلها ، التي ينخرط كلاهما فيها) .

النتيجة النهائية لإضفاء الطابع الذاتي على نطاق كوني ليست هي اختفاء "الواقع الموضوعي" ، بل اختفاء ذاتيتنا ذاتها ، تحولها الى نزوة تافهة ، بينما يمضي الواقع الاجتماعي في مساره. وهنا أميل إلى إعادة صياغة إجابة المحقق الشهيرة على وينستون سميث* ، الذي يشك في وجود الأخ الأكبر ("إنك أنت من ليس موجودا") : الإجابة المناسبة على الشكوك مابعد الحداثية بشأن وجود الآخر الأكبر الإيديولوجي هي أن الذات نفسها هي التي ليست موجودة. ولا عجب في أن حقبتنا - التي يتلخص موقفها الأساسي على أفضل نحو في عنوان كتاب فيليب ماكجرو Phillip McGraw الأخير الأكثر مبيعا ، **شئون الذات Self Matters** ، والذي يعلمنا كيف "نخلق حياتنا من الداخل الى الخارج" - تجد ملحقا المنطقي في كتب بعناوين من قبيل **كيف تختفي تماما** : في مراجع عن كيف يمحو المرء كل أثر لوجوده السابق ، و"يعيد ابتكار" نفسه تماما (36). هنا نجد الفارق بين الزن في حد ذاته وبين طبيعته الغربية : فعظمة الزن الحقيقية هي أنه لا يمكن اختزاله الى "رحلة داخلية" الى "ذات" المرء "الحقيقية"؛ هدف تأمل الزن ، على النقيض ، هو الافراغ التام للذات، القبول بأنه ما من ذات ، ما من "حقيقة كامنة" يمكن اكتشافها. وهذا هو السبب في أن أساتذة الزن الأصلاء على حق تماما في تفسير رسالة الزن الأساسية (التحرر يكمن في فقدان المرء لذاته ، في التوحد الفوري مع **الخواء** البدني) باعتبارها متماهية مع الولاء العسكري المطلق ، مع الطاعة الفورية للأوامر والقيام بواجب المرء دون أي اعتبار للذات و مصالحها - أي ، في تأكيد أن الكليشيه القياسي المناهض للنزعة العسكرية حول الجنود الذين يُجنّدون كي يصلوا الي عار الخضوع الأعمى وينفذوا الأوامر مثل دُمى عمياء ، يتطابق مع تنوير الزن. هكذا أوضح إيشيهارا شوميو Ishihara Shummyo هذه النقطة في عبارات ألتوسيرية تقريبا تعبر عن فعل مساءلة يمسك بالذات مباشرة ، متجاوزا أي شك أو تساؤل هستيري :

الزن شديد الخصوصية بشأن الحاجة الى عدم وقف ذهن المرء. فور قدح الزناد، تنطلق شرارة. وليس ثمة أدنى فرق لحظي بين هذين الحدثين. إذا أمر المرء بالالتفات إلى اليمين، فعليه ببساطة أن يلتفت إلى اليمين بسرعة البرق. . . وإذا نودي اسم المرء ، "أويمون" ، مثلا ، فعليه ببساطة أن يجيب "أفندم" ، ولا يتوقف ليفكر في سبب النداء باسمه. . . اعتقد أن المرء إذا دعي الى الموت ، لا يجب أن يسبب له ذلك أدنى اهتمام. (37)

وبدلاً من شجب هذا الموقف باعتباره شذوذاً وحشياً ، يجب أن ندرك فيه مؤشراً على كيفية اختلاف الزن الأصيل عن تملكه الغربي الذي يعيد إدراجه ضمن مصفوفة "اكتشاف ذات المرء الحقيقية". إن منطق "رحلة داخلية" ، تبلغ نهايتها ، يواجهنا بخواء الذاتية وبذلك يجبر الشخص على تولي النزاع الكامل لذاتيته ؛ والنتيجة الباسكالية المتناقضة لهذه الطبعة الجذرية من الزن ، ما دام ليس ثمة جوهر كامن للدين ، هي أن ماهية الإيمان هي اللياقة ، الطاعة للطقس بوصفه كذلك. وهكذا فإن ما ليست البوذية الغربية على استعداد لقبوله هو أن الضحية النهائية لـ "الرحلة إلى داخل ذات المرء" هي الذات عينها.

وبشكل أعم ، أليس هذا هو نفس درس كتاب أدورنو وهوركهايمر **جدل التنوير** ؟ الضحايا النهائية للوضع ليست هي المقولات الميتافيزيقية المشوشة ، بل الحقائق ذاتها ؛ والسعي الجذري إلى العلمنة secularization ، الاستدارة باتجاه حياتنا الأرضية ، يحول هذه الحياة ذاتها إلى صيرورة "مجردة" فاقدة للحوية - و هذا الانقلاب paradoxical المتناقض أوضح ما يكون في عمل دي ساد De Sade ، حيث أن التوكيد المطلق العنان للجنسانية sexuality المجردة من آخر رواسب التسامي الروحي يحيل الجنسانية ذاتها إلى ممارسة ميكانيكية مجردة من العاطفة الحسية الأصيلة. ألا يتبين انقلاب مماثل بوضوح في مأزق آخر البشر في إيماننا ، أولئك الأفراد "ما بعد الحداثيين" الذين يرفضون كل أهداف "أسمى" باعتبارها إرهابية ويكرسون حياتهم للبقاء survival ، لحياة مفعمة بلذات صغيرة مصفاة باضطراب ومهيّجة / مُستثارة اصطناعياً ؟ بقدر ما يشير "الموت" و "الحياة" بالنسبة للقديس بولس إلى وضعين وجوديين (ذاتيين) ، لا إلى حقيقتين "موضوعيتين" ، نكون نحن على صواب تماماً في طرح نفس سؤال القديس بولس : منذ الذي يحيا حقاً اليوم؟ (38)

ماذا لو لم نكن "أحياء حقاً" إلا إذا انخرطنا في كثافة مفرطة تضعنا فيما وراء "مجرد الحياة" ؟ ماذا لو أننا ، حين نركّز على مجرد البقاء ، حتى لو تحددت مواصفاته على أنه "قضاء وقت طيب" ، يكون ما نفقده في النهاية هو الحياة ذاتها ؟ ماذا لو أن الانتحاري الفلسطيني الذي يوشك على تفجير نفسه (والآخرين) ، بمعنى توكيدي ، "أكثر حياة" من الجندي الأمريكي المنخرط في حربٍ أمام شاشة كمبيوتر ضدّ عدو على مسافة مئات الأميال ، أو من يوبي * yuppie نيويورك الذي يمارس رياضة العدو jogging بمحاذاة نهر الهدسون ليحافظ على لياقة جسده ؟ أو ، بتعبيرات التحليل النفسي ، ماذا لو كان الشخصُ الهستيري حياً حقاً في تساؤله المفرط الدائم عن وجوده ، بينما الحوادي هو النموذج الأمثل لاختيار "حياة في الموت" ؟ أعني ، أليس الهدف النهائي لطقوسه القهرية هو منع "الشيء" من الحدوث - وهذا "الشيء" هو فرط الحياة ذاتها ؟ أليست الكارثة التي يخشاها هي حقيقة أن شيئاً سيحدث له حقاً ، في نهاية المطاف ؟ أو ، بتعبيرات العملية الثورية ، ماذا لو كان الفرق الذي يفصل حقبة لينين عن حقبة الستالينية هو ، من جديد ، الفرق بين الحياة والموت ؟ هناك ملمح هامشي ظاهرياً يوضح هذه النقطة بجلاء : فالتوجه الأساسي لشيوعي ستاليني هو إتباع الخط الحزبي الصحيح ضد الانحراف "اليمني" أو "اليساري" - إنه باختصار ، سلوك مسار وسطي آمن ؛ وفي تضاد واضح ، ثمة ، بالنسبة للينينية الأصيلة ، انحراف واحد في نهاية المطاف ، هو الانحراف الوسطي - انحراف "اللعب بأمان" ، التجنب الانتهازي لخطر "الانحياز" الواضح والمفرط . فعلى سبيل المثال ، لم تكن ثمة "ضرورة تاريخية أعمق" في التحول المفاجيء للسياسة السوفييتية من "شيوعية الحرب" إلى "السياسة الاقتصادية الجديدة" عام 1920 - بل كانت مجرد خط استراتيجي متعرج يأس بين الخط (ين) اليساري واليميني ، أو أن البلاشفة - كما صاغ لينين نفسه الأمر عام 1922 - ارتكبوا "كل الأخطاء الممكنة". هذا "الانحياز" المفرط ، هذا الاختلال المتعرج الدائم ، هو في نهاية المطاف الحياة (السياسية الثورية) ذاتها - إذ بالنسبة لشخص لينيني ، يكون الاسم النهائي لليمين المناهض للثورة هو "الوسط" ذاته ، الخوف من إدخال اختلال جذري ضمن نطاق البناء الاجتماعي.

إنها إذن لمفارقة نيتشوية بالمعنى المحدد أن يكون الخاسر الأكبر في هذا التوكيد الظاهري للحياة ضد كل القضايا المتعالية هو الحياة الفعلية ذاتها. فما يجعل الحياة "جديرة بأن تعاش" هو نفس إفراط الحياة : الوعي بأن ثمة شيئاً يكون المرء مستعداً في سبيله للمخاطرة بحياته (يمكن أن نسمي هذا الإفراط "الحرية" ، أو

"الشرف" ، أو "الكرامة" ، أو "الاستقلال الذاتي" ، إلى آخره). ولا نكون أحياءً حقاً إلا حين نكون مستعدين للقيام بهذه المخاطرة. ويوضح تشسترتون هذه النقطة بصدد مفارقة الشجاعة :

الجندي الذي يطوّقه الأعداء ، لو أراد أن يشقّ طريقه خارجاً ، بحاجة إلى أن يقرن رغبة قوية في العيش بلامبالاة غريبة بالموت. لا يجب عليه أن يتعلّق بالحياة فحسب ، لأنه سيكون جباناً حينئذٍ ، ولن يفلت. ولا يجب عليه أن ينتظر الموت فحسب ، لأنه سيكون انتحارياً حينئذٍ ، ولن يفلت. لابد له أن ينشُد حياته بروح لامبالاة ضارية بها ؛ لا بد أن يتوق إلى الحياة مثل الماء ورغم ذلك يتجرع الموت مثل الخمر. (39)

موقف البقاء "ما بعد - الميتافيزيقي" لآخر البشر ينتهي به الأمر إلى استعراضٍ فاقده الحيوية لحياة تجرّج أذيالها كأنها شبحها ذاته. وضمن هذا الأفق يجب أن نفهم رفض عصرنا المتزايد لعقوبة الإعدام : يجب أن نتّمسك من تمييز "السياسة الحيوية biopolitics" الخفية التي يركّز عليها هذا الرفض. فأولئك الذين يؤكّدون "قداية الحياة" ، مدافعين عنها ضد تهديد قوى متعالية متطفلة عليها ، ينتهي بهم الأمر في "عالم خاضع للمراقبة supervised" فيه سنجياً دون ألم ، بأمان - وبسأم" ، (40) عالم فيه ، من أجل هدفه الرسمي ذاته - هدف حياة طويلة وممتعة - تكون كل المتع الحقيقية محظورة أو خاضعة للضبط الصارم (التدخين ، المخدرات ، الطعام. . .). وفي فيلم سبيلبرج **إنقاذ الجندي ريان Saving Private Ryan** هو أحدث مثال على توجه البقاء هذا إزاء الموت ، بتقديمه "النازع للأوهام" للحرب بوصفها مذبحاً بلا معنى لا يمكن لشيء أن يبرّر لها حقاً - وبوصفها كذلك ، فإنها تقدم أفضل تبرير ممكن لعقيدة "لا- ضحايا- على- جانبنا" العسكرية الخاصة بكولين باول. ونحن هنا لا نخطئ بين "الدفاع عن الغرب" ، الأصولي المسيحي العنصري المكشوف وبين الطبعة الليبرالية المتسامحة من "الحرب على الإرهاب" التي تريد في النهاية إنقاذ المسلمين أنفسهم من التهديد الأصولي : لأنهما رغم أهمية الفرق بينهما، يشتبكان في نفس الجدلية المدمّرة - لذاتها.

وعلى خلفية هذا التحول الكامن في "السياسة الحيوية" يجب أن نفسّر سلسلة من العبارات السياسية الأخيرة التي لا يمكن إلا أن تبدو مثل زلات اللسان الفرويدية. فذات مرة ، حين سأل الصحفيون دونالد رامسفيلد عن أهداف القصف الأمريكي لأفغانستان ، أجاب ببساطة : "حسناً ، هي قتل أكبر عدد ممكن من جنود طالبان وأعضاء القاعدة". هذه العبارة ليست بديهية بذاتها كما قد تبدو: فالهدف المعتاد لأي عملية عسكرية هو كسب الحرب ، هو إجبار العدو على الاستسلام ، والتدمير الواسع النطاق نفسه هو في النهاية وسيلة لهذه الغاية. . . . والمشكلة بشأن عبارة رامسفيلد الفظة ، مثلما مع الظواهر المماثلة الأخرى من قبيل الوضع غير المحدد للسجناء الأفغان في معسكر خليج جوانتانامو، هي أنها جميعاً فيما يبدو تشير مباشرة إلى تفرقة أجامبين بين المواطن الكامل الأهلية وبين **الإنسان المخلوع Homo sacer** الذي ، رغم أنه حي ككائن إنساني ، ليس جزءاً من المجتمع community السياسي. هذا هو وضع جون ووكر John Walker ، "الطالبان الأمريكي" - هل مكانه في سجن أمريكي أم بين سجناء طالبان ؟ فحين عرّفهم دونالد رامسفيلد بأنهم "مقاتلون غير شرعيين" (في تضاد مع أسرى الحرب "النظاميين") ، لا يعني هذا ببساطة أنهم موضوعون خارج القانون بسبب نشاطهم الإرهابي الإجرامي : فحين يرتكب مواطن أمريكي جريمة خطيرة ، مثل القتل، يظل "مجرماً شرعياً" ؛ والتمييز بين المجرمين وبين غير المجرمين لا يتداخل مع التمييز بين المواطنين "الشرعيين" وبين من يطلق عليهم في فرنسا بدون - أوراق sans papiers. المستبعدون ليسوا هم الإرهابيين فحسب، لكنهم أيضاً من يتلقون المساعدة الإنسانية (الروانديون ، والبوسنيون ، والأفغان. . .). : **الإنسان المخلوع** اليوم هو الموضوع المتميز للسياسة الحيوية الإنسانية : الشخص المحروم من إنسانيته الكاملة وتتم العناية به بطريقة بالغة الأبوية. يجب من ثم أن نقر بمفارقة أن معسكرات الاعتقال ومعسكرات اللاجئين لتوصيل المساعدة الإنسانية هما وجهان ، "إنساني" و "لاإنساني" ، لنفس المصفوفة الشكلية السوسيو- منطقية. في كلتا الحالتين ، تنطبق النكته القاسية من فيلم لوبيتش **أن نكون أو لا نكون Lubitch's To Be or Not to Be** : فعند سؤاله عن معسكرات الاعتقال

في بولندا ، "معسكر اعتقال إرهارت"، يرد : "نحن نقوم بالاعتقال ، والبولنديون يقومون بالعسكرة". (41) وفي كلتا الحالتين ، يتم اختزال السكان الى موضوع للسياسة الحيوية. لذا لا يكفي أن نعدّد الأمثلة على **الإنسان المخلوع** اليوم : **البدون - أوراق sans papiers** في فرنسا، وسكان **عشش الصفيح favelas** في البرازيل ، والناس في جيتوهات الأمريكيين - الأفارقة في الولايات المتحدة، الى آخره. ومن الجوهري بشكل مطلق أن نلحق بهذه القائمة الجانب الإنساني : فربما كان من ندرتهم باعتبارهم متلقي المساعدة الإنسانية هم **شخص الإنسان المخلوع** اليوم .

وقد وقع البرهان النهائي على منطق **الإنسان المخلوع** هذا في الأيام الأولى من مارس عام 2002، حين فاجأت فلور قوات طالبان والقاعدة الأمريكيين وحلفاءهم بدفاع ضارٍ ، وأجبرتهم على التراجع المؤقت وأسقطت حتى طائرة هليكوبتر أمريكية ، وبذلك انتهكت المبدأ الذهبي للحرب دون ضحايا. والغريب حقاً في التقارير عن هذه الأحداث في وسائل الإعلام الأمريكية أنها تمكنت من إخفاء دهشتها إزاء حقيقة أن مقاتلي طالبان قد ردوا بالقتال ، وكأن البرهان النهائي على كونهم إرهابيين إجراميين حقاً ("مقاتلين غير شرعيين") هو أنهم ، حين تطلق عليهم النار، **يردون بإطلاق النار** ويتضح نفس المأزق بجلاء في التقارير الواردة من الضفة الغربية : فحين يقوم الجيش الإسرائيلي ، فيما تصفه إسرائيل ذاتها بأنه عملية حربية ، بمهاجمة قوة الشرطة الفلسطينية وبالتدمير المنهجي للبنية الأساسية الفلسطينية ، يتم الاستشهاد بمقاومتهم باعتبارها برهاناً على أننا نتعامل مع إرهابيين. هذه المفارقة منقوشة داخل نفس مقولة "الحرب على الإرهاب" - وهي حرب غريبة يتم فيها تجريم العدو إذا قام بمجرد الدفاع عن نفسه ورد بإطلاق النار. وهكذا ينشأ كيان جديد لا هو الجندي العدو ولا المجرم العادي : إرهابيو القاعدة ليسوا جنوداً أعداء ، إنهم "مقاتلون غير شرعيين" ؛ لكنهم ليسوا حتى مجرد مجرمين - وقد عارضت الولايات المتحدة تماماً فكرة أن هجمات مركز التجارة العالمي يجب معالجتها باعتبارها أفعالا إجرامية لا-سياسية. باختصار ، فإن ما يبرز تحت قناع **الإرهابي** الذي يجري إعلان الحرب عليه هو بالتحديد شخص **العدو السياسي** ، الممنوع من دخول foreclosed الفضاء السياسي بالمعنى المحدد.

هذا وجه آخر من وجوه النظام العالمي الجديد : فلم يعد لدينا حروب بالمعنى القديم لنزاع نظامي بين دول ذات سيادة تطبق فيها قواعد معينة (معاملة الأسرى ، تحريم أسلحة معينة ، الى آخره). وما يتبقى هما نمطان من النزاع : إما صراعات بين مجموعات من **الإنسان المخلوع** - "النزاعات العرقية - الدينية" التي تنتهك قواعد حقوق الإنسان الكونية ، ولا تعدّ حروباً بالمعنى المحدد ، وتستدعي التدخل "الإنساني السلمي" من جانب القوى الغربية - وإما هجمات مباشرة على الولايات المتحدة أو غيرها من ممثلي النظام العالمي الجديد ، وفي هذه الحالة ، مرة أخرى ، ليس لدينا حروب بالمعنى المحدد ، بل مجرد "مقاتلين غير شرعيين" يقاومون بصورة إجرامية قوى النظام الكوني. وفي هذه الحالة الثانية ، لا يمكننا حتى تخيل أن تتوسط منظمة إنسانية محايدة مثل **الصليب الأحمر** بين الجانبين المتحاربين ، وتنظم تبادل الأسرى ، وما إلى ذلك : فأحد جانبي النزاع (القوة العالمية بزعامة الولايات المتحدة) يتولّى بالفعل دور **الصليب الأحمر** - ويدرك نفسه ليس على أنه أحد الجانبين المتحاربين، بل باعتباره عنصراً وسيطاً من أجل السلام والنظام العالمي يسحق تمرداً معيناً، وفي نفس الوقت، يقدم المساعدة الإنسانية لـ "السكان المحليين". وربما كانت الصورة النهائية لمعاملة "السكان المحليين" باعتبارهم **إنساناً مخلوعاً** هي صورة الطائرة الحربية الأمريكية وهي تحلق فوق أفغانستان - فالمرء لا يكون متأكداً أبداً مما ستسقط ، قنابل أم لفافات أغذية.

بلغ "تطابق الأضداد" الغريب هذا ذروته في أبريل 2002 ، حينما اقترح هارالد ناسفيك Harald Nasvik ، العضو اليميني في البرلمان النرويجي ، جورج دبليو بوش وتوني بلير كمرشحين لجائزة نوبل للسلام ، مستشهداً بدورهما الحاسم في "الحرب على الإرهاب" باعتباره أكبر تهديد للسلام اليوم - أخيراً أصبح حقيقةً شعاراً أوروبيل القديم "الحرب هي السلام". وربما كانت المفارقة الكبرى للموقف هي أن "الضرر الجانبي collateral" الرئيسي بالنسبة للغرب هو محنة اللاجئين الأفغان، وبوجه أعم ، الوضع الغذائي والصحي الكارثي في أفغانستان ؛ ومن هنا ، فإن العمل العسكري ضد طالبان يكاد يُقدّم ، أحيانا ،

على أنه وسيلة لضمان التوصيل الآمن للمساعدة الإنسانية. هكذا لم يعد لدينا تعارض بين الحرب وبين المساعدة الإنسانية : فالأثنان وثيقا الارتباط ؛ نفس التدخل يمكن أن يعمل على مستويين في نفس الوقت : يتم تقديم إسقاط نظام طالبان باعتباره جزءاً من استراتيجية لمساعدة الشعب الأفغاني المضطهد من قبل طالبان – وكما قال توني بلير ، ربما توجب علينا قصف طالبان لتأمين نقل الغذاء وتوزيعه. (42)

هل نشهد، إذن ، ميلادا جديدا للتفرقة القديمة بين **حقوق الإنسان و حقوق المواطن** ؟ هل هناك حقوق لكل أعضاء الجنس البشري (يجب احترامها أيضا في حالة **الإنسان المخلوع**) ، و حقوق أضيق نطاقا للمواطنين (الذين يكون وضعهم منظما قانونيا)؟ لكن ، ماذا لو توجب استخلاص نتيجة أشد جذرية ؟ ماذا لو لم تكن المشكلة الحقيقية هي الوضع الهش للمستبعدين ، بل بالأحرى ، حقيقة أننا ، على المستوى الأشد أولية ، "مستبعدون" **جميعا** بمعنى أن وضعنا الأشد أوليةً ، وضع "الصفر" هو وضع موضوع للسياسة الحيوية ، وأن الحقوق السياسية وحقوق المواطنة المحتملة تعطى لنا كإيماءة ثانوية ، وفقا للاعتبارات الاستراتيجية المتعلقة بالسياسة الحيوية ؟ ماذا لو أن هذه هي النتيجة النهائية لمقولة "مابعد-السياسة" ؟ إلا أن المشكلة مع إدخال أجابيين لمقولة **الإنسان المخلوع** ، أنها مندرجة ضمن خط "جدل التنوير" لأدورنو وهوركهايمر ، أو السلطة الانضباطية والسلطة الحيوية لدى ميشيل فوكو : أن موضوعات حقوق الإنسان ، والديموقراطية ، وحكم القانون ، وما إليها ، تُختزل في النهاية الى قناع مخادع للآليات الانضباطية لـ "السلطة الحيوية biopower" التي تجد التعبير النهائي عنها في معسكرات اعتقال القرن العشرين. والخيار الكامن هنا يبدو أنه الخيار بين أدورنو وبين هابرماس : هل المشروع الحدائي للحرية (السياسية) مظهرٌ زائفٌ تُجسّدُ "حقيقته" ذواتُ subjects فقدت آخر ذرة من الاستقلال الذاتي خلال انغماسها في قلب "العالم المُدار" الرأسمالي – المتأخر ، أم أن الظواهر "الشمولية" تشهد فحسب على حقيقة أن المشروع السياسي للحداثة ما زال غير مكتمل؟

لكن ، هذا الخيار بين تحليل تاريخي –سياسي "متشائم" يشير باتجاه انغلاق نهائي (مجتمع اليوم باعتباره ذلك الذي تتلاشى فيه ذات الفجوة بين الحياة السياسية ومجرد الحياة [الحياة الجرداء] ، ويتم فيه التشديد مباشرة على ضبط وإدارة "الحياة الجرداء" باعتباره جوهر السياسة ذاتها) وبين مقاربة أكثر "تفاؤلا" تدرك الظواهر "الشمولية" باعتبارها "حيودا" عارضا عن مشروع التنوير ، باعتبارها نقطة أعراض مرضية symptomatic تبرز عندها "حقيقة" هذا المشروع ، هل يغطي هذا الخيار فعلا المجال بأكمله؟ ماذا لو كان الاثنان وجهين لعملة واحدة ، قائمين على أساس كبت/استبعاد نفس الملمح الصادم ؟ traumatic

المفهوم "الشمولي" لـ "عالم مُدار" ، تكون فيه نفس خبرة الحرية الذاتية هي شكل تبدّي الخضوع للآليات الانضباطية، هي في النهاية الوجه السفلي underside الفانتازمي [التوهمي] البذوي للإيديولوجيا (والممارسة) "الرسمية" العامة للاستقلال الذاتي والحرية الفرديين : على الطرف الأول أن يرافق الثاني، مُكمّلا إياه supplementing باعتباره قرينه الشبحي البذوي، بطريقة لا يمكن إلا أن نذكرنا بالصورة المحورية لفيلم الاخوين وانتشوسكي ماتريكس [المصفوفة] Wachowski Brothers' film **Matrix**: ملايين الكائنات البشرية تحيا حياة claustrophobic قوامها رهاب الأماكن المغلقة في مهود مملوءة بالماء، يتم إبقاؤها على قيد الحياة كي تولّد الطاقة (الكهرباء) من أجل الماتريكس [المصفوفة] . وهكذا ، حين "يفيق" (بعض) الناس من انغماسهم في الواقع الافتراضي الذي تتحكم فيه المصفوفة ، لا يكون هذا الصحو انفتاحا على الفضاء الفسيح للواقع الخارجي ، بل ، للوهلة الأولى ، الإدراك الفطيع لهذا الانغلاق، حيث يكون كل واحد منا فعليا مجرد كيان عضوي شبيه-بالجنين ، مغموّر في السائل الرحمي .

هذه السلبية المطلقة هي الفانتازيا المحتجزة foreclosed التي تُقيم أود خبرتنا الواعية باعتبارنا ذواتا نشطة ، تطرح - نفسها – إنها الفانتازيا الشاذة النهائية : مقولة أننا ، في أعماق وجودنا ، أدوات لمتعة **jouissance** الآخر (المصفوفة)، مستنزفون من جوهر substance حياتنا مثل البطاريات . هذا

هو لغز هذه الآلية : لماذا تحتاج المصفوفة الى الطاقة البشرية ؟ الحل المتعلق بالطاقة الخالصة لا معنى له ، بالطبع : فقد كان يمكن للمصفوفة أن تجد بسهولة مصدرا آخر للطاقة ، يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر ولا يتطلب التجهيز البالغ التعقيد لواقع إفتراضي منسق من أجل ملايين الوحدات البشرية . والإجابة المتسقة الوحيدة هي : أن المصفوفة تتغذى على **المتعة** jouissance البشرية – هنا نعود الى الأطروحة اللاكانية الأساسية القائلة بأن **الآخر الأكبر** ذاته ، بعيدا عن كونه آلة بلا اسم anonymous ، بحاجة الى الفيض المستمر من **المتعة** على هذا النحو يجب أن نعكس وضع الأمور الذي تقدمه **المصفوفة** : إن ما يقدمه الفيلم باعتباره مشهد صَحُونَا على وضعنا الحقيقي هو في الحقيقة عكس ذلك تماما ، إنه نفس الفانتازيا الأساسية التي نقيم أود وجودنا .

في "جائزة التقدم" "Le prix du progrès" ، إحدى الشذرات التي تختتم **جدل التنوير** ، يقتبس أدورنو و هوركهايمر حجج الفسيولوجي الفرنسي في القرن التاسع عشر ، بيير فلوران Pierre Flourens ، ضد التخدير الطبي بالكلوروفورم : يزعم فلوران أن بالامكان إثبات أن المخدر يعمل فقط على الشبكة العصبية لذاكرتنا . باختصار ، بينما يجري تمزيقنا أحياء على طاولة العمليات، فإننا نحس تماما بالألم المروع ، لكننا فيما بعد، حين نفيق ، لا نتذكره

هذه ، بالطبع ، بالنسبة لأدورنو و هوركهايمر ، هي الاستعارة البالغة حد الكمال لمصير **العقل** القائم على أساس كبت الطبيعة ذاتها : فالجسم ، جانب الطبيعة من الذات ، يحس تماما بالألم ؛ لكن الذات لا تتذكره فحسب ، بسبب الكبت. هذا هو انتقام الطبيعة البالغ حد الكمال لسيطرتنا عليها : إننا ، دون علمنا ، أكبر ضحايانا ، نمزق أنفسنا أحياء ألا يمكننا أيضا أن نقرأ هذا على أنه السيناريو الفانتازي التام للسلبية المتبادلة ، **للمشهد الآخر** الذي ندفع فيه ثمن تدخلنا النشط في العالم؟ ما من فاعل حر نشط دون هذه الدعامة الفانتازمية (التوهمية) fantasmatic ، دون هذا **المشهد الآخر** الذي يجري فيه التلاعب التام من جانب **الآخر** . ربما كان ثمة أساس أعمق مما نظن للاحتياج الكاريكاتوري لكبار المديرين ، الذين يحددون يوميا مصير آلاف الموظفين العاديين ، للجوء الى لعب دور العبيد لمصفوفة سيطرة dominatrix في استعراض سادو – مازوكي .

يجب إعطاء تحليل أجامبين كامل طابعه الراديكالي المتمثل في طرح مقولة الديموقراطية ذاتها للتساؤل ؛ بمعنى أن مقولة الإنسان المخلوع لا يجب تخفيفها الى مجرد عنصر في مشروع ديموقراطي راديكالي هدفه إعادة التفاوض على/إعادة تعريف حدود الإدراج و الاستبعاد، بحيث يصبح المجال الرمزي بدوره أكثر انفتاحا باضطراد لأصوات أولئك المستبعدين بواسطة التشكل [الارتسام] configuration المهيم للخطاب العام . هذا هو لب قراءة جوديث بتلر Judith Butler **لأنتيجون Antigone** : "الحد الذي تعبر عنه ، الذي هو حدٌ ليس ثمة تعبيرٌ عنه ، ولا تمثيلٌ قابل للترجمة ، هو ...أثرُ مشروعيةٍ بديلة تطارد المجال العام ، الواعي ، باعتبارها مستقبلة الفضائحي" (43) تصوغ أنتيجون دعواها لصالح كل أولئك الذين ، مثل **البدون-أوراق** في فرنسا اليوم، ليس لهم وضع سوسيو- أنطولوجي كامل ومحدد، وبتلر ذاتها تحيل هنا الى **الإنسان المخلوع** لدى أجامبين (44) وهذا هو السبب في أننا يجب ألا نثبت لا الموقف الذي نتحدث منه أنتيجون (الذي نتحدث لصالحه) ، ولا موضوع دعواها : إذ رغم تشديدها على الوضع الفريد لأخيها ، فليس هذا الموضوع ملتبسا بقدر ما يبدو (أليس أوديب نفسه بدوره أخاها (غير الشقيق؟)) ؛ وموقفها ليس أنثويا ببساطة ، لأنها تدخل المجال الذكوري للشئون العامة – فعند مخاطبتها كريون ، رئيس الدولة ، تتحدث مثله ، مستحوذة على سلطته بطريقة شاذة / مُزاحة ؛ كذلك فإنها لا تتحدث لصالح القرابة ، كما يزعم هيجل ، حيث أن عائلتها ذاتها تمثل الفساد النهائي (المتعلق بزنا المحارم) لنظام القرابة الصحيح . على هذا النحو ، تزحزح دعواها الخطوط الفاصلة الأساسية للقانون ، ما يستبعد القانون وما يُدرجه ضمنه.

تطوّر بتلر قراءتها في تضاد مع خصمين رئيسيين – ليس هيجل فحسب ، بل كذلك لاكان . بالنسبة لهيجل ، يتم إدراك النزاع باعتباره داخليا ضمن النظام السوسيو- رمزي ، باعتباره الصدع التراجيدي للجوهر الأخلاقي : يمثل كريون وأنتيجون عنصريه ، الدولة و الأسرة ، الليل و النهار ، النظام القانوني البشري و النظام الإلهي الدفين . ويشدد لاكان ، على النقيض ، على كيف أن أنتيجون ، بعيدا عن أن تمثل القرابة ، تتخذ الموقف – الحدي لنفس الإيماءة المؤسسة للنظام الرمزي ، للمستوى – الصفري المستحيل للترميز ، ولهذا السبب تمثل دافع الموت : بينما لا زالت حية ، فإنها ميتة بالفعل بلغة النظام الرمزي ، مستبعدة من الإحداثيات السوسيو – رمزية . فيما أميل الى تسميته مركبا ديكالكتيكيا ، ترفض بتلر كلا التطرفين الحديين (وضع هيجل للنزاع ضمن نطاق النظام السوسيو- رمزي ؛ ومفهوم لاكان لأنتيجون باعتبارها تمثل المضي الى آخر الحدود going- to-the-limit ، بلوغ خارج النظام) : فأننتيجون تدمر النظام الرمزي القائم ليس من خارجه الجذري ببساطة ، بل من موقف طوباوي يصوّب إلى إعادة مفصلته الجذرية . أنتيجون هي "ميتة حية" ليس بمعنى (تنسبه بتلر إلى لاكان) دخول مجال آتي Ate الغامض، المضي الى آخر حدود القانون ؛ إنها "ميتة حية" بمعنى اتخاذها علنا موقفا لا يمكن البقاء فيه ، موقفا ليس له مكان في الفضاء العام - موقفا ليس قبليا ، بل فقط بالنظر إلى الطريقة التي يتبنين بها هذا الفضاء الآن ، في شروط نوعية ومشروطة تاريخيا .

هذه ، إذن ، هي نقطة بتلر المحورية ضد لاكان : أن جذرية لاكان ذاتها (مقولة أن أنتيجون تموضع نفسها في الخارج الانتحاري للنظام الرمزي) تعيد تأكيد هذا النظام ، نظام علاقات القرابة القائمة ، مفترضة في صمت أن البديل النهائي هو الخيار alternative بين النظام الرمزي لعلاقات القرابة (البطيركية الثابتة) وبين انتهاكها الانتحاري النشواني . فماذا عن الخيار الثالث : خيار إعادة مفصلة علاقات القرابة هذه ذاتها ، أي ، إعادة بحث النظام الرمزي باعتباره منظومة من الترتيبات الاجتماعية المشروطة contingent المفتوحة للتغيير ؟ نتحدث أنتيجون باسم كل الدعاوى "المرضية" التخريبية التي تتوق الى السماح لها بدخول الفضاء العام – إلا أن مماهاة ما تمثله في هذه القراءة مع الإنسان المخلوع ، يخطيء الدافع الأساسي لتحليل أجامبين : فليس لدى أجامبين مكان للمشروع "الديموقراطي" لـ "إعادة التفاوض" حول الحد الذي يفصل المواطنين المكتملين عن الإنسان المخلوع عن طريق السماح التدريجي لأصواتهم بأن تُسمع : فنقطته ، بالأحرى ، أنه في "ما بعد- السياسة" اليوم ، يكون نفس الفضاء الديموقراطي العام قناعا يُخفي حقيقة أننا ، في نهاية المطاف ، جميعنا أناس مخلوع . هل يعني هذا ، إذن ، أن أجامبين يشارك ببساطة وبشكل كامل رأي أولئك الذين ، مثل أدورنو و فوكو ، يحددون الغاية السرية لتطور مجتمعاتنا على أنها انغلاق تام للـ "العالم المُدار" الذي نختزل فيه جميعا الى مرتبة موضوعات لـ "السياسة الحيوية"؟ رغم أن أجامبين ينفي أن ثمة أي مخرج "ديموقراطي" ، فإنه في قراءته المسهبة للفديس بولس يُعيد التشديد بعنف على البعد الخلاصي Messianic "الثوري" - وإذا كان هذا البعد الخلاصي يعني أي شيء على الإطلاق ، فإنه يعني أن "الحياة الجرداء" لم تعد المجال النهائي للسياسة . (45) بمعنى : أن مايجري تعليقه في التوجه الخلاصي لـ "انتظار نهاية الزمن" هو بالضبط المكان المركزي "للحياة الجرداء" ؛ و في تضاد واضح ، فإن الملمح الأساسي لما بعد - السياسة هو إختزال السياسة الى "سياسة بيولوجية" بالمعنى الدقيق لإدارة وتقنين regulating "الحياة الجرداء" .

هذا التملك (السيء) لأجامبين هو مجرد واحد ضمن سلسلة الحالات التي تضرب المثل على نزوع الأكاديميا "الراдикаلية" الأمريكية (والأكثر تمثيلا من أجامبين هنا هي حالة فوكو) : فالموضوع الثقافي الأوروبي الذي يجرى تملكه ، بتشديده على انغلاق كل مشروع اعتاقي ديموقراطي ، يعاد إدراجه ضمن الموضوع المضاد للتوسيع التدريجي و الجزئي للفضاء الديموقراطي . والوجه الآخر لهذا التجذير السياسي الظاهري هو أن الممارسة السياسية الراديكالية ذاتها يتم إدراكها على أنها صيرورة لا تنتهي يمكنها أن تزعزع ، وتزيح ، الخ ، بنية السلطة ، دون أن تكون قادرة أبدا على تدميرها بصورة فعالة – والهدف النهائي للسياسة الراديكالية هو أن تزعزع بالتدريج حدود الاستبعادات الاجتماعية ، متيحة تمكين الفاعلين المستبعدين (الأقليات الجنسية والعرقية) عن طريق خلق فضاءات هامشية يمكنهم فيها مفصلة هويتهم

وطرحها للتساؤل . وهكذا تصبحُ السياسةُ الراديكالية محاكاةً ساخرة واستقرازا هازئين بلا نهاية ، صيرورةً تدريجية لإعادة تحديد الهوية ليس فيها انتصارات حاسمة وخطوط فاصلة نهائية – و مرة أخرى ، كان تشسترتون هومن صاغ النقد النهائي لهذا الموقف في مديحه للمقصلة [الجلوتين] :

للمقصلة خطايا كثيرة، لكن لنوفيها حقها فليس ثمة شيء تطورى بشأنها . والحجة التطورية الأثيرة تجد أفضل إجابة لها في البلطة . يقول نصير التطور ، "أين ترسم الخط الفاصل ؟" فيجيب نصير الثورة ، "أرسمه هنا : بالضبط بين رأسك وجسدك " . لا بد في كل لحظة معطاة بعينها أن يكون ثمة صواب أو خطأ مجرد حتى يمكن تسديد ضربة ، لا بد أن يكون ثمة شيء أبدي حتى يكون ثمة أي شيء مباغت . (46)

على هذا الأساس يمكننا أن نفهم لماذا توجب على باديو ، منظرُ الفعل ، أن يحيل الى الأبدية : فالفعل لا يمكن إدراكه إلا باعتباره تدخل الأبدية في الزمن . والتطورية التاريخية تؤدي الى الإرجاء اللانهائي ؛ الوضع دائما بالغ التعقيد ، وثمة دائما جوانب يجب وضعها في الاعتبار ؛ و وزننا للعوامل المؤيدة والمعارضة لا ينتهي أبدا ... وضد هذا الموقف ، ينطوي الانتقال الى الفعل على إيماءة تبسيط جذرية وعنيفة ، على قطع مثل قطع العقدة الجوردية الشهيرة : إنها اللحظة السحرية حين يتبلور التأمل اللانهائي في "نعم" أو "لا" بسيطة .

لو قاومنا ، إذن ، ضد هذه القراءات السيئة ، إغراء تجريد مقولة **الإنسان المخلوع** من جذريتها الحقيقية ، فإنها ستتيح لنا تحليل الدعوات العديدة لإعادة التفكير في بعض المكونات الأساسية للمفاهيم الحديثة عن الكرامة والحرية الإنسانية التي راجت بعد الحادي عشر من سبتمبر . والمثال الجيد على ذلك هو عمود جوناثان آلتر Jonathan Alter في مجلة **نيوزويك Newsweek** بعنوان "حان الوقت للتفكير في التعذيب" ، و بعنوان فرعي مشؤوم هو "إنه عالم جديد، وربما تطلب البقاء تقنيات قديمة بدت غير واردة" . فبعد مغازلة الفكرة الإسرائيلية القائلة بإضفاء المشروعية على التعذيب البدني والنفسي في حالات الضرورة القصوى (حين نعلم أن سجيناً إرهابياً يملك معلومات قد تنقذ مئات الأرواح) ، وبعد عبارات "محايدة" من قبيل "بعض التعذيب مفيد بوضوح" ، يستنتج آلتر :

لا يمكننا تقنين التعذيب ؛ فهو مناقض للقيم الأمريكية . لكن حتى ونحن نواصل معارضة انتهاكات حقوق الإنسان حول العالم ، فإننا بحاجة الى الإبقاء على ذهنٍ منفتح بشأن إجراءات معينة لمحاربة الإرهاب ، مثل الاستجواب السيكولوجي بمصادقة المحكمة . وسوف يكون علينا أن نفكر في نقل بعض المشتبه بهم الى حلفائنا الأقل تدقيقاً ، حتى لو كان ذلك نفاقاً . فلم يقل أحد أن ذلك سيكون لطيفاً . (47)

إن بذاءة مثل هذه العبارات صارخة . أولاً ، لماذا نستخدم هجمات مركز التجارة العالمي كمبرر؟ ألا تجري جرائم أفظع بكثير حول العالم طوال الوقت ؟ ثانياً ، ما الجديد في هذه الفكرة ؟ ألم تعلم وكالة المخابرات المركزية حلفاء أمريكا العسكريين في أمريكا اللاتينية والعالم الثالث ممارسة التعذيب طوال عقود ؟ لقد دام النفاق عقوداً وحتى حجة آلان درشوويتز Alan Dershowitz "الليبرالية" التي يتم الاستشهاد بها كثيراً فإنها مشبوهة : "أنا لا أحبذ التعذيب ، لكن إذا كنتم ستقومون به ، فلا بد بالضرورة أن يكون بموافقة المحكمة" . المنطق الكامن هنا - "حيث أننا نقوم به على أية حال ، فالأفضل أن نقننه ، وبهذا نمنع التجاوزات !" - هو منطق بالغ الخطورة : فهو يضيف المشروعية على التعذيب ، وبذلك يفتح المجال أمام المزيد من التعذيب غير المشروع . و في نفس الخط ، حين يجادل درشوويتز بأن التعذيب في موقف "القبلة الموقوتة" ليس ضد حقوق السجين باعتباره متهما (فالمعلومات التي يتم الحصول عليها لن تستخدم في محاكمة ضده ، والتعذيب لا يُنفذ كعقوبة ، بل فقط ليمنع القتل الجماعي القادم) ، فإن الفرضية الكامنة أشد إثارة للقلق : هل يجب إذن السماح بتعذيب الناس ليس كجزء من عقوبة مستحقة، بل لمجرد أنهم

يعرفون شيئاً ؟ لماذا ، إذن ، لا نقنن أيضاً تعذيب أسرى الحرب الذين قد يملكون معلومات يمكن أن تنقذ المئات من حيوات جنودنا ؟ ضد نزاهة درشويتز الليبرالي ، يجب من ثم أن نتمسك بصورة متناقضة بـ "النفاق" الظاهري : حسناً ، يمكننا أن نتخيل جيداً أننا في موقف نوعي محدد، في مواجهة "السجين الذي يعرف" الشهير الذي يمكن لكلماته أن تنقذ الآلاف ، سنلجأ إلى التعذيب – إلا أننا ، حتى (أو ، بالأحرى ، بالضبط) في هذه الحالة ، يكون حاسماً بشكل مطلق ألا نرفع هذا الخيار اليائس إلى مرتبة مبدأ عام universal ؛ يجب ببساطة أن نقوم به ، حسب إلحاح اللحظة الوحشي الذي لا يمكن تجنبه . بهذه الطريقة وحدها ، بنفس عدم القدرة على ، أو حظر رفع ما اضطررنا لعمله إلى مرتبة مبدأ عام ، نحافظ على الشعور بالذنب ، على الوعي بلا مقبولية ما فعلناه .

تلك السجلات ، باختصار ، تلك المناشدات بأن "نبقى ذهننا منفتحاً" ، يجب أن تكون العلامة بالنسبة لكل ليبرالي أصيل على أن الإرهابيين ينتصرون . وعلى نحو ما ، فإن المقالات مثل مقال آلتر ، التي لا تدافع عن التعذيب صراحة ، بل تُدخله ببساطة كموضوع مشروع للسجال ، أشد خطورة حتى من التأييد الصريح للتعذيب : فبينما – في اللحظة الراهنة ، على الأقل – سيكون التأييد الصريح صادمًا بدرجة مفرطة ومن ثم مرفوضاً ، فإن مجرد إدخال التعذيب كموضوع مشروع يتيح لنا قلب النظر في الفكرة بينما نحافظ على ضمير صافٍ ("بالطبع أنا ضد التعذيب – من يؤلمه أن نناقشه ببساطة!") . مثل هذا الإضفاء للمشروعية على التعذيب كموضوع للسجال يغيّر خلفية الافتراضات الإيديولوجية المسبقة والخيارات بطريقة أشد جذرية بكثير من الدفاع الصريح عنه : إنه يغير المجال برمته بينما ، بدون هذا التغيير ، يبقى الدفاع الصريح وجهة نظر شخصية بحتة idiosyncratic . المشكلة هنا مشكلة افتراضات أخلاقية مسبقة أساسية : بالطبع يمكنك إضفاء المشروعية على التعذيب على أساس مكاسب قصيرة الأمد (إنقاذ مئات الحيوانات) - لكن ماذا عن العواقب الطويلة الأمد على عالمنا الرمزي؟ أين يجب أن نتوقف ؟ لماذا لا نعذب المجرمين العتاه ، أو والدًا يختطف طفله من زوجة مطلقة...؟ وفكرة أننا، فور أن نطلق الجني من القمقم ، يمكننا إبقاء التعذيب عند مستوى "معقول" ، هي أسوأ وهم ليبرالي – ولو لسبب وحيد هو أن مثال "القبلة الموقوتة" خادع : فالتعذيب ، في أغلبه ، لا يمارس من أجل حل موقف "قبلة موقوتة" ، بل لأسباب مختلفة تماماً (لمعاقبة أو تحطيم العدو نفسياً ، لإرهاب السكان الذين يجب إخضاعهم ، إلى آخره) . ولا بد لأي موقف أخلاقي متسق أن يفرض تماماً مثل هذا التعليل البراجماتي - النفعي . وفضلاً عن ذلك ، فإنني أميل مرة أخرى إلى القيام بتجربة ذهنية بسيطة : لتخيل صحيفة عربية تدافع عن تعذيب السجناء الأمريكيين- وانفجار التعليقات حول الهمجية الأصولية وعدم احترام حقوق الإنسان التي سيثيرها ذلك ! بالطبع ، يجب أن نعي تماماً كيف أن نفس حساسيتنا تجاه التعذيب – أي ، فكرة أن التعذيب ضد كرامة أي كائن بشري بوصفه كذلك – قد نبنت من إيديولوجيا الرأسمالية الحديثة ذاتها : إن نقد الرأسمالية ، باختصار ، هو نتيجة لنفس الديناميات الإيديولوجية للرأسمالية ، وليس نتيجة قياسنا لها وفقاً لأي معيار خارجي ما .

بعيداً عن كونه حدثاً منفرداً ، استمر موضوع التعذيب خلال 2002 : ففي بداية أبريل ، حين ألقى الأمريكيون القبض على أبو زبيدة ، المفترض أنه القائد الثاني لتنظيم القاعدة ، نوقش علناً في وسائل الإعلام سؤال "هل يجب أن يُعذب؟" . وفي بيان أذاعته شبكة إن بي سي NBC يوم 5 أبريل ، زعم رونالد رامسفيلد نفسه أن الأولوية لديه هي حيوات الأمريكيين ، وليس حقوق الإنسان لإرهابي ذي رتبة رفيعة ، وهاجم الصحفيين لإظهارهم ذلك القلق على رفاية أبو زبيدة ، ممهداً بذلك الطريق علناً أمام التعذيب ؛ إلا أن أكثر العروض المحزنة ، كان عرض آلان درشويتز الذي ، تحت قناع رد ليبرالي على رامسفيلد ، وبينما يقبل التعذيب كموضوع مشروع للنقاش ، جادل في الحقيقة مثل المعارضين القانونيين النزعة لإبادة اليهود في مؤتمر فانزيه Wannsee . وكانت تحفظاته مبنية على نقطتين بعينهما : (1) أن حالة أبو زبيدة ليست حالة واضحة لموقف "القبلة الموقوتة" - بمعنى ، أنه ليس من الثابت أنه على علم فعلاً بتفاصيل هجوم إرهابي جماعي وشيك بعينه يمكن منعه بالوصول إلى معلوماته عن طريق التعذيب ؛ (2) أن تعذيبه لن يكون قانونياً فضلاً عن ذلك – فمن أجل القيام بذلك ، يجب أولاً الانخراط في سجل عام

ثم تعديل دستور الولايات المتحدة والإعلان علنا عن المجالات التي لن تعود الولايات المتحدة تلتزم فيها بمعاهدة جنيف ، التي تنظم معاملة سجناء العدو... إذا كان ثمة على الإطلاق إخفاق أخلاقي نهائي لليبرالية ، فهذا هو .

وهذه الإشارة إلى فائزيه ليست مبالغة بلاغية بأية حال . فلو كان لنا أن نصدق الدراما الوثائقية لشبكة HBO التلفزيونية عن مؤتمر فائزيه ، فإن محاميا عجوزا محافظا، حطمته تماما التضمينات التي تنطوي عليها الإجراءات المقترحة (تصفية ملايين اليهود بشكل غير قانوني)، قد احتج هناك قائلا : "الكنني زرت الفوهرر منذ اسبوع، وأكد لي بوقار أن يهوديا واحدا لن يعاني من إجراءات عنيفة غير قانونية !" فنظر إليه راينهارد هيدريش Reinhard Heydrich ، الذي كان يرأس الاجتماع ، في عينيه ، وأجاب ، بابتسامة هازئة : "وأنا واثق من أنك لو سألته نفس السؤال مرة أخرى ، فسوف يعطيك نفس التأكيد!" وأدرك القاضي المقصود : أن الخطاب النازي يعمل على مستويين ؛ أن مستوى العبارات الصريحة كان يكمله وجه سفلي بذيء غير معترف به. ولو كان باستطاعتنا الاعتماد على المحاضر الباقية فقد كانت هذه ، على طول المؤتمر ، نقطة الخلاف المحورية بين الموظفين التنفيذيين المتشددتين وبين "القانونيين" من أمثال القاضي الذي وضع مسودة قوانين نورمبرج العنصرية : إذ بينما شدد بحرارة على مقدار كراهيته لليهود، فإنه أصر رغم ذلك على أنه لا توجد أسس قانونية مناسبة للإجراءات الجزرية التي كانوا يناقشونها. ومن ثم لم تكن المشكلة بالنسبة "للقانونيين" هي طبيعة الإجراءات، ولا حتى العداء للسامية بوصفه كذلك، بل قلقهم من أن تلك الإجراءات لم يكن مسموحا بها في القانون بشكل مناسب- كانوا مفزوعين من مواجهة هاوية قرار لا يغطيه الآخر الأكبر للقانون ، الاختلاق القانوني للمشروعية. واليوم ، مع التنظيم ما بعد - السياسي لحياة **الإنسان المخلوع** تلاشى هذا التحفظ الأخير للقانونيين النازيين : لم تعد ثمة أية حاجة لتغطية الإجراءات الإدارية **بالآخر** الأكبر القانوني.

الخلف غير المتوقع لهذه "السياسة البيولوجية" شبه- القانونية التي تقوم فيها الإجراءات الإدارية بالحلول تدريجيا محل حكم القانون ، كان النظام التسلسلي اليميني لألفريدو سترويسنر Alfredo Stroessner في الباراجواي خلال ستينيات وسبعينات القرن العشرين ، وهو النظام الذي أوصل منطق حالة الاستثناء الى حدها الأقصى المتطرف الذي لا يمكن تجاوزه. فتحت حكم سترويسنر ، كانت الباراجواي - بتعبيرات نظامها الدستوري - ديموقراطية برلمانية "عادية" كل الحريات فيها مضمونة ؛ لكن ، حيث أننا جميعا نحيا ، كما زعم سترويسنر ، في حالة طوارئ بسبب الصراع في كل أنحاء العالم بين الحرية وبين الشيوعية ، فإن التطبيق الكامل للدستور مؤجل الى الأبد ، وحالة الطوارئ الدائمة معلنة . ولم يكن يتم تعليق حالة الطوارئ هذه إلا يوما واحدا كل أربعة أعوام ، يوم الانتخابات ، بحيث يمكن إجراء انتخابات حرة ، تضيف المشروعية على حكم حزب كولورادو الذي يتزعمه سترويسنر بأغلبية 90 بالمائة - جديرة بخصومه الشيوعيين ... المفارقة أن حالة الطوارئ هذه كانت الحالة العادية ، بينما كانت الحرية الديموقراطية "العادية" هي الاستثناء الذي يطبق بشكلٍ وجيز.

ألم يجهر هذا النظام المشنوم مُقَدِّمًا فحسب بالعاقبة الأشد جذرية لميل ملحوظ بوضوح في مجتمعاتنا الليبرالية - الديموقراطية في أعقاب 11 سبتمبر؟ أليست البلاغة اليوم هي بلاغة حالة طوارئ كونية في الحرب ضد الإرهاب ، تضيف المشروعية على المزيد والمزيد من حالات تعليق الحقوق القانونية وغيرها ؟ والأمر المنذر بالشر في زعم جون أشكروفت John Ashcroft أن "الإرهابيين يستخدمون حرية أمريكا كسلاح ضدنا" هو ، بالطبع ، النتيجة الضمنية البديهية : إذن ، لكي ندافع "عنا"، لابد أن نحد من حرياتنا وما تشير إليه التصريحات العلنية العديدة البالغة الإشكالية لكبار المسؤولين الأمريكيين ، خصوصا دونالد رامسفيلد و جون أشكروفت ، وكذلك التباهي المتفجر بـ "الوطنية الأمريكية" بعد 11 سبتمبر (الأعلام في كل مكان ، وما الى ذلك)، هو بالتحديد منطق حالة الطوارئ : بالإمكان تعليق حكم القانون ؛ يجب السماح للدولة بفرض سيادتها دون قيود قانونية "مفرطة" ، حيث أن أمريكا ، كما قال الرئيس بوش بعد 11 سبتمبر مباشرة ، في حالة حرب. والمشكلة ، بالضبط ، هي أن أمريكا ليست بداهة

في حالة حرب ، على الأقل ليس بالمعنى القديم التقليدي للمصطلح (فبالنسبة للغالبية العظمى من الناس ، تستمر الحياة اليومية ، وتظل الحرب عملاً حصرياً لإدارات الدولة) : هكذا يتم طمس نفس التفرقة بين حالة الحرب وحالة السلم ، إننا ندخل زمناً يمكن فيه لحالة السلم ذاتها أن تكون في نفس الوقت حالة طوارئ.

مثل هذه التعارضات تقدم لنا أيضاً مفتاح الارتباط المتبادل بين منطقي حالة الطوارئ: طوارئ اليوم الليبرالية - الشمولية الخاصة بالـ "حرب على الإرهاب" ، وحالة الطوارئ الثورية الأصلية ، التي كان أول من فصلها هو القديس بولس فيما أسماه طوارئ اقتراب "نهاية الزمن". والاجابة واضحة : حين تعلن إحدى مؤسسات الدولة حالة طوارئ ، فإنها تفعل ذلك بالتعريف كجزء من استراتيجية يائسة لتجنب الطوارئ الحقيقية والعودة الى "المسار المعتاد للأمر". وثمة ملمح مشترك بين كل الإعلانات الرجعية لـ "حالة الطوارئ" : أنها كانت جميعاً موجهة ضد قلق ("اضطراب") شعبي ويتم تقديمها على أنها قرار باستعادة الحالة العادية . في الأرجنتين ، والبرازيل ، واليونان ، وتشيلي ، وتركيا ، أعلن العسكريون حالة الطوارئ من أجل كبح "فوضى" التسييس الشامل : "هذا الجنون يجب أن يتوقف ، يجب أن يعود الناس الى أشغالهم العادية ، يجب أن يتواصل العمل !" باختصار ، فإن الإعلانات الرجعية لحالة الطوارئ هي دفاع يائس ضد حالة الطوارئ الحقيقية ذاتها .

وفي نفس الاتجاه ، يمكننا أن نتبين ما هو جديدٌ حقاً في قائمة الدول السبع التي تعتبرها الولايات المتحدة أهدافاً محتملة لأسلحتها النووية (ليس العراق ، وإيران ، وكوريا الشمالية فحسب ، بل الصين وروسيا أيضاً): والاشكالي هنا ليس القائمة في حد ذاتها ، بل المبدأ الكامن فيها - وهو تحديداً ، التخلي عن القاعدة الذهبية للمواجهة في الحرب الباردة ، والتي طبقاً لها أعلنت كل من القوتين العظميين جهاراً أنها لن تكون البادئة باستخدام الأسلحة النووية تحت أي ظروف : ظل استخدام الأسلحة النووية هو تهديد الجنون * (MADness (Mutually Assured Destruction) [التدمير المتبادل المؤكد] الذي ضمن ، بشكل متناقض ، ألا ينفجر أي نزاع متجاوزاً حدوداً معينة . والآن تنصّلت الولايات المتحدة من هذا التعهد وأعلنت أنها مستعدة لأن تكون البادئة باستخدام الأسلحة النووية كجزء من الحرب ضد الإرهاب ، وبذلك ألغت الفجوة بين الحرب العادية والحرب النووية ، أي أنها أدخلت استخدام الأسلحة النووية كجزء من الحرب "العادية". وأكاد أميل إلى صياغة الأمر في مصطلحات فلسفية كانطية : في الحرب الباردة ، كان وضع الأسلحة النووية "متعالياً" ، وحتى إسمياً noumenal (لم يكن لها أن تستخدم في أي حرب فعلية ؛ بل انها ، بالأحرى ، رسمت حداً للدمار الشامل يجب تجنبه في أي حرب "إمبيريقية") ؛ بينما الآن ، مع مبدأ بوش ، تم اختزال استخدام الأسلحة النووية الى مجرد عنصر إمبيريقى ("مرضى") آخر من عناصر الحرب .

جانب آخر من نفس التحول : في فبراير عام 2002 ، تم الإعلان عن خطة - سرعان ما وضعت على الرف - لتأسيس "مكتب للتأثير الاستراتيجي" كان بين قائمة مهامه نشر الأكاذيب في وسائل الإعلام الأجنبية لتحسين صورة الولايات المتحدة في العالم . ولم تكن مشكلة هذا المكتب هي مجرد الاعتراف الصريح بالكذب ؛ بل كانت أقرب الى القول المأثور : "إذا كان ثمة ما هو أسوأ من رجل يكذب ، فإنه رجل ليس قوياً بما يكفي للدفاع عن أكاذيبه!" (ويحيل هذا الى رد فعل امرأة على عشيقها ، الذي أراد ممارسة كل أشكال الجنس باستثناء الإيلاج المباشر ، حتى يمكنه تجنب الكذب على زوجته حين يزعم لها أنه لا يقوم بالجماع مع امرأة أخرى - باختصار ، أراد أن يفعل معها فعلة كليبتون . كانت المرأة على حق تماماً في زعمها أنه في مثل هذه الظروف ، يكون الكذب الصريح - أن ينفي لزوجته وجود علاقات جنسية خارج الزواج - أكثر نزاهة بكثير من استراتيجيته المختارة للكذب تحت قناع الصدق .) لا عجب ، إذن ، أن الخطة سرعان ما وضعت على الرف : فالوكالة الحكومية التي تعلن صراحة أن هدفها ، بين أهداف أخرى ، هو نشر الأكاذيب ، تلحق الهزيمة بنفسها . وما يعنيه هذا ، بالطبع ، هو أن النشر الرسمي للأكاذيب سيتواصل : كانت فكرة الوكالة الحكومية المكرسة مباشرة للكذب ، مفرطة النزاهة ، على نحو ما - وكان يتوجب وضعها على الرف بالضبط لإتاحة النشر الكفء للأكاذيب .

الدرس الذي نتعلمه هنا - من كارل شميت Carl Schmitt - هو أن التقسيم صديق/عدو ليس أبدا مجرد تمثيل لاختلاف فعلي : فالعدو، بالتعريف - و حتى نقطة معينة ، على الأقل - **خفي** على الدوام ؛ يبدو مثل واحد منا ؛ لا يمكن التعرف عليه مباشرة - ولهذا فإن المشكلة والمهمة الكبرى للصراع السياسي هي تقديم /بناء **صورة** للعدو يمكن التعرف عليها . (يبين هذا أيضا السبب في أن اليهود هم العدو بامتياز : وليس الأمر فحسب أنهم يخفون صورتهم الحقيقية أو ملامحهم الخارجية - بل أنه لا يوجد شيء في نهاية المطاف تحت مظهرهم الخادع . اليهود يفتقرون إلى "الشكل الداخلي" الذي ينتمي إلى أية هوية قومية بعينها : إنهم لا- أمة بين الأمم ؛ جوهرهم القومي يكمن بالدقة في الافتقار إلى جوهر ، في لدونة لانهائية بلا شكل) باختصار، فإن "التعرف على العدو" هو دائما إجراء أدائي ، على نقيض المظاهر الخادعة ، يضع تحت الضوء /يبني "الوجه الحقيقي" للعدو . هنا يحيل شميت إلى مقولة **Einbildungskraft** الكانطية ، قوة الخيال المتعالية : فمن أجل التعرف على العدو ، لا يكفي إدراجه مفهوما تحت المقولات الموجودة - سلفا ؛ إذ يجب "وضع تخطيطات" للهيئة المنطقية للعدو ، وتزويدها بملامح عينية ملموسة تجعلها هدفا مناسباً للكرهية والصراع .

بعد عام 1990 ، وانهيار الدول الشيوعية التي كانت تقدم هيئة عدو الحرب الباردة ، دخلت قوة الخيال الغربية عقدا من التشوش وعدم الكفاءة ، باحثة عن "تخطيطات" مناسبة لهيئة العدو ، منزلة من زعماء كارتيلات - المخدرات إلى تتابع من أمراء الحرب فيما أطلق عليه "الدول المارقة" (صدام ، ونوريجا ، وعبيد ، وميلوسيفيتش . . .) دون أن تستقر على صورة محورية واحدة ؛ ومع 11 سبتمبر فقط استعاد هذا الخيال قوته ببناء صورة أسامة بن لادن ، الأصولي الإسلامي بامتياز ، والقاعدة ، شبكته "الخفية" . وما يعنيه هذا ، فضلا عن ذلك ، هو أن ديموقراطياتنا التعددية والليبرالية المتسامحة تظل "شميتية" على نحو عميق : فهي تواصل الاعتماد على الـ **Einbildungskraft** السياسية لتزويدها بالهيئة المناسبة التي تكشف العدو الخفي . وبعيدا عن تعليق المنطق "الثنائي" صديق/عدو، فإن حقيقة أن هذا العدو يتم تعريفه على أنه الخصم الأصولي للتسامح التعددي يضيف إليه انعطافة انعكاسية . وبالطبع ، فإن ثمن "إعادة التطبيع" هذه هو أن هيئة العدو تخضع لتحول جوهري : فلم تعد امبراطورية الشر ، أي ، كيانا إقليميا آخر (دولة أو مجموعة دول) ، بل شبكة عالمية غير مشروعة ، سرية - تكاد تكون افتراضية - يتطابق فيها انعدام القانون (الإجرام) مع التعصب الأخلاقي - الديني "الأصولي" - وحيث أن هذا الكيان ليس له وضع قانوني إيجابي ، فإن هذا التشكل الجديد ينتج عنه نهاية القانون الدولي الذي نظم - منذ مستهل الحداثة على الأقل - العلاقات بين الدول .

حين يقوم العدو بدور "نقطة تنجيد /تثبيت quilting point" لفضاءنا الإيديولوجي (نقطة التنجيد/التثبيت * point de capiton اللاكانية) ، فذلك لتوحيد حشد الخصوم السياسيين الفعليين الذين تتفاعل معهم في صراعاتنا . هكذا بنت الستالينية في أعوام ثلاثينات القرن العشرين توسط agency رأس المال الاحتكاري الإمبريالي لتبرهن أن الفاشيين والاشتراكيين الديموقراطيين ("الاشتراكيين الفاشيين") هما "توأمان" ، "أنهما" اليد اليسرى واليمنى لرأس المال الاحتكاري . وهكذا بنت النازية ذاتها "المؤامرة البلوتوقراطية - البلشفية" بوصفها الوسيط المشترك الذي يتهدد رفاة الأمة الألمانية . **التثبيت/التنجيد Capitonage** هو هذه العملية التي بواسطتها نحدد /نبني توسطاً وحيداً يقوم بفعالية بـ "جذب الخيوط" خلف حشد الخصوم الفعليين . ألا يصدق نفس الشيء بالضبط على "الحرب على الإرهاب" اليوم ؟ أليست هيئة figure العدو الإرهابي هي أيضا تكتيفٌ لهيئتين متعارضتين ، "الأصولي" الرجعي والمحتج اليساري ؟ إن عنوان مقال بروس باركوت Bruce Barcott في مجلة **نيويورك تايمز** ماجازين يوم الأحد، 7 أبريل 2002 - "لون الإرهاب المحلي أخضر" - يقول كل شيء : ليس الأصوليون اليمينيون المسؤولون عن تفجير أو كلاهما وعن فزع الحمى القرمزية/ حمى الأنثراكس، على الأرجح ، بل الخضر الذين لم يقتلوا أي كائن بشري .

الملمح المشئوم حقا و الذي يكمن تحت كل هذه الظواهر هو هذا التعميم الاستعاري للدال "إرهاب" : كانت رسالة حملة التلفزيون الأمريكي ضد المخدرات في ربيع 2002 تقول : "حين تشتري المخدرات ، فإنك تقدم النقود للإرهابيين !" – على هذا النحو يتم رفع "الإرهاب" تدريجيا الى مرتبة المعادل الكلي الخفي لكل الشرور الاجتماعية .

الهوامش :

Chesterton , *Orthodoxy* ,pp. 146- 7 (35)

Doug Richmond , *How to Disappear Completely and Never be* أنظر (36)

Found ,Secausus: A Citadel Press Book 1999.(كيف تختفي نهائيا ولا يُعثر عليك أبدا).

وينتمي هذا الكتاب الى سلسلة من مراجع "كيف تفعل كذا" ، التي تشكل فعليا قرينا بذيئنا منعشا للمراجع "الرسمية" مثل مراجع ديل كارنيجي Dale Carnegie : وهي كتب تخاطب مباشرة رغباتنا غير المقبولة

علنا - والعناوين الأخرى في السلسلة هي؛ *Cheaters Always Prosper*

Advanced Backstabbing and Mudslinging Techniques ; Revenge Tactics ;

Spying on Your Spouse , (المخادعون يزدهرون دوما)؛ (التقنيات المتقدمة للطعن في الظهر

وتلطيف السمعة) ؛ (تكتيكات الانتقام) ؛ (التجسس على زوجك/زوجتك) ؛ وهلم جرا .

Brian A. Victoria , *Zen at War* , New York : Weatherhilt 1998 , p. 10 (37)نقلا عن

(38) أدین بهذه النقطة لآلان باديو(مداخلة في سيمبوزيوم بولس والحداثة، *Paul and Modernity* ,

UCLA, 14- 16 April 2002)

Chesterton ,*Orthodoxy* , p. 9 (39)

Christopher Hitchens ,” *We Know Best*” , Vanity Fair ,May 2001, p.34(40)

(41) ألا ينطبق نفس الشيء على إفلاس شركة إنرون Enron في يناير 2002 ، الذي يمكن تفسيره

باعتباره نوعا من التعليق التهكمي على مقولة مجتمع المخاطرة ؟ فآلاف الموظفين الذين فقدوا وظائفهم و

مدخراتهم كانوا معرضين لخطر بالتأكيد ، لكن دون أي خيار حقيقي – وبدا الخطر لهم كالقدر الأعمى.

وعلى النقيض ، فإن من كانت لديهم معلومات سرية عن المخاطر، وكذلك فرصة للتدخل في الموقف (كبار

المديرين) ، قللوا مخاطرهم الى الحد الأدنى بتحويل أسهمهم وخياراتهم الى نقود قبل الإفلاس – وهكذا ،

مرة أخرى ، بصدد المفهوم الشعبي بأن مجتمع اليوم هو مجتمع الخيارات الخطرة ، يمكننا القول بأن

البعض (مديري إنرون) يقومون بالخيارات ، بينما يقوم الآخرون (الموظفون العاديون) بالمخاطرة

(42) هنا يجب أن نحلل التعارض بين النظام العالمي الجديد وبين عدوه الأصولي بمحاذاة خطوط تحليل

هيجل الشهير للتعارض بين التنوير وبين الإيمان في كتابه *فيثونولوجيا الروح* ، حيث يوضح تواطؤهما

الخفي ، وحتى تماهيهما – بمعنى ، كيف أن القطبين لا يدعمان بعضهما فحسب ، بل حتى يعيدان إنتاج بنية

بعضهما. واليوم ، يتخذ النظام العالمي الجديد وضع الكون المتسامح للاختلافات ، لتعايش الثقافات الخاصة

؛ بينما يتم تصوير العدو على أنه الطرف المتعصب/اللامتسامح الاستبعادي.

Judith Butler , *Antigone's Claim* , New York : Columbia University Press (43)

2000, p.40 .

Ibid. ,p. 81.(44)

See Giorgio Agamben , *Le temps qui reste* , Paris :Editions Payot(45)

& Rivages2000

Chesterton , *Orthodoxy* , p. 116 .(46)

Newsweek , 5 November 2001 , p. 45 . (47)

* نقاط التجديد أو التثبيت أو اللضم ، في المصطلحات اللاكانية، هي التي يكون فيها المدلول و الدال مثبتين

معا. وبذلك فإن نقطة التجديد هي النقطة في سلسلة الدلالة التي يكف عندها الدال عن حركة الدلالة التي لا

تتوقف فيما عدا ذلك، وينتج الوهم الضروري للمعنى الثابت. وثمة حد أدنى معين ضروري من هذه النقاط حتى نطلق على شخص ما أنه سوي . وحين لا تتأسس هذه النقاط أو تنهار ، تكون النتيجة هي الذهان. وقد أدخل لاكان المصطلح في سمينار 1955-1956 عن الذهان .

من الإنسان المخلوع إلى الجار

مثلاً أكد فرويد كثيراً ، فإن الملمح المحوري للأحلام التي يظهر فيها الحالم عارياً أمام زحام ، الملمح الذي يثير القلق ، هو الحقيقة الغريبة المتمثلة في أن أحداً لا يبدو أنه يعبر عرياً اهتماماً: الناس يمرون ببساطة كأن كل شيء عادي . . . ألا يشبه هذا المشهد الكابوسي للعنف العنصري اليومي الذي شهدته في برلين عام 1992 ؟ في البداية ، بدا لي ، على الجانب المقابل من الشارع ، أن ألمانياً وفيتنامياً كانا يلعبان ببساطة لعبة ودية لتأدية رقصة معقدة حول بعضهما – واستغرق مني الأمر بعض الوقت كي أدرك أنني أشهد حالة فعلية للتحرش العنصري : فأينما استدار الفيتنامي المرتبك والمفزع ، كان الألماني يسد طريقه ، و بذلك يريه أنه لا مكان له ، لا طريق أمامه هنا ، في برلين . كان سبب سوء فهمي الأولي مزدوجاً: أولاً ، حقيقة أن الألماني كان يؤدي تحرشه بطريقة غريبة مشفرة ، محترماً حدوداً معينة ، و لا يمضي إلى نهاية الشوط ليصل إلى حد مهاجمة الفيتنامي بدنياً ؛ من الناحية الأساسية ، لم يلمسه فعلياً أبداً ، كان يسد طريقه فحسب . السبب الثاني ، بالطبع ، كان حقيقة أن المارين (وقع الحادث في شارع مزدحم ، لا في ركن مظلم !) تجاهلوا الحادث ببساطة – أو بالأحرى ، **تظاهروا** بتجاهله – مديرين أبصارهم بينما يسرعون مارين كأن ما يجري ليس شيئاً خاصاً . هل الفرق بين هذا التحرش "الناعم" وبين الهجوم البدني الوحشي من جانب نازي – جديد حليق هو كل ما يتبقى من الفرق بين الحضارة والهمجية ؟ بل ألم يكن هذا التحرش "الناعم" ، أسوأ ، على نحو ما ؟ إنه بالتحديد أناح للمارة أن يتجاهلوه وأن يقبلوه كحدث عادي ، الأمر الذي لم يكن ممكناً في حالة هجوم بدني وحشي مباشر . وأميل إلى الزعم بأن تجاهلاً مماثلاً ، نوعاً من **تعليق الحكم epoche** الأخلاقي ، يتم استتفاره حين نقاد إلى معاملة الآخر باعتباره **إنساناً مخلوعاً** – كيف لنا ، إذن ، أن نخرج من هذا المأزق ؟

وقع حدث يفتح حقبة جديدة في إسرائيل في يناير وفبراير عام 2002 : هو الرفض المنظم لمئات من مجنّدي الاحتياط للخدمة في الأراضي المحتلة. هؤلاء **الرافضون refuseniks** (كما يشار إليهم) ليسوا مجرد "دعاة سلام" : ففي بياناتهم العامة ، شددوا على أنهم قاموا بواجبهم في القتال من أجل إسرائيل في الحروب ضد الدول العربية ، حيث نال بعضهم أوسمة رفيعة . و ما يدعونه ببساطة (هناك دائماً شيء بسيط في أي فعل أخلاقي) (48) هو أنهم لا يمكنهم الموافقة على القتال "كي يسيطروا على ، ويطردوا ، ويجوّعوا ، ويدلّوا، شعبا بأسره" . و تم توثيق مزاعمهم بأوصاف مفصلة لفضائع قوات الدفاع الإسرائيلية ، من قتل الأطفال إلى تدمير الممتلكات الفلسطينية . وفيما يلي تقرير جيل نيميش Gil Nemesh عن "الواقع الكابوسي في المناطق" على موقع المحتجين الإلكتروني (seruv.org.il) :

أصدقائي – الذين يجبرون رجلاً عجوزاً على جلب العار على نفسه ، ويؤذون الأطفال ، ويسبئون معاملة الناس من أجل التسلية ، ويتفخرون بذلك بعدها ، ويضحكون من هذه الوحشية الفظيعة . لست متأكداً من أنني ما زلت أود أن أدعوهم أصدقائي . إنهم يتركون أنفسهم يفقدون إنسانيتهم ، ليس بدافع الشر الخالص ، بل لأن التعامل مع الأمر بأية طريقة أخرى بالغ الصعوبة .

بهذه الطريقة أصبح واقع معين محسوسا : واقع المئات من الإذلالات اليومية المنهجية الصغيرة – والتي ليست بالغة الصغر – التي يخضع لها الفلسطينيون - كيف يتم التضيق على الفلسطينيين ، وحتى عرب إسرائيل (وهم رسميا مواطنون كاملو الأهلية لإسرائيل) ، في مخصصات المياه ، وفي صفقات الممتلكات ، وما أشبه . لكن الأهم من ذلك هي "السياسة –المتناهية الصغر" للإذلالات السيكلوجية : إذ يُعامل الفلسطينيون أساسا كأطفال أشرار يجب إعادتهم الى جادة الحياة الشريفة من خلال الانضباط والعقاب الصارمين . أنظر فقط الى سخرية الموقف الذي يتم فيه قصف قوات الأمن الفلسطينية بالقنابل ، بينما تتم ممارسة الضغط عليها في نفس الوقت لتشن الحملات ضد إرهابيي حماس . كيف يمكن أن نتوقع أن يحتفظوا بحد أدنى من النفوذ في نظر السكان الفلسطينيين إذا كانوا يهانون يوميا بمهاجمتهم ، وفضلا عن ذلك ، بتوقع أن يتحملوا هذه الهجمات ببساطة – وإذا دافعوا عن أنفسهم وردوا القتال ، يعاد نبذهم باعتبارهم إرهابيين ؟ وبحلول نهاية مارس عام 2002 ، وصل الوضع الى ذروته السخيفة : كان عرفات محصورا ومعزولا في ثلاث غرف من مقر إقامته برام الله [المقاطعة] ، وفي نفس الوقت يُطلب منه أن يوقف الإرهاب ، كأنه يتمتع بسلطة مطلقة على الفلسطينيين . . . باختصار ، ألا نجد في معاملة الاسرائيليين للسلطة الفلسطينية (يهاجمونها عسكريا ، بينما يطالبونها ، في نفس الوقت ، بأن تشن الحملات على الإرهابيين داخل صفوفها) نوعا من التناقض البراجماتي يتم فيه تخريب الرسالة الصريحة (الإيعاز بوقف الارهاب) بواسطة الرسالة الضمنية المتضمنة في نفس نمط توصيل الرسالة الصريحة ؟ أليس واضحا بصورة صارخة أن السلطة الفلسطينية توضع بذلك في وضع لا يمكن الدفاع عنه : شن حملة على شعبها ذاته بينما تتعرض لنيران الاسرائيليين؟ أليس الأمر أن الإيعاز الضمني الحقيقي هو ، بالأحرى ، الإيعاز المضاد : **إننا نوعز إليكم أن تقاومونا ، حتى يمكننا أن نسحقكم ؟** بعبارة أخرى ، ماذا لو أن الهدف الحقيقي للاقتحام الاسرائيلي الحالي للأراضي الفلسطينية ليس منع الهجمات الإرهابية المستقبلية ، لكنه في الحقيقة "حرق الجسور" ، رفع الكراهية إلى مستوى يمنع أي حل سلمي في أي مستقبل منظور ؟

وقد تم التعبير تماما عن عبثية وجهة النظر الأمريكية في تعليق تليفزيوني لنيوت جينجريتش Newt Gingrich * في أول أبريل عام 2002 : "حيث أن عرفات هو فعليا زعيم منظمة إرهابية ، فسوف يكون علينا أن نعرله ونستبدله بزعيم جديد منتخب ديموقراطيا يكون مستعدا لإبرام صفقة مع دولة إسرائيل". ليس هذا تناقضا فارغا ، بل جزء من الواقع : فحميد قرصاي في أفغانستان هو بالفعل "زعيم ديموقراطي مفروض على الشعب من الخارج". وحين يظهر قرصاي ، "الزعيم المؤقت" لأفغانستان الذي نصبه الأمريكيون في نوفمبر عام 2001 ، في وسائل إعلامنا ، فإنه دائما ما يرتدى نفس الملابس ، التي لا يمكن إلا أن تبدو كنسخة محدثة جذابة من الرداء الأفغاني التقليدي (غطاء رأس صوفي وصديريّة تحت معطف أكثر حداثة، الخ.)- وهكذا يبدو أن هيئته تجسد مهمته ، مهمة الجمع بين التحديث وبين أفضل ما في التقاليد الأفغانية القديمة . . . ولا عجب في ذلك ، حيث أن رداءه من عمل مصمم أزياء غربي راق ! وبكونه كذلك ، فإن قرصاي هو أفضل استعارة لوضع أفغانستان ذاتها اليوم . المشكلة الحقيقية ، بالطبع ، هي : ماذا لو لم تكن ثمة ببساطة أغلبية صامتة فلسطينية "ديموقراطية حقا" (بالمعنى الأمريكي للمصطلح ، بالطبع) ؟ ماذا لو تبين أن "زعيمًا جديدًا منتخبًا ديموقراطيا" سيكون حتى أشدّ عداءً لإسرائيل ، حيث أن إسرائيل تطبق منهجيا منطق المسؤولية والعقاب الجماعيين ، مدمرةً منازل كل العائلة الممتدة لمن يشتبه أنه إرهابي؟ وليست المسألة هي المعاملة التعسفية القاسية في حد ذاتها ، بل بالأحرى ، أن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة يجري اختزالهم إلى منزلة **الإنسان المخلوع** ، موضوع الإجراءات الانضباطية و/أو حتى المساعدة الإنسانية ، لكن ليسوا مواطنين كاملي الأهلية . و ما حققه **الرافضون refuseniks** هو الانتقال من **الإنسان المخلوع** إلى "الجار" : إنهم يعاملون الفلسطينيون ليس باعتبارهم "مواطنين أندادا كاملي الأهلية" بل باعتبارهم **جيرانا** بالمعنى اليهودي – المسيحي المحدد . (49) وهذا ، في الحقيقة ، هو الاختبار الأخلاقي الصعب للإسرائيليين اليوم : "أحب جارك !" تعني "أحب الفلسطيني!" (الذي هو جارهم بامتياز) ، أو لا تعني شيئا على الإطلاق .

لا يمكن للمرء أن يوفي هذا الرفض حقه من الحماس ، رغم أن وسائل الإعلام قد قللت من أهميته ، بصورة موحية : فإيماءة رسم الخط الفاصل تلك ، إيماءة رفض المشاركة ، هي فعل أخلاقي أصيل . في مثل هذه الأفعال - كما كان يمكن أن يعبر القديس بولس - لا يعود ثمة يهود أو فلسطينيون ، أعضاء كاملو الأهلية في نظام الحكم و إنسان مخلوع يجب هنا أن نكون أفلاطونيين دون خجل : فهذه الـ "لا!" تحدد اللحظة العجائية التي تظهر فيها العدالة الأبدية لحظيا في المجال الزمني للواقع الإمبيرقي . والوعي بلحظات كهذه هو أفضل ترياق للإغواء المعادي للسامية الذي عادة ما يمكن تبينه بوضوح بين نقاد السياسة الإسرائيلية . إن هشاشة المنظومة العالمية الراهنة تجد أفضل تعبير عنها في تجارب عقلية بسيطة : فلو علمنا أن تهديدا للحياة على الأرض (لنقل ، أن جرما فضائيا هائلا سيرطم بالأرض بالتأكيد خلال ثمانية أشهر) ، كم ستبدو فجأة نافهة ومثيرة للسخرية أكثر نضالاتنا الإيديولوجية - السياسية توقدا . . . وعلى الجانب الآخر (في توقع أكثر واقعية ، ربما) ، لو أن هجوما إرهابيا غير مسبوق قد تحقق (لنقل ، تدميرا نوويا لنويويورك و واشنطن ، أو تسمما للملايين بالأسلحة الكيماوية) ، كيف سيغير هذا من إدراكنا الكلي للوضع ؟ ليست الإجابة بسيطة بقدر ما تبدو . لكن ، حتى من منظور مثل هذه الكارثة الكونية ، فإن ما لن يبدو مثيرا للسخرية أو تافها هي الأفعال الأخلاقية "المستحيلة" . وبالأخص الآن (ربيع 2002) ، حين تدخل دورة العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين بشكل متزايد في دينامية ذاتية - الدفع قائمة بذاتها ، تبدو عصية حتى على التدخل الأمريكي ، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقطع هذه الدورة هو فعل عجائبي .

واجبنا اليوم هو تتبع تلك الأفعال ، تلك اللحظات الأخلاقية . والخطيئة الأسوأ هي تذويب تلك الأفعال في العمومية الزائفة القائلة بأن "لا أحد نقي" . يمكننا دائما أن نلعب هذه اللعبة ، التي تقدم للاعبيها مكسبا مزدوجا : مكسب الحفاظ على تفوقه الأخلاقي على أولئك ("المتماثلين في نهاية المطاف") المنخرطين في الصراع ، ومكسب التمكن من تجنب مهمة الالتزام الشخصي ، مهمة تحليل المنظومة والانحياز ضمنها . وفي السنوات الأخيرة ، يبدو كما لو أن الميثاق المناهض للفاشية لما بعد الحرب العالمية الثانية يتصدع ببطء : فمن المؤرخين - المراجعين إلى شعبوي اليمين الجديد ، تأخذ التابوهات في التهاوي وللمفارقة ، فإن من يدمرون هذا الميثاق يحيلون إلى نفس منطق صنع الضحايا victimization الليبرالي المعمم : بالتأكيد كان هناك ضحايا للفاشية ، لكن ماذا عن الضحايا الآخرين لعمليات الطرد التالية للحرب العالمية الثانية ؟ ماذا عن الألمان الذين تم إجلاؤهم من بيوتهم في تشيكوسلوفاكيا عام 1945 ؟ أليس لهم هم أيضا حق ما في تعويض (مالي) ؟ (50) هذا الربط الغريب بين النقود و صنع الضحايا هو أحد أشكال (وربما حتى "حقيقة") صنمية النقود اليوم : فبينما يردد الكثيرون أن الهولوكوست [المحرقة النازية لليهود] كانت الجريمة المطلقة ، يخمن الجميع حول التعويض المالي المناسب عنها . . . وأحد الجوانب المحورية لهذه المراجعة هو من ثم إضفاء الطابع النسبي على الإثم في الحرب العالمية الثانية : الحجج من قبيل "ألم يقصف الحلفاء بدورهم درسدن دون داع؟" . والمثال الأشد وقاحة مؤخرا يخص حرب ما بعد - يوغوسلافيا . ففي البوسنة في أوائل التسعينات ، لم يكن كل المؤيدين يلعبون نفس اللعبة القومية - إذ عند نقطة معينة ، على الأقل ، قامت حكومة سراييفو - بإصرارها ، ضد الطوائف العرقية الأخرى ، على أنها تدافع عن البوسنة متعددة الأعراق وعن تركة يوغوسلافيا تيتو - باتخاذ مثل ذلك الموقف الأخلاقي ضد الآخرين الذين يدافعون عن سيطرتهم العرقية . لم تكن حقيقة الوضع إذن أن : "ميلوشيفيتش ، و توجمان ، وعزت بيجوفيتش ، إنهم جميعا متماثلون على المدى البعيد" - فذلك التعميم ، الذي يُصدر حكما عاما رافضا من مسافته المأمونة ، هو ذات شكل الخيانة الأخلاقية . ومن المحزن أن نلاحظ كيف أن طارق علي يسقط بدوره في هذا الفخ ، في تحليله الثاقب فيما عدا ذلك لتدخل حلف شمال الأطلسي (الناتو) في يوغوسلافيا :

الزعم بأن الأمر كله خطأ ميلوشيفيتش هو زعم أحادي الجانب وخاطيء ، يتساهل مع أولئك السلوفينيين ، والكروات ، والسياسيين الغربيين الذين سمحوا له بالنجاح . إذ يمكن الجدل ، مثلا ، بأن الأنانية السلوفينية ، التي ألقت البوسنيين و الألبان ، وكذلك الصرب والكروات غير - القوميين ، إلى الذئاب ، هي التي كانت العامل الحاسم في إطلاق كارثة التفكك برمتها . (51)

صحيح حقا أن مسؤولية الآخرين الرئيسية عن نجاح ميلوشيفيتش تكمن في "سماحهم له بالنجاح" ، في استعدادهم لقبوله بوصفه "عنصر استقرار" ، وتحمل "تجاوزاته" على أمل إبرام صفقة معه : وصحيح أن هذا الموقف كان ظاهرا بوضوح بين السياسيين السلوفينيين ، والكروات ، والغربيين (فمثلا ، ثمة أساس بالتأكيد للتشكك في أن المسار السلس نسبيا للاستقلال السلوفيني كان ينطوي على اتفاق غير رسمي صامت بين القيادة السلوفينية وبين ميلوشيفيتش ، الذي لم يكن مشروعه لـ "صربيا الكبرى" بحاجة إلى سلوفينيا). ورغم ذلك ، يجب إضافة شيئين هنا . أولا ، تتضمن هذه الحجة ذاتها أن مسؤولية الآخرين من طبيعة مختلفة جوهريا عن مسؤولية ميلوشيفيتش نفسه : والمسألة ليست أن "الجميع كانوا مذنبين على قدم المساواة ، مشاركين في الجنون القومي" ، بل أن الآخرين مذنبون بأنهم لم يكونوا صليبين بما يكفي تجاه ميلوشيفيتش ، بعدم معارضته دون شرط وبأي ثمن . ثانيا ، أن ما تغفله هذه الحجة هو كيف أن نفس تأنيب "الأناية" يمكن تطبيقه على كل المؤدين ، بما في ذلك المسلمين ، أكبر ضحايا (المرحلة الأولى لـ) الحرب ، فحين أعلنت سلوفينيا الاستقلال ، دعمت القيادة البوسنية علنا تدخل الجيش اليوغوسلافي في سلوفينيا بدل أن تخاطر بالمواجهة في ذلك التاريخ المبكر ، وبذلك أسهمت في مصيرها المأساوي فيما بعد . وهكذا لم تكن استراتيجية المسلمين في العام الأول للنزاع خالية من الانتهازية بدورها : وكان تعليلها الخفي هو "دع السلوفينيين، والكروات ، والصرب يستنزفون بعضهم حتى الإنهاك ، بحيث أننا في أعقاب نزاعهم ، سنكسب بوسنة مستقلة دون أن ندفع ثمننا باهظا" . (ومن مفارقات الحرب اليوغوسلافية - الكرواتية أن الكولونيل عارف دوداكوفيتش ، القائد البوسني الأسطوري الذي دافع بنجاح عن إقليم بيهاتش المحاصر ضد جيش صرب البوسنة ، كان قبلها بعامين يقود وحدات الجيش اليوغوسلافي التي تحاصر مدينة زادار الساحلية الكرواتية !)

ثمة نوع من العدالة الشعرية في حقيقة أن الغرب قد تدخل أخيرا بصدد كوسوفا – ودعونا لا ننسى أن الأمر كله بدأ هناك ، مع صعود ميلوشيفيتش إلى السلطة : فقد اكتسب هذا الصعود شرعيته من الوعد بإصلاح الوضع المجحف لصربيا ضمن الاتحاد اليوغوسلافي ، خصوصا فيما يتعلق بـ "النزعة الانفصالية" الألبانية . كان الألبان هم الهدف الأول لميلوشيفيتش ؛ وبعدها ، أطلق سخطه على الجمهوريات اليوغوسلافية الأخرى (سلوفينيا ، كرواتيا ، البوسنة) ، حتى عادت بؤرة النزاع ، في النهاية ، إلى كوسوفا . ومثلما في أنشودة قدر مغلقة ، عاد السهم إلى من رماه بإطلاق شبح المشاعر العرقية . هذه هي النقطة المحورية الجديرة بالتذكر : لم تبدأ يوغوسلافيا في التفكك حين أطلق "الانفصال" السلوفيني عنان تأثير الدومينو (كرواتيا أولا ، ثم البوسنة ، ثم مقدونيا . . .) ؛ بل أن التوازن الهش الذي كانت يوغوسلافيا تعتمد عليه قد اختل إلى غير رجعة في زمن إصلاحات ميلوشيفيتش الدستورية عام 1987 ، التي جرّدت كوسوفا وفيفودينا من استقلالهما الذاتي المحدود . وبدءا من هذه اللحظة فصاعدا ، واصلت يوغوسلافيا الحياة لمجرد أنها لم تلاحظ بعد أنها ميتة بالفعل . مثل القط الشهير في فيلم الرسوم المتحركة الذي يمشى فوق هاوية ، طافيا في الهواء ، ولا يسقط إلا حين يدرك أن الأرض ليست تحت أقدامه . . . ومنذ استيلاء ميلوشيفيتش على السلطة في صربيا فصاعدا ، كانت الفرصة الفعلية الوحيدة أمام يوغوسلافيا للبقاء على قيد الحياة هي أن تعيد اختراع صيغتها : فإما يوغوسلافيا تحت سيطرة الصرب ، وإما شكل من أشكال اللامركزية الجذرية ، بدءا من الكونفيدرالية الفضاضة وانتهاء بالسيادة الكاملة لعناصرها .

إلا أن ثمة مشكلة أكثر محورية يجب أن نواجهها هنا : فالتفصيلة الغربية التي لا يمكن إلا أن تدهشنا في الاقتباس من طارق علي هي لجوؤه غير المتوقع ، في قلب تحليل سياسي ، إلى مقولة سيكولوجية : "الأناية السلوفينية" - ما الحاجة إلى هذه الإحالة الفظيعة ؟ على أي أسس يمكن للمرء الزعم بأن الصرب ، والمسلمين ، والكروات قد تصرفوا بشكل أقل "أناية" خلال مسار تفكك يوغوسلافيا ؟ الفرضية الكامنة هنا هي أن السلوفينيين حين رأوا المنزل (اليوغوسلافي) يتهاوى ، انتهزوا الفرصة "بطريقة أناية" وهربوا ، بدل – ماذا ؟ بدل أن يقدفوا أنفسهم بصورة بطولية ، هم أيضا ، للذئاب ؟ هكذا يجري لوم السلوفينيين على بدء الأمر برمته ، على إطلاق عنان عملية التفكك (بكونهم أول من يغادر يوغوسلافيا) ،

وفضلا عن ذلك ، على السماح لهم بالهروب دون عقاب مستحق ، دون أن يعانون ضررا جديا . خلف هذا الإدراك يختبئ حشد كامل من التحيزات والمعتقدات الدوجمائية اليسارية الكلاسيكية : الإيمان السري بصلاحية اشتراكية التسيير الذاتي اليوغوسلافية ، مقولة أن الأمم الصغيرة مثل سلوفينيا (أو كرواتيا) لا يمكنها في الواقع أن تعمل كديموقراطيات حديثة ، بل أنها ، إذا تُركت لرغباتها الخاصة ، ستتكس بالضرورة الى مجتمع فاشي - بدئي proto-Fascist "مغلق" (في تضاد واضح مع صربيا ، التي لا يتم التشكيك أبدا في قدرتها على أن تصبح دولة ديموقراطية حديثة) . ويمكن تبين نفس هذا التحيز القومي النزعة في تصاعد نزعة العداة - لأمريكا في غرب أوروبا مؤخرا . لا عجب أن نزعة العداة - لأمريكا هذه تبلغ أقصى قوتها في الأمم الأوروبية "الكبرى" ، خصوصا فرنسا وألمانيا : فهي جزء من مقاومتها للعلومة . عادة مانسمع الشكوى من أن الاتجاه الراهن للعلومة يهدد سيادة الدولة - الأمة ؛ إلا أننا ، هنا ، يجب أن نشترط هذه العبارة : أي دول هي الأكثر تعرضا لهذا الخطر ؟ ليست هي الدول الصغيرة ، بل القوى العالمية (السابقة) من المرتبة الثانية ، بلدان مثل المملكة المتحدة ، وألمانيا ، وفرنسا : وما تخشاه هو أنها فور أن تنغمس بالكامل في الإمبراطورية العالمية البازغة ، سيتم اختزالها الى نفس مستوى النمسا أو بلجيكا ، مثلا ، أو حتى لوكسمبورج . وبذلك فإن رفض "الأمركة" في فرنسا ، الذي يتقاسمه كثير من اليساريين والقوميين اليمينيين ، هو في نهاية المطاف رفضٌ لقبول حقيقة أن فرنسا ذاتها تفقد دورها المهيمن في أوروبا . ومن هنا يجب أن نحسب بين التأثيرات المفيدة للعلومة مساواتها في الوزن بين الدول - الأمم الأكبر والأصغر : فتحت الاستهزاء المشوب بالاحتقار لدول أوروبا الشرقية الجديدة بعد - الشيوعية ، يمكن بسهولة تبين ملامح النرجسية الجريحة لـ "الأمم العظيمة" الأوروبية .

في عام 1990 ، أعرب هابرماس أيضا عن اعتقاده بأن الجمهوريات "الانفصالية" مثل سلوفينيا أو كرواتيا لا تملك ما يكفي من الجوهر الديموقراطي للبقاء كدول حديثة ذات سيادة . ومن ثم فإنه نطق بعبارة جاهزة : ليس بالنسبة للصرب وحدهم ، بل حتى بالنسبة لغالبية القوى الغربية ، كانت صربيا تُدرَك بديها باعتبارها الكيان العرقي الوحيد الذي له ما يكفي من الجوهر لتشكيل دولته الخاصة . وبعدها ، طوال التسعينات ، تصرف حتى نقاد ميلوشيفيتش الديموقراطيون الراديكاليون الرافضون للقومية الصربية على أساس افتراض - مسبق بأن صربيا وحدها ، من بين جمهوريات يوغوسلافيا السابقة ، هي التي تُظهر إمكانية ديموقراطية : بعد الإطاحة بميلوشيفيتش ، يمكن لصربيا وحدها أن تتحول الى دولة ديموقراطية مزدهرة ، بينما الأمم الأخرى ليوغوسلافيا السابقة مفرطة "المحلية" provincial بحيث لا يمكنها الحفاظ على دولتها الديموقراطية ذاتها . أليس هذا صدى ملاحظات فريدريش إنجلز اللاذعة الشهيرة حول كيف أن أمم البلقان الصغيرة رجعية سياسيا حيث أن وجودها ذاته هو رد فعل ، بقاء من الماضي ؟ هنا نصادف حالة طريفة من "العنصرية الانعكاسية" : من العنصرية التي تتخذ نفس شكل صرف النظر عن الآخر باعتباره عنصريا ، وغير متسامح ، وما إلى ذلك .

لا عجب ، إذن ، أنه في يناير عام 2002 ، في مؤتمر الحزب الشعبي ، حزب يمين الوسط الاسباني الحاكم ، قام رئيس الوزراء ، خوسيه ماريّا أثنار ، بامتداح مفهوم يورجن هابرماس عن "وطنية - الدستور [Verfassungspatriotismus]" ، الارتباط الوطني ليس بجذور المرء العرقية ، بل بالدستور الديموقراطي للدولة ، الذي يسري على كل المواطنين بالتساوي . ورفع أثنار هذا المفهوم الى مرتبة النموذج بالنسبة لاسبانيا ، بمتاعبها الانفصالية - ومضى الى حد أن يقترح ، ربما بصورة تهكمية ، ضرورة أن يعلن الحزب الشعبي هابرماس فيلسوفا رسميا للدولة الاسبانية . . وبدلا من صرف النظر عن هذه الإشارة الى آخر الشخصيات الكبرى لمدرسة فرنكفورت باعتبارها سوء فهم مثير للسخرية ، يجب علينا ، بالأحرى ، أن نحدد ذرة الحقيقة فيها : ولا عجب أن "الانفصاليين" الباسك ردوا بارتباب ، وحتى وصفوا هابرماس بأنه "قومي ألماني" - لقد أدركوا النقطة اللينينية القديمة القائلة بأنه ، في حالة توتر عرقي ، فإن الموقف "المحايد" ظاهريا للامبالاة تجاه الهوية العرقية ، لاختزال كل أعضاء دولة ما الى مواطنين مجردين فحسب ، يحدّد أكبر جماعة عرقية في الحقيقة .

في يوغوسلافيا أواخر الثمانينات ، خلال السجال المحتدم بشأن مستقبلها ، دافع المثقفون الصرب (بالضبط أولئك الذين اختاروا جانب ميلوشيفيتش فيما بعد) هم أيضا عن مبدأ "المواطنة" المجردة - المحايدة - ربما ، إذن ، كان ثمة ما هو أكثر من سمة شخصية مميزة مثيرة للسخرية في حقيقة - تُعدّ إخراجا ضخما لأتباع هابرماس الغربيين - وتتمثل في أن غالبية جماعة الممارسة (براكسيس) للفلاسفة الماركسيين من صربيا ، الوثيقي الصلة بتقاليد مدرسة فرنكفورت ، انتهى بهم الأمر كقوميين صرب - وبعضهم (مثل ميهايلو ماركوفيتش Mihajlo Markovic) حتى كمؤيدين مباشرين ومنظرين لميلوشيفيتش . وفي أواخر الثمانينات ، نشر زوران جينجيتش Zoran Djindjic ، رئيس وزراء صربيا الآن ، كتابا دافع فيه عن دور توحيد قوي لصربيا في يوغوسلافيا ، وجعل عنوانه **يوغوسلافيا بوصفها مشروعا غير مكتمل** - في إشارة واضحة الى مفهوم هابرماس للحدثة بوصفها مشروعا غير مكتمل . وبمواجهة أتباع مدرسة فرنكفورت بهذه الحقائق ، ينكرونها باعتبارها لغزا لا يُصدّق ، باعتبارها بداية الجنون ؛ لكن ، دعونا نتخيل أن أتباع جاك لاكان قد انتهجوا نفس الطريق - من السهل تخيل التحليلات الشريرة عن كيف أن مثل هذا الارتباط هو نتيجة ضرورية للنظرية اللاكانية ، على طريقة من يعزّون المسؤولية عن إنكار الهولوكوست الى "التفكيكية".

ألم يضيّع الشيوعيون غير- القوميين ، إذن ، في يوغوسلافيا الثمانينات ، فرصة ذهبية حقا للتوحد ضد ميلوشيفيتش على البرنامج الاشتراكي الديمقراطي لإنقاذ تيتو ؟ يمكن الجدل بأن هذا هو أخبث وهم يساري - مزعوم . كانت هناك بالفعل محاولة عام 1989 ، في اجتماع للمكتب السياسي لعصبة الشيوعيين اليوغوسلافية مكرس لذكرى تيتو ، لتشكيل جهة مشتركة للدفاع عن تركة تيتو ضد هجوم نزعة ميلوشيفيتش القومية ، وكان هذا واحدا من أشد المشاهد حزنا وإثارة للسخرية على الإطلاق . أراد الشيوعيون "الديمقراطيون" (الكرواتي إيفيكا راتشان Ivica Racan ، الذي ألقى كلمة الافتتاح؛ والسلوفيني ميلان كوتشان Milan Kucan ، وغيرهما) أن يوضحوا ما كان حقيقيا بداهة ، ما كان نوعا من *verite de la Palice* * البداهة المبتذلة ، بالتحديد ، أن النزعة القومية الصربية التي يساندها ميلوشيفيتش تدمر نفس أسس يوغوسلافيا تيتو . وكانت مشكلة هذه الاستراتيجية أنها أخفقت بصورة بائسة في إصابة هدفها ، لأن "المدافعين الديمقراطيين عن تيتو" وضعوا أنفسهم في ركن بتبنيهم موقفا يُبطل ذاته بصورة سخيفة ولا يمكن التمسك به : فكي يدافعوا عن الإمكانيات الديمقراطية ضد التهديد القومي ، كان عليهم التظاهر بأنهم يتحدثون لصالح نفس الإيديولوجيا التي تحدت الحركة الديمقراطية في يوغوسلافيا ضدها . وبهذه الطريقة جعلوا من السهل جدا على ميلوشيفيتش أن يوصل رسالته : "ما زالت تتلبسكم أشباح إيديولوجيا فقدت قوتها ، بينما أنا السياسي الوحيد الذي يأخذ على عاتقه عواقب الحقيقة - التي تتكرونها - وهي أن تيتو قد مات !"

هكذا كان نفس الولاء السطحي لتركه تيتو هو الذي شل حركة غالبية عصبة الشيوعيين اليوغوسلافية ، تاركا المبادرة السياسية لميلوشيفيتش : كانت حقيقة المشهد الحزين لأواخر الثمانينات أن ميلوشيفيتش يضع القواعد ويحدد الآليات السياسية ، كان يقوم بالفعل ، بينما كانت الفصائل الأخرى في عصبة الشيوعيين تقوم بمجرد رد الفعل . كانت الطريقة الوحيدة لمواجهة ميلوشيفيتش بفعالية ، بدلا من التشبث بالاشباح العتيقة ، هي المخاطرة بالقيام بخطوة أبعد مما فعل : إخضاع تركة تيتو ذاتها للنقد الجذري علنا . أو ، إذا وضعنا الأمر في صيغة محزنة أكثر : لم يكن ميلوشيفيتش هو وحده من خان تركة تيتو ؛ فعلى مستوى أعمق ، كان نفس مناهضي ميلوشيفيتش المدافعين عن التيتوية ، ممثلي المناصب الحزبية المحلية القلقين على امتيازاتهم ، يتشبثون فعلا بمجرد جثة التيتوية المكتسبة للطابع الطقسي - وكان ثمة شيء مبرر في الطريقة التي قلبت بها حركة ميلوشيفيتش الشعبية المناصب الحزبية في فويفودينا و مونتينيغرو (ما سمى باسم "ثورات الزبادي"). وكان المدافع الحقيقي الوحيد عما يستحق الإنقاذ حقا في تركة تيتو هو حكومة سراييفو للبوسنة المستقلة في أوائل التسعينات . وهكذا فحين يتهم ميلوشيفيتش الغرب في لاهاي بازواجية المعايير ، مُدْكَر الزعماء الغربيين بأنهم قبل أقل من عقد من الزمن ، حين كانوا يعرفون بالفعل

ما يهتمونه به الآن ، كانوا يحيونه كرجل سلام ؛ وحين يهدد بإحضارهم الى منصة الشهادة ، يكون على حق تماما . هذه هي قصة ميلوشيفيتش الحقيقية : ليس لماذا تم انتقاؤه باعتباره المذنب الأكبر ، بل لماذا تمت معاملته لزمّن طويل باعتباره شريكا مقبولا – وتتضمن هذه القصة بوجه خاص بعض القوى الأوروبية الغربية مثل فرنسا والمملكة المتحدة ، بتحيزهما الواضح المؤيد للصرب . ومرة أخرى ، فإن ميلوشيفيتش على حق : فالقوى الغربية تجرى محاكمتها هي أيضا في لاهاي (رغم أن ذلك ليس بالمعنى الذي يقصده ميلوشيفيتش ، بالطبع) . كان هذا أيضا هو الجانب المناق في صيحة النداء العام في الغرب في بداية مارس عام 2002 بشأن الانتخابات المزورة في زيمبابوي : كانوا على حق على أسس مجردة ؛ لكن ، كيف يمكن لمشكلة زيمبابوي أن تحجب مشكلة دول إفريقية أخرى تكون فيها المعاناة الإنسانية بسبب الدكتاتورية السياسية أكبر بما لا يقاس – أو ، كما عبر مؤخرا مدرّس من الكونغو : "تعاستنا هي أن لدينا الذهب ، والماس ، والأخشاب الثمينة ، لكن ليس لدينا ، لسوء الحظ ، مزارعين بيضا". أعني ، أين كان الغرب حين أمر موجابي ، بعد الاستقلال مباشرة ، لواءه الخامس السيء الصيت ، بقتل أكثر من 20,000 من معارضي نظامه ؟ الإجابة هي : أنه كان بالغ الانشغال بالاحتفاء بحكمة سياسته التصالحية تجاه المزارعين البيض بحيث لا يلاحظ مثل تلك التفاصيل . . . ومن هنا فإن أفضل طريقة لتوضيح زيف "الحرب" الأمريكية "ضد الإرهاب" هي أن نعممها universalize ببساطة. ففي أعقاب أمريكا ، ادّعت بلدان أخرى نفس الحق لنفسها - إسرائيل (ضد الفلسطينيين) ، والهند (ضد باكستان) . ماذا يمكن أن نقول للهند التي تدعى لنفسها ، الآن ، بعد أن هاجم برلمانها إرهابيون تدعمهم باكستان ، نفس الحق في التدخل العسكري في باكستان ؟ وماذا عن كل الدعاوى السابقة للحكومات ضد حكومة الولايات المتحدة ، التي رفضت تسليم أناس ينطبق عليهم بلا شك تعريف "الإرهابيين" الذي تعتمد عليه الولايات المتحدة الآن ؟

ورغم ذلك ، ثمة شيء استثنائي بصدد النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني : من الواضح أننا نتعامل مع **عقدة الأعراض المرضية** symptomal knot للأزمة الشرق أوسطية ، مع واقعيتها الذي يعود المرة بعد المرة ليطارد كل المشاركين . كم من مرة بدا أن أنفاقية للسلام قد صارت قريبة المنال ، مجرد العثور على صياغة مناسبة لبعض العبارات الثانوية - عندها ينهار كل شيء من جديد ، مبينا هشاشة الالتزام الرمزي . ومصطلح "عقدة الأعراض المرضية" يمكن استخدامه حرفيا تماما هنا : أليس صحيحا أن الأدوار المعتادة ، في النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني ، معكوسة على نحو ما ، مثلما في عقدة ؟ فإسرائيل - التي تمثل رسميا الحداثة الليبرالية الغربية - تُكسب نفسها المشروعية على أساس هويتها الدينية - العرقية ؛ فيما نجد أن الفلسطينيين - الذين يجري الانتقاص من قدرهم باعتبارهم "أصوليين" قبل - حداثيين - يُكسبون مطالبهم المشروعية على أساس المواطنة العلمانية . وإذا جادلنا بأنك "لا يمكنك حقا أن تثق بالفلسطينيين : فلو سنحت لهم الفرصة ، فإنهم بالتأكيد سيدبحون الإسرائيليين ويلقون بهم بعيدا " ، نكون قد أخطأنا القصد . بالطبع يجب ألا يكون لدينا أو هام عن الفلسطينيين ؛ لأن حلم دولة علمانية موحدة يعيش فيها الإسرائيليون والفلسطينيون في سعادة جنباً إلى جنب ، هي ، في الوقت الراهن ، مجرد حلم - ليس هذا هو المقصود . المقصود هو ببساطة أن رفض مجندي الاحتياط بجيش الدفاع الإسرائيلي قد كشف جانبا من الوضع يدمر تماما التعارض البسيط للإسرائيليين الليبراليين المتحضرين الذين يحاربون المتعصبين الإسلاميين : هو ، بالضبط ، جانب اختزال أمة بكاملها الى مرتبة **الإنسان المخلوع** ، وأخضاعهم لشبكة من التعليمات المكتوبة وغير المكتوبة التي تحرمهم من استقلالهم الذاتي كأعضاء في مجتمع سياسي .

دعونا ، مرة أخرى ، نقوم بتجربة ذهنية بسيطة : لنتخيل الأمر الواقع status que في إسرائيل والضفة الغربية دون أي عنف مباشر - ماذا نجد لدينا ؟ لن نجد حالة سلمية معتادة ، بل جماعة من الناس (الفلسطينيين) خاضعين لمشاحنات إدارية و حرمان منهجيين (بشأن الفرص الاقتصادية ، والحق في إمدادات المياه ، وتراخيص بناء المنازل ، وحرية الحركة ، الخ .) . حين ألقى بنيامين نتانياهو خطابا أمام الكونجرس الأمريكي بصفته رئيس وزراء إسرائيل منذ أكثر من عقد من الزمن ، رفض بشدة أي تقسيم للقدس ، راسما توازيا غريبا - إن لم يكن بذيئا تماما - بين القدس وبين برلين ؛ وفي مناشدته المفعمّة بالعاطفة ، تساءل لماذا يجب ألا أن يكون للعشاق الاسرائيليين الشباب نفس الحق الذي يتمتع به العشاق في

المدن الكبرى في أي مكان من العالم : أي الحق في التجول وشراء شقة أينما شاءوا ، في أمان (مستخدما نفس الحق ، أثار أرييل شارون القلاقل حين اشترى شقة في قلب القدس العربية ، وزارها تحت حماية بوليسية كثيفة). وبالطبع ، ينشأ هنا السؤال البديهي : هل يكون أقل اعتيادية أن يتمكن فلسطيني من شراء شقة في أي مكان يشاء في قدس غير مقسمة ؟ هذه "الضجة الخلفية" ، هذا الاختلال الكلي الكامن ، يكذب الاعتبارات البسيطة بشأن "من الذي بدأ ذلك ، ومن الذي قام بعمل عنيف بعينه" .

كيف، إذن ، يرتبط النزاعان – "الحرب على الإرهاب" ضد القاعدة و النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني ؟ الحقيقة المحورية هي التحول الغامض تقريبا الذي حدث في ربيع عام 2002 : فجأة ، أحييت أفغانستان (وإلى حد معين ، كل ذكرى لهجمات مركز التجارة العالمي) الى الخلفية ، وتحول التركيز الى الوضع الإسرائيلي - الفلسطيني المشوش imbroglia . "اختزالان جوهريا الطابع" يفرضان نفسيهما : بالنسبة للصقور الأمريكيين والإسرائيليين ، فإن "الحرب على الإرهاب" هي المرجع الرئيسي ، وحرب إسرائيل ضد منظمة التحرير الفلسطينية هي مجرد فصل فرعي في هذا الصراع ؛ وعرفات إرهابي مثل بن لادن ("حين ضرب مفجرون انتحاريون برج مركز التجارة العالمي و البنجاجون ، هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان ، التي كانت تؤوي المهاجمين ؛ وحين يضرب مفجرون انتحاريون مدنا ، فإن لنا نفس الحق في مهاجمة الأراضي الفلسطينية التي تؤويهم !") ؛ وبالنسبة للعرب ، فإن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني هو المرجع الرئيسي ، وأحداث 11 سبتمبر تجد جذورها في نهاية المطاف في الجور الذي تمارسه إسرائيل و الولايات المتحدة ضد الفلسطينيين . هذا "الاختزال الجوهري الطابع" المزدوج يجب ربطه بـ *je sais bien , mais quand meme* [أعلم جيدا، ورغم ذلك] مزدوج : من جهة ، وكرد فعل لموجة التفجيرات الانتحارية، تبنى كثير من "الليبراليين" الإسرائيليين موقف "أنا لا أؤيد شارون ، لكن رغم ذلك . . . [في الموقف الراهن ، علينا أن نصنع شيئا ؛ إسرائيل لها الحق في الدفاع عن نفسها]" ؛ ومن جهة أخرى ، تبنى الكثير من المثقفين الغربيين المؤيدين للفلسطينيين موقف "أنا لا أؤيد قتل المدنيين الإسرائيليين دون تمييز ، لكن رغم ذلك . . . [يجب فهم التفجيرات الانتحارية على أنها أفعال يائسة لمن لا حول لهم ضد الآلة العسكرية الإسرائيلية]" .

حين تصاغ المشكلة في هذه العبارات ، لا يكون ثمة مخرج بالطبع ؛ نكون قد وقعنا في أحبولة حلقة شريرة تخذل نفسها ذاتيا الى الأبد . "الليبراليون" الإسرائيليون على صواب ؛ يجب أن نفعل شيئا – لكن ماذا ؟ لا يمكن للنزاع أن يُحلّ بشروطه ذاتها : والطريقة الوحيدة للخروج من الحلقة الشريرة هي من خلال فعل يمكن أن يغيّر نفس إحداثيات النزاع . وبالتالي، ليست المشكلة مع أرييل شارون أنه يفرط في رد الفعل ، بل أنه لا يقوم بما يكفي ، أنه لا يعالج المشكلة الحقيقية – بعيدا عن كونه جلادا عسكريا لا يرحم ، فإن شارون هو نموذج الزعيم الذي ينتهج سياسة مشوشة ذات تقلبات مضطربة . والنشاط العسكري الإسرائيلي المفرط هو في نهاية المطاف تعبير عن العجز ، عبور عاجز الى الفعل *Passage a l'acte* ، ليس له هدف واضح ، على عكس كل التبديات : والتشوش الواضح بشأن الأهداف الحقيقية للعمليات العسكرية الإسرائيلية ، الطريقة التي تخفق بها المرة بعد المرة ، وتولد النتيجة المعاكسة لتلك المقصودة (التهدة تولد المزيد من العنف) ، هو أمر بنوي .

و من هنا ربما كانت الخطوة الأولى باتجاه حل هي الإقرار بهذه الورطة : بالتعريف ، لا يمكن ان ينتصر أي من الجانبين – الاسرائيليون لا يمكنهم احتلال كامل الأراضي العربية (الأردن ، سوريا ، لبنان ، مصر . . .) ، حيث أنها كلما احتلت المزيد من الأراضي ، كلما أصبحت أكثر قابلية للأذى ؛ والعرب لا يمكنهم تدمير اسرائيل عسكريا (ليس فقط بسبب تفوقها في الأسلحة التقليدية ، بل أيضا لأن اسرائيل قوة نووية : يعود ليسرى هنا منطق الحرب الباردة القديم MAD - التدمير المؤكد المتبادل). فضلا عن ذلك - في الوقت الراهن ، على الأقل - لا يمكن التفكير في مجتمع اسرائيلي - فلسطيني مختلط : باختصار ، سيكون على العرب أن يقبلوا ليس فقط وجود دولة إسرائيل ، بل وجود دولة اسرائيل اليهودية في وسطهم ، بوصفها دخيلا خارجيا - لصيقا ex- timate . وعلى أرجح احتمال ، يفتح هذا المنظور أيضا الطريق

الى الحل الواقعي الوحيد للمأزق : " الكوسوفة [إضفاء الطابع الكوسوفي] kosovization " ، أي ، الوجود المباشر المؤقت في أراضي الضفة الغربية وغزة لقوات دولية (وقوات ناتو – لم لا ؟) ، تمنع في آن واحد "الإرهاب" الفلسطيني و "إرهاب الدولة" الإسرائيلي ، و بذلك تضمن شروط كل من الدولة الفلسطينية و السلام الاسرائيلي .**

في فلسطين اليوم ، توجد سرديتان متعارضتان دون أفق مشترك على الإطلاق ، دون "مُرْكَب" في ميّتا - سردية أوسع ؛ ومن ثم لا يمكن إيجاد الحل في أي سردية شاملة . ويعنى هذا ايضا أننا عند دراسة هذا النزاع يجب أن نتمسك بمعايير باردة ، بلا رحمة ، ونعلق الدافع لمحاولة "فهم" الوضع : لا بد أن نقاوم دون شرط إغراء "فهم" معاداة السامية العربية (حيثما نصادفها فعلا) باعتبارها رد فعل "طبيعي" على محنة الفلسطينيين المحزنة ؛ أو "فهم" الإجراءات الإسرائيلية باعتبارها رد فعل "طبيعي" على خلفية ذكرى الهولوكوست [المحرقة النازية لليهود] . كذلك يجب ألا يكون ثمة "فهم" لحقيقة أن هتلر ، في الكثير من البلدان العربية - إن لم يكن معظمها - مازال يعتبر بطلا ؛ حقيقة أن كل الأساطير التقليدية المعادية للسامية ما زالت تقترف في كتب المدارس الابتدائية - بدءاً من بروتوكولات حكماء صهيون المزيفة السيئة الصيت وحتى مزاعم أن اليهود يستخدمون دم الأطفال المسيحيين (أو العرب) لأغراض التضحية . والزمع بأن هذا العداء للسامية يفصل المقاومة ضد الرأسمالية بصورة مُزاحة لا يبررها على الإطلاق (وينطبق نفس الشيء على العداء النازي للسامية : فهو ، أيضا ، استمد طاقته من المقاومة المناهضة للرأسمالية) : هنا لا تكون الإزاحة عملية ثانوية ، بل الإيماء الأساسية للتعمية الإيديولوجية . وما ينطوي عليه هذا الزعم حقا هو فكرة أن الطريقة الوحيدة لمحاربة العداء للسامية ، على المدى البعيد ، ليست التبشير بالتسامح الليبرالي ، وما إلى ذلك ، بل التعبير عن الدافع الكامن المناهض للرأسمالية بطريقة مباشرة ، وغير مُزاحة .**

هكذا فإن النقطة المحورية هي على وجه الدقة ألا نفسر أو نحكم على الأفعال المنفردة "معا" ، ألا نموضعها ضمن "سياق أوسع" ، بل أن نقطعها من مشهدها التاريخي : الأعمال الراهنة لجيش الدفاع الإسرائيلي في الضفة الغربية لا يجب الحكم عليها "على خلفية الهولوكوست" ؛ وحقيقة أن الكثير من العرب يحتفون بهتلر ، أو أن المعابد اليهودية يجرى تدنيسها في فرنسا وفي أماكن أخرى بأوروبا ،** لا يجب الحكم عليها باعتبارها "ردود فعل غير لائقة لكنها مفهومة لما يفعله الإسرائيليون في الضفة الغربية" . إلا أن هذا لا يتضمن بأية حال ألا نكون بالغي الحساسية إزاء الطريقة التي يمكن بها لأفعال عينية مقترحة اليوم ، حتى حين تُقدم نفسها على أنها "تقدمية" ، أن تستنفر موضوعات رجعية . في أبريل عام 2002 ، في رد فعل على التدخل العسكري الإسرائيلي في أراضي الضفة الغربية الفلسطينية ، اقترحت مجموعة كبيرة من الأكاديميين في أوروبا الغربية مقاطعة المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية (لا دعوات ، لا تبادلات جامعية ، الخ .) ؛ هذا الاقتراح يجب رفضه ، حيث أن الدال "قاطعوا اليهود!" يحمل وزنا معينا في أوروبا - فما من طريقة يمكننا بها أن نمحو ، بطريقة لينينية - زائفة ، صدي المقاطعة النازية لليهود ، زاعمين أننا ، اليوم ، نتعامل مع "وضع تاريخي عيني مختلف" .**

النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني ، بأشد المعاني جذرية للكلمة ، هو نزاعٌ زائفٌ ، شركٌ ، إزاحة إيديولوجية للتناحر "الحقيقي" . نعم ، "الأصوليون" العرب هم "إسلاميون - فاشيون" - في تكرار للإيماء الفاشية النمذجية ، يريدون "رأسمالية بدون رأسمالية" (بدون إفراطها في التفكك الاجتماعي ، بدون آلياتها التي فيها "كل ما هو صلب يذوب الى هواء") . نعم ، الإسرائيليون يمثلون مبدأ التسامح الليبرالي الغربي ، بينما ، في قردهم ، يجسدون الاستثناء لهذا المبدأ (مدافعين عن دولة تقوم على أساس الهوية الدينية - العرقية - وهذا في بلد به أعلى نسبة من الملحد في العالم) . إلا أن الإحالة الإسرائيلية الى التسامح الليبرالي الغربي هي شكل تنبذٍ الإرهاب الكولونيالي الجديد لرأس المال ؛ و صيحة "اللاحرية" ("الأصولية" الرجعية) هي شكل تبدي المقاومة لهذا الإرهاب .**

حين يجري الشجب القاطع لأي احتجاج عام ضد نشاطات جيش الدفاع الإسرائيلي في الضفة الغربية باعتباره تعبيراً عن العداء للسامية ، و يوضع - ضمناً على الأقل - في نفس تصنيفة الدفاع عن الهولوكوست - بمعنى أنه ، حين يتم باستمرار استحضار شبح الهولوكوست لتحديد أي نقد للعمليات الإسرائيلية العسكرية والسياسية - لا يكفي الإصرار على الاختلاف بين العداء للسامية وبين نقد إجراءات محددة تتخذها دولة إسرائيل ؛ بل يجب أن نمضي خطوة أبعد ونزعم أن دولة إسرائيل ذاتها ، في هذه الحالة ، هي التي تدنس ذكرى ضحايا الهولوكوست : متلاعباً بهم دون رحمة ، جاعلة منهم أداة لإضفاء المشروعية على الإجراءات السياسية الراهنة . ويعنى هذا أننا يجب أن نرفض رفضاً قاطعاً نفس فكرة أي ارتباط منطقي أو سياسي بين الهولوكوست وبين التوترات الإسرائيلية - الفلسطينية الراهنة : إنهما ظاهرتان مختلفتان تماماً - الأولى جزء من التاريخ الأوروبي للمقاومة اليمينية لآليات التحديث ؛ والثانية هي أحد الفصول الأخيرة في تاريخ الاستعمار . ومن جهة أخرى ، فإن المهمة الصعبة بالنسبة للفلسطينيين هي قبول أن أعداءهم الحقيقيين ليسوا اليهود بل الأنظمة العربية التي تتلاعب بمحتهم ، بالتحديد ، لتمنع هذا التحول - أعني ، التجذر السياسي في دولها ذاتها .

في "طبعة دافوس الخاصة" من مجلة **نيوزويك Newsweek** (ديسمبر 2001 / فبراير 2002) ، نُشر جنباً إلى جنب مقالان لمؤلفين شهيرين لهما آراء متعارضة : هما مقال صمويل ب . هنتنجتون Samuel P. Huntington "عصر الحروب الإسلامية" ومقال فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama "العدو الحقيقي" . كيف ، إذن ، يتلاءم معاً - فرنسيس فوكوياما ، بفكرته الهيكلية - الزائفة عن "نهاية التاريخ" (الصيغة النهائية لأفضل نظام اجتماعي ممكن تم العثور عليها مع الديموقراطية الليبرالية الرأسمالية ؛ ولم يعد ثمة الآن أي مجال للمزيد من التقدم المفاهيمي ، بل مجرد عقبات إمبريقية يجب التغلب عليها) ؛ و صمويل هنتنجتون ، بفكرته القائلة أن "صدام الحضارات" سيكون الصراع السياسي الرئيسي في القرن الحادي والعشرين ؟ يتفق كلاهما على أن الإسلام الأصولي المكافح هو التهديد الأكبر اليوم - ومن ثم فإن آراءهما ربما لم تكن متعارضة حقاً ، ونصل إلى الحقيقة حين نقرأهما معاً : "صدام الحضارات" هو "نهاية التاريخ" . النزاعات العرقية - الدينية الزائفة - التطبيع هي شكل الصراع الذي يلائم الرأسمالية الكونية : في عصرنا ، عصر "مابعد - السياسة" ، حين يتم بشكل مضطرب استبدال السياسة بالمعنى المحدد بالإدارة الاجتماعية الخبيثة ، يكون المصدر المشروع الوحيد الباقي للنزاعات هو التوتر الثقافي (العربي ، الديني) . ومن ثم يجب إدراك صعود العنف "اللاعقلاني" اليوم باعتباره معادلاً دقيقاً لنزع تسييس مجتمعاتنا ، أي ، لاختفاء البعد السياسي بالمعنى المحدد ، لترجمته إلى مستويات مختلفة من "إدارة" الشؤون الاجتماعية : يفسرُ العنف على أساس المصالح الاجتماعية ، وما إلى ذلك ، والمتبقي غير القابل للحساب لا يمكن إلا أن يظهر على أنه "لاعقلاني" . . . والعكس الجدلي الهيكلية بالمعنى المحدد حاسمٌ هنا : فما يبدو في البداية مثل حشدٍ من "بقايا الماضي" يجب التغلب عليها تدريجياً مع نمو نظام ليبرالي متسامح تعددي الثقافات ، يتم إدراكه بغتة ، في لمحة استبصار ، على أنه نفس نمط وجود هذا النظام الليبرالي - باختصار ، يتم نزع قناع التتابع الزمني الغائي ليظهر على أنه راهنية بنيوية . (وبنفس الطريقة بالضبط ، فإن ما بدا ، في مجال "الاشتراكية الموجودة فعلاً" ، أنه "بقايا الماضي" البورجوازية - الصغيرة ، ذلك العذر الأبدي لكل إخفاقات الأنظمة الاشتراكية ، كان الناتج الكامن للنظام ذاته .

وهكذا ، حين يتحدث فوكوياما عن "فاشية - إسلامية" ، يجب أن نتفق معه - شريطة أن نستخدم مصطلح "الفاشية" بطريقة بالغة الدقة : باعتباره اسم المحاولة المستحيلة للحصول على "رأسمالية بدون رأسمالية" ، بدون إفراطات النزعة الفردية ، والتفكك الاجتماعي ، وإضفاء النسبية على القيم ، وما إلى ذلك . وهذا يعني أن الخيار أمام المسلمين ليس فقط إما النزعة الأصولية الفاشية - الإسلامية أو الصيرورة المؤلمة لـ "النزعة البروتستانتية الإسلامية" التي يمكن أن تجعل الإسلام متماشياً مع التحديث . فهناك خيار ثالث ، تمت تجربته فعلاً : الاشتراكية الإسلامية . الموقف المناسب المقبول correct سياسياً هو التشديد ، بإصرار مُميز ، على كيف أن الهجمات الإرهابية لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي ، تلك الديانة العظيمة والمتسامية - ألا يكون من الملائم بدرجة أكبر أن نقر بمقاومة الإسلام للتحديث ؟ وبدلاً من التحسر على

حقيقة أن الإسلام ، من بين كل الديانات الكبرى ، هو أكثرها مقاومة للتحديث ، يجب علينا ، بالأحرى ، أن ندرك هذه المقاومة باعتبارها فرصة مفتوحة ، باعتبارها عنصرا "غير قابل للتحديد": هذه المقاومة لا تقود بالضرورة الى "الفاشية - الإسلامية" ، إذ يمكن أيضا فصلتها الى مشروع اشتراكي . بالضبط لأن الإسلام ينطوي على "أسوأ" احتمالات الإجابة الفاشية على مأزقنا الراهن ، فإنه يمكن أن يتضح أيضا أنه موقع "أفضلها" .

ثمة ، إذن ، "مسألة عربية" ، تقريبا بنفس الطريقة التي كان ثمة بها "مسألة يهودية" : أليس التوتر العربي - اليهودي هو البرهان النهائي على "الصراع الطبقي" المتواصل في شكلٍ مُزاح ، خاضع للتعمية ، "ما بعد - سياسي" للنزاع بين "النزعة الكوزموبوليتانية" اليهودية وبين الرفض الإسلامي للتحديث ؟ بعبارة أخرى ، ماذا لو أن عودة العداء للسامية في عالم اليوم المعولم تقدم الصدق النهائي للاستبصار الماركسي القديم القائل بأن "الحل" الحقيقي الوحيد لهذه "المسألة" هو الاشتراكية ؟

الهوامش :

(48) العبارات البليغة التي تلعب دورا تاريخيا حاسما تتكون كقاعدة من ابتذالات تحصيل حاصل - من عبارة روزا لوكسمبورج "الحرية هي الحرية لأولئك الذين يفكرون بشكل مختلف" وحتى تحذير ميخائيل جورباتشوف الشهير لمن لم يكونوا على استعداد لاتباع **البيروسترويك** : "يجب ألا يصل المرء متأخرا جدا ، وإلا فسوف تعاقبه الحياة" . ومن هنا لم يكن المهم هو مضمون هذه العبارات ، بل مجرد دورها البنيوي - فلو كانت عبارة لوكسمبورج قد صدرت عن ناقد ليبرالي للثورة البلشفية ، لكانت قد اختفت من الذاكرة منذ زمن طويل .

(49) هنا يجب أن نلاحظ الاختلاف بين هذا الحب اليهودي - المسيحي للجار وبين ، مثلا ، التعاطف البوذي مع المعاناة : فهذا التعاطف لا يحيل الى "الجار" بمعنى الهوة المثيرة - للقلق لرغبة الآخر ، بل في النهاية الى المعاناة التي نتقاسمها ، نحن البشر ، مع الحيوانات (وهذا هو السبب ، طبقا لمذهب التناسخ ، في أن الإنسان يمكن أن يولد من جديد كحيوان) .

(50) ألا ينطبق نفس الشيء أيضا على الحملات المناهضة للإجهاض ؟ ألا تشارك هي أيضا في المنطق الليبرالي لصنع الضحايا الكوني ، وتوسعه ليشمل من لم يولدوا بعد ؟

Tariq Ali, 'Springtime for NATO', New Left Review 234 (March April (51)
1999), p.70 .

* Verite de La Palice : حقيقة تبلغ من البدهاة حد أن تصبح مثيرة للسخرية. منسوبة الى جاك دي شابان، ماركيز لا باليس، المولود عام 1470، والذي أصبح عام 1515 ماريشال فرنسا وتميز في كل المعارك التي خاضها.

** يعدّ جيجيك اليوم الشارح الأول والأبرع لمفاهيم جاك لاكان التي تمثل أداة بالغة الخصوبة لكشف الجانب السفلي البذيء واللاواعي للمقولات والشعارات التي تحكم عالمنا الراهن . وقد مكنته هذه الأداة ، مع الدراسة الواسعة للفلسفة والعلوم الإنسانية ، من العبور من مجال التحليل النفسي الى مجالات الاجتماع والنقد الثقافي والسياسي والفني .

ويضا عاف من القيمة التفسيرية لهذه الأداة توجهه الراديكالي في رفض المقولات من قبيل نهاية التاريخ ، وصدام الحضارات، الى حد إعلان أنه لينيني .

إلا أن المراوحة والتناقضات ، بل والمغالطات ، التي تتوالى بشأن الصراع العربي - الإسرائيلي ، تزيد من صعوبة أن نفهم ، على الضفة الأخرى من الصراع ، أسس الانحياز الصارم ، القبلي تقريبا ، والسابق على أي برهان ، الى جانب إسرائيل ، من قبل المثقفين اليساريين المعاصرين ، بينما يظل الانحياز لقضية الفلسطينيين العادلة انحيازاً "مابعد حدثاً" ، نسبياً ، مرناً ، متأرجحاً، يغفل الأسس الإيديولوجية للنزاع ويفسح المجال لنقاط تراجع حاسمة .

من هنا تكتسب الحجج المراوغة التي يسوقها جيجيك للدفاع عن إسرائيل طابع "التعمية الإيديولوجية" التي يمارسها هؤلاء المثقفون بينما يسعون الى دحضها ، بفعل الخفة في التلاعب بالمقولات والمفاهيم الخاصة بالنزاع وفق قناعات راسخة سابقة على التدليل .

يرفع جيجيك شعار المطالبة بـ "فعل" لا كاني فاصل يكسر الحلقة الشريرة ويغير إحداثيات النزاع ذاته .

ويشدّد بشكل مبدئي على أن الإجراءات الإسرائيلية لا يجب النظر إليها على خلفية الهولوكوست ، لان هذه الأخيرة أحد فصول التاريخ الأوروبي بينما ينتمي نزاع الشرق الأوسط الى سجل مناهضة الاستعمار.

لكنه يسارع بقطع الطريق أمام هذا الفعل بمطالبتنا بالتسليم بالأمر الواقع المتمثل في تفوق إسرائيل وضرورة اعتراف العرب بها ليس فقط كدولة صهيونية بل أيضا كدولة "يهودية" تمهيدا لحل واقعي للنزاع ، يتعجب طول الوقت من كونه قريب المنال لكنه لا يحدث ، ولا يعبأ بالتساؤل عن السبب.

التعاطف مع الضحايا الفلسطينيين يظل محصورا في شجب انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان ، كأنه يريد صهيونية بدون صهيونية، والتلويح للفلسطينيين بالحلم المستحيل في إقامة دولة يسرق الاحتلال أرضها وأسسها كل يوم ، بينما تجرى مطالبة الجميع بالاعتراف بحق اسرائيل في الوجود كدولة دينية عنصرية وبتفوقها الأخلاقي الساحق على كل من حولها .

يؤكد على أنه لا يجب الحكم على أعمال الجيش الإسرائيلي على خلفية الهولوكوست ، لكنه في ذات النفس يعترض على مقاطعة الجامعات البريطانية لإسرائيل على أساس أن المقاطعة ستعيد ذكرى الهولوكوست.

ولما كان العدوان الاسرائيلي قد بلغ حدا لا يمكن الدفاع عنه صراحة ، فلا بد أن العرب يتحملون نصيبا من المسؤولية عنه . ومن ثم نغرق على الفور في حشد من التناقضات . إذ جرى تصوير النزاع تارة بأنه عداء للسامية ، تتم فيه مقارنة "الأصولية الإسلامية" بالفاشية . ثم يصوّر على أنه صراع بين نزعة كوزموبوليتانية يهودية وبين أصولية إسلامية معادية للتحديث . ليتبين في النهاية أن النزاع برمته "زائف" لأنه إزاحة لصراع الأصولية الفاشية ضد نزعة تحديث إمبريالية تجسدها إسرائيل . لأنه إزاحة للمقاومة ضد الرأسمالية .

ولعدم صورة عداء العرب للسامية يردد أكاذيب مكشوفة من قبيل أن العرب يدرسون "بروتوكولات حكماء صهيون" السيئة الصيت في المدارس الابتدائية ، ويرددون أساطير تقديم اليهود لقرابين من أطفال الأغيار . ويصل الأمر الى إلصاق تهمة تدنيس المعابد اليهودية في أوروبا بالعرب ، الأمر الذي لم يثبت أن لهم دورا فيه .

وإذا لم يكن ذلك كافيا ، فإنه يستحضر الأصولية الإسلامية .

فالأصوليون الإسلاميون فاشيون مناهضون للسامية ، فيما يمثل الإسرائيليون الحداثة العلمانية ، وبينهم أعلى نسبة من الملحدين في العالم ، لكن تناقضهم أنهم يحددون هويتهم "دينيا" ، بينما يسعى الأصوليون الى الحداثة.

أم أن الإحالة الإسرائيلية الى التسامح الغربي هي شكل تبدي الإرهاب الكولونيالي الجديد لرأس المال ، وصيحة "اللاحرية" الأصولية الرجعية هي شكل تبدي المقاومة لهذا الإرهاب ؟

فاشية أصولية إسلامية ضد صهيونية يهودية عنصرية بالضرورة . لكن ماذا عن مقاومة العرب للصهيونية قبل بزوغ التطرف الإسلامي الذي تعدّ الهزائم العربية في الحروب مع اسرائيل من أهم عوامل نشأته .

لم يدخل العرب حروبهم الكبرى مع إسرائيل - 1948 / 1956 / 1967 / 1973 - تحت راية الدين ، بل بشعارات علمانية وقومية ، فيما خاضتها إسرائيل دفاعا عن حق الدولة "اليهودية" في البقاء .

فهل يشفع للدولة الصهيونية اليهودية أنها تضم أعلى نسبة من الملحدين، يستمدون مشروعيتهم من تسليمهم بالأسطورة الدينية لأرض الميعاد ؟

وهل يجب أن ننسى أن برنامج منظمة التحرير الفلسطينية كان يدعو الى إقامة دولة علمانية واحدة في فلسطين لكل سكانها من العرب واليهود .

وكيف يتصرف العرب إزاء "يهودية" إسرائيل ؟ لو رفعوا راية العلمانية فإنهم قوميون معادون للسامية ، ولو رفعوا راية الإسلام فإنهم إرهابيون فاشيون معادون للسامية . بينما يجرى إغفال أصل المشكلة في اغتصاب أرض الآخرين تحقيقا لأسطورة غيبية ، وتبريره بإضفاء صفة القومية على الهوية الدينية . ما هو محظور على الجميع هو التمييز الفريد لإسرائيل !.

لكن أليست إسرائيل رأس حربة للرأسمالية تمزق نسيج المنطقة البالغة الاستراتيجية والغنية بالموارد ؟ ألا تعد مناهضة العنصرية الإسرائيلية الشكل النوعي لمناهضة الرأسمالية في المنطقة ، لأن الرأسمالية الكونية بضمائها تفوق إسرائيل على جميع جيرانها مجتمعين ، تعمل على سدّ كل أبواب التقدم أمامهم ، لفتح الطريق أمام إسرائيل وجعلها حارسا لتخلفهم ؟

لا يمكن للخفة في التلاعب بالمفاهيم إلا أن تكشف عن تهافت انحياز يناقض القنوات المعلنة لكتابته .

ولا يسعنا سوى الأسف على أن الجيل الجديد من اليساريين المعاصرين يفتقرون الى نزاهة واتساق اليساريين الحداثيين وانحيازهم الواضح الى جانب القضايا العادلة . فلا يمكن مقارنة مراوغات جيبيك التي تبعث على السخرية بمواقف نعوم تشومسكي أو أمثاله من الحداثيين الذين كانوا ينحازون لدوافع "سردية كبرى" مثل العدالة ، والمساواة ، وحق الشعوب في تقرير المصير .

خاتمة : رائحة الحب

في ربيع 2002 ، في الولايات المتحدة ، غالبا ما كان المرء يصادف أناسا يرتدون شارة تحمل العلمين الأمريكي والإسرائيلي وكتابة تقول "متحدين نقف". هذا الدور الجديد لليهود ضمن المنظومة الإيديولوجية - السياسية الكونية الراهنة - صلتهم المتميزة بالرأسمالية الكونية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة - مثقل بأخطار مرعبة ، ويفتح الطريق أمام انفجارات عنفٍ معادٍ للسامية : حقيقة أن إسرائيل ، نتيجة سلسلة من القرارات والظروف السياسية الاستراتيجية المترابطة ، قد رُفعت إلى مرتبة الشريك المتميز للولايات المتحدة ، يمكن أن تُثبت أنها مصدرٌ للمزيد من سفك الدماء . و بالتالي ، فإن المهمة الأساسية لكل من يهمه حقا أمر الشعب اليهودي اليوم هي العمل باجتهد باتجاه فصل هذه الرابطة "الطبيعية" بين الولايات المتحدة ودولة إسرائيل . وكما رأينا ، في الجولة الأولى للانتخابات الرئاسية الفرنسية في 21 أبريل عام 2002 ، فإن جان - ماري لو بن ، الذي يعد عداؤه للسامية عنصرا ثابتا (يكفى تذكّر ملاحظته بأن الهولوكوست كان تفصيلة ثانوية في التاريخ الأوروبي) ، قد وصل إلى الجولة الثانية ، وصعد ليصبح البديل الوحيد لجاك شيراك Jacques Chirac - أي أنه هزم ليونيل جوسبان Lionel Jospin ، بحيث أن **خط التقسيم لم يعد بين اليمين واليسار ، بل بين المجال الشامل لما بعد - السياسة "المعتدلة" وإعادة التسييس اليمينية المتطرفة**. أليست هذه المحصلة المفزعة علامة مشنومة على الثمن الذي سندفعه مقابل النصر الباهظ لما بعد - السياسة ؟ بمعنى ، أن ما يجب أن نضعه في أذهاننا دوما هو أن لوبن يمثل القوة السياسية الوحيدة الجادة في فرنسا التي ، في تعارض واضح مع البلادة الخائفة لما بعد - السياسة المهيمنة ، **تصرّ على موقف إعادة تسييس جذرية**، موقف عاطفة سياسية (شاذة ، لكنها رغم ذلك "حية") بالمعنى المحدد . وإذا صغنا ذلك بتعبيرات القديس بولس ، فإن المأساة هي أن لوبن ، باستفرازه المنفّر ذاته ، يمثل الحياة ضد الموت مابعد - السياسي بوصفه أسلوب حياة آخر للبشر .

أسوأ ما يمكن عمله بصدد أحداث 11 سبتمبر هو رفعها إلى مرتبة الشر المطلق ، إلى فراغ لا يمكن تفسيره و/أو وضعه ضمن إطار دياكتيكي dialecticized . ووضعها في نفس الفئة مع المحرقة هو هرطقة : فقد تم ارتكاب المحرقة بطريقة منهجية بواسطة شبكة واسعة من رجال جهاز الدولة **apparatchiks** وأتباعهم الذين ، في تعارض مع من هاجموا برجي مركز التجارة العالمي ، يفتقرون إلى القبول الانتحاري بموتهم هم أنفسهم - وكما أوضحت حنه أرنت Hannah Arendt ، فإنهم كانوا بيروقراطيين مجهولين يؤدون عملهم ، وثمة هوة هائلة تفصل ما يفعلونه عن خبرتهم - الذاتية الفردية . "ابتدال الشر" هذا غير موجود في حالة الهجمات الإرهابية : فقد تولى المنفذون تماما مسؤولية رعب أفعالهم ؛ وهذا الرعب هو جزء من الفتنة القاتلة التي تجذبهم صوب ارتكابها . أو ، إذا صغنا الأمر بشكل مختلف قليلا : فإن النازيين أدوا عملهم لـ "حل المسألة اليهودية" باعتباره سراً بذينا مخفيا عن نظر العامة ، بينما عرض الإرهابيون علنا استعراض أفعالهم . الاختلاف الثاني هو أن المحرقة كانت جزءا من التاريخ الأوروبي ؛ كانت حدثا ليس مرتبطا مباشرة بالعلاقة بين المسلمين واليهود : ولنتذكر سراييفو ، التي كان بها أكبر جالية يهودية في يوغوسلافيا السابقة ، فضلا عن ذلك ، كانت أكثر مدينة كوزموبوليتانية يوغوسلافية ؛ كانت المركز المزدهر للسينما وموسيقى الروك - لماذا ؟ بالضبط لأنها كانت المدينة التي يسيطر عليها المسلمون ،

حيث يتم التسامح مع الوجود اليهودي والمسيحي ، في تعارض مع المدن الكبرى التي يسيطر عليها المسيحيون والتي تم تطهير اليهود والمسلمين منها منذ زمن طويل .

لماذا يجب أن تتميز كارثة مركز التجارة العالمي بأية طريقة عن المذبحة الجماعية للهوتو على يد التوتسي في رواندا عام 1994 ، على سبيل المثال ؟ أو عن القصف والتسميم بالغاز الجماعيين للأكراد في شمال العراق في أوائل التسعينات ؟ أو عن عمليات القتل الجماعي التي قامت بها القوات الإندونيسية في تيمور الشرقية ؟ أو . . . إن قائمة البلدان التي كانت فيها المعاناة الجماعية وما زالت أكبر بما لا يقاس من المعاناة في نيويورك ، لكنها لم تتل حظ أن ترفعها وسائل الإعلام إلى مرتبة الضحية المتسامية للشر المطلق ، هي قائمة طويلة ، وهنا المسألة : إذا أصررنا على استخدام هذا المصطلح ، فإنها جميعا "شرور مطلقة" . فهل نوسع حظر التفسير ، ونزعم أن أيًا من هذه الشرور لا يمكن أو لا يجب أن "يوضع ضمن إطار دياكتيكي" ؟ ألسنا كذلك ملزمين بالمضي خطوة أخرى أبعد : ماذا عن الجرائم "الفردية" الفظيعة ، من جرائم السفاح السادي جيفري دامر Jeffrey Dahmer إلى جرائم أندريا بيتس Andrea Yates ، التي أغرقت أطفالها الخمسة بدم بارد ؟ أليس ثمة شيء حقيقي / مستحيل / غير قابل للتفسير في كل هذه الأفعال ؟ أليس الأمر – كما عبر شيللينج منذ أكثر من مائتي عام – أننا نواجه في كل واحدة منها الهوة النهائية للإرادة الحرة ، حقيقة "لقد فعلتها لأنني فعلتها!" التي لا يمكن التكهن بها والتي تستعصي على أي تفسير على أساس أسباب سيكولوجية ، أو اجتماعية ، أو إيديولوجية ، إلى آخره ؟

باختصار ، أليس الأمر اليوم ، في حقبتنا ما - بعد الإيديولوجية المُدعنة التي لا تسمح بأي مطلقات إيجابية ، أن المرشح الشرعي الوحيد للمطلق هي الأفعال الشريرة بصورة جذرية ؟ هذه المكانة اللاهوتية - السلبية للهولوكوست تجد التعبير الأسمى عنها في كتاب جورجيو أجامبين *بقايا أوشفيتز Remnants of Auschwitz* ، الذي يقدم فيه نوعا من البرهان الأنطولوجي على أوشفيتز ضد المراجعين الذين ينكرون الهولوكوست . فهو يستنتج وجود الهولوكوست مباشرة من "مفهومها" (المقولات من قبيل "المسلمين" الموتى - الأحياء تبلغ من "الكثافة" حد أنها ما كانت لتنتشأ بدون حقيقة الهولوكوست) – هل هناك برهان أفضل من أن الهولوكوست ، في بعض الدراسات الثقافية الراهنة ، قد تم رفعها في الحقيقة إلى مرتبة الشيء ، المفهوم على أنه المطلق السلبي ؟ ويكشف لنا الكثير عن منظومة اليوم كون المطلق الوحيد هو مطلق الشر المتسامي/ غير القابل للتمثيل . يشير أجامبين إلى مقولات الحال الأربع (الاحتمال ، الاستحالة ، الإمكان ، الضرورة) موضعا إياها على طول محور اكتساب الذاتية - نزع الذاتية : الاحتمال (القدرة على الوجود) والإمكان (القدرة على عدم الوجود) هما حافزا operators اكتساب الذاتية ؛ بينما الاستحالة (عدم القدرة على الوجود) والضرورة (عدم القدرة على عدم الوجود) هما حافزا نزع الذاتية – وما يحدث في أوشفيتز هو النقطة التي يتهاوى عندها جانب المحور معا :

يمثل أوشفيتز النقطة التاريخية التي تنهار عندها هاتان الصيرورتان ، الخبرة الساحقة التي يجري فيها إجبار المستحيل على أن يصبح واقعا . أوشفيتز هي وجود المستحيل ، النفي الأشد جذرية للإمكان ؛ ومن ثم فهو ضرورة مطلقة . والموزلمان *Muselmann* ["الميت الحي" للمعسكر] الذي أنتجه أوشفيتز هو كارثة الذات التي تتلو عندها ، محو الذات باعتباره مكان الإمكان والإبقاء عليها بوصفه وجودا للمستحيل . (52)

هكذا يمثل أوشفيتز كارثة نوع من الماس الكهربائي [إغلاق الدائرة] الأنطولوجي : فالذاتية (انفتاح فضاء الإمكان الذي يهيم فيه الاحتمال أكثر من الفعلية actuality) تتهاوى إلى الموضوعية التي يكون فيها مستحيلا على الأشياء ألا تتبع مقتضيات الضرورة "العمياء" . ولكي ندرك هذه النقطة ، يجب أن نضع في الاعتبار وجهي aspects مصطلح "الاستحالة" : أولا ، الاستحالة بوصفها المعكوس البسيط للضرورة ("ما كان للأمر أن يحدث على خلاف ذلك") ؛ ثم ، الاستحالة بوصفها الحد الذي لا يمكن التفكير فيه للاحتمال ذاته ("لا يمكن أن يحدث حقا شيء بهذه الفظاعة ؛ لا يمكن لأحد أن يكون بكل هذا الشر") -

وفي أوشفيتز ، يتطابق الوجهان . ويمكننا حتى أن نصوغ الأمر بمصطلحات كانطية ، باعتباره الماس الكهربائي [إغلاق الدائرة] بين الإسمي و الظاهراتي : في شخص **الموزلمان** ، الميت الحي ، الذات المنزوعة الذاتية ، يظهر البعد الإسمي (للذات الحرة) في الواقع الإمبيريق ذاتة – **الموزلمان هو الشيء** الإسمي الذي يظهر مباشرة في الواقع الظاهراتي ؛ وبوصفه كذلك ، فإنه الشاهد على ما لا يمكن أن يكون المرء شاهدا عليه . و في خطوة أبعد ، يقرأ أجاميين هذا الشخص الفريد **للموزلمان** باعتباره البرهان الذي لا يُدحض على وجود أوشفيتز :

دعونا ، حقا ، نطرح أوشفيتز ، ذلك الذي ليس من الممكن أن يكون المرء شاهدا عليه ، ودعونا أيضا نطرح **الموزلمان** بوصفه الاستحالة المطلقة للشهادة . إذا صار الشاهد شاهدا على **الموزلمان** ، إذا نجح في أن يصوغ في كلامٍ استحالة الكلام – إذا تأسس **الموزلمان** بهذه الطريقة باعتباره الشاهد الكامل – فإن إنكار أوشفيتز يكون مُفندا في أساسه ذاته . في **الموزلمان** ، لا تعود استحالة الشهادة مجرد حرمان . وبدلا من ذلك ، أصبحت واقعية ؛ إنها توجد بوصفها كذلك . إذا أصبح الناجي شاهدا لا على غرف الغاز ولا على أوشفيتز بل على **الموزلمان** ، إذا تحدث فقط على أساس استحالة الحديث ، فإن شهادته لا يمكن إذن إنكارها . يكون أوشفيتز – ذلك الذي لا يمكن الشهادة عليه – مبرهنا عليه بصورة مطلقة ولا يمكن دحضها.(53)

لا يسعنا سوى الإعجاب برهافة هذا التنظير : بعيدا عن إعاقة أي برهان على أن أوشفيتز قد وجد فعلا، فإن نفس حقيقة أن من المستحيل مباشرة أن يشهد المرء على أوشفيتز تثبت وجوده . هنالك ، في هذا الانعطاف الانعكاسي ، يكمن سوء التقدير القاتل للحجة النازية الكلية الشهيرة التي أوردها بريمو ليفي Primo Levi وآخرون : "ما فعله باليهود لا يمكن تمثيله في رعبه لدرجة أنه حتى لو نجا أحد من المعسكر ، فلن يصدق من لم يكونوا هناك – وسوف يعلنون ببساطة أنه كاذب أو مختل عقليا!" وحجة أجاميين المضادة هي : حقا ، ليس من الممكن الشهادة على رعب أوشفيتز النهائي . لكن ماذا لو أن هذه الاستحالة ذاتها قد تجسدت في ناجٍ؟ لو أن هناك ، إذن ، ذاتية مثل ذاتية **الموزلمان** ، ذاتية تم توصيلها الى النقطة الحدية للانتهار الى موضوعية ، مثل هذه الذاتية المنزوعة الذاتية ما كان يمكن أن تنشأ إلا في الشروط التي هي شروط أوشفيتز ورغم ذلك ، فإن هذا الخط من التدليل ، العنيد في بساطته ذاتها ، كما هو الحال ، يظل ملتبسا بعمق : إذ يترك مهمة التحليل العيني للتفرد التاريخي للهولوكوست غير منجزة . أعني : يمكن قراءته بطريقتين متعارضتين – على أنه التعبير المفهومي لموقف حدي بعينه يجب عندها وضعه في الحسبان على أساس تحليل تاريخي عيني ؛ أو ، في نوع من الماس الكهربائي [إغلاق الدائرة] الإيديولوجي ، على أنه استبصار في البنية القلبية لظاهرة أوشفيتز يزيج ، أو يجعل زائدا عن الحاجة – أو ، ثانويا ، على الأقل – مثل هذا التحليل العيني لتفرد النازية كمشروع سياسي وللسبب في أنها ولدت الهولوكوست . في هذه القراءة الثانية ، يصبح "أوشفيتز" اسماً لشيء كان لا بد أن يحدث ، بطريقة ما ، شيء كان "احتماله الجوهرى" منقوشا في نفس مصفوفة الصيرورة السياسية الغربية – عاجلا أو آجلا ، كان لا بد لجانبى المحور أن ينهارا .

هل لأحداث 11 سبتمبر ، إذن، علاقة بالرب الغامض الذي يطلب قرايين بشرية؟ نعم – ولهذا السبب بالضبط ، ليست على نفس مستوى الإبادة النازية لليهود . هنا ، يجب أن يقتفي المرء خطى أجاميين (54) ويرفض قراءة لاكان الشهيرة للهولوكوست (الإبادة النازية لليهود) على أنها ، على وجه الدقة ، الهولوكوست بالمعنى اليهودي القديم للمصطلح ، التضحية للأرباب الغامضين ، الموجهة لإشباع مطلبهم الرهيب في المتعة *jouissance* (55) : فاليهود الذين يبادون ينتمون ، بالأحرى ، الى فئة ما أطلق عليه الرومان القدماء اسم **الإنسان المخلوع Homo sacer** - فئة أولئك الذين ، رغم كونهم بشرا ، كانوا مستبعدين من المجتمع البشري ، ولهذا يمكن للمرء أن يقتلهم دون عقاب – ولهذا السبب ذاته ، لا يمكن للمرء أن يقدمهم قربانا (لأنهم ليسوا قربانا جديرا بذلك) .(56)

لم يكن الانفجار المدوي لبرجي مركز التجارة العالمي مجرد فعل رمزي (بمعنى انه فعل هدفه أن "يوصل رسالة") : لقد كان في المقام الأول انفجارا **للمتعة jouissance** القاتلة ، فعلا شاذا لجعل المرء لنفسه أداة **لمتعة jouissance** الآخر الأكبر. نعم ، ثقافة المهاجمين هي ثقافة موت مريضة ، هي التوجه الذي يجد التحقق الأسمى لحياة المرء في الموت العنيف . والمشكلة ليست هي ما يفعله "المتطرفون المجانين" ، بل ما يفعله "الاستراتيجيون العقلانيون" من ورائهم . ثمة ، لدى مخطط إستراتيجي عسكري يخطط وينفذ عمليات قصف واسعة النطاق ، جنون أخلاقي أكبر بكثير مما لدى فرد ينسف نفسه خلال عملية مهاجمة العدو . حقا ، لم يكن الهدف النهائي للهجمات جدول أعمال خفي أو واضح ما ، بل كان – بالضبط بالمعنى الهيجلي للمصطلح – (إعادة) إدخال بُعد السلبية المطلقة الى حيواتنا اليومية : تحطيم المسار اليومي المعزول لحيواتنا ، نحن آخر البشر النيتشويين الحقيقيين . منذ زمن بعيد ، أبدى نواليس Novalis الملاحظة البسيطة القائلة بأن ما يكرهه الانسان الشرير ليس الخير – فهو يكره الشر بصورة مفردة (العالم الذي يعتبره شريرا) ، ومن ثم يحاول أن يؤذيه ويدمره بأكثر ما يمكن - وهذا هو الخطأ بشأن "الإرهابيين". ورغم أن هجمات مركز التجارة العالمي قد تبدو تدميرية ، فإنها تشترك في شيء مع فعل أنتيجون : كلاهما يقوّض "خدمة السلع" ، سيطرة مبدأ اللذة - الواقع . إلا أن الأمر "الدialeكتيكي" الذي يجب أن نفعله هنا ، ليس أن ندرج هذه الأفعال في سرديّة أوسع ما عن تقدم العقل أو الإنسانية ، مما يجعلها على نحو ما ، إن لم يفندها ، جزءا على الأقل من سرديّة متسقة شاملة أوسع ، "يلغيها" sublates في مرحلة "أعلى" من التطور (المقولة الساذجة للهيجلية) ، بل أن نجعلها تدفعنا للتساؤل حول براءتنا ذاتها ، أن نجعل نفس استثمارنا وانخراطنا (الفانتازمي الليبيدي) فيها موضوعا للبحث .

هكذا ، بدلا من البقاء عالقين بالرغبة الموهنة أمام الشر المطلق ، الرهبة التي تمنعنا من التفكير فيما يجري ، يجب أن نتذكر أن ثمة طريقتين رئيسيتين للتصرف إزاء مثل تلك الأحداث الصادمة traumatic ، التي تسبب قلقاً لا يطاق : طريقة الأنا الأعلى وطريقة الفعل . طريقة الأنا الأعلى هي بالضبط طريقة تقديم القربان للآلهة الغامضة التي يتحدث عنها لاكان : إعادة تأكيد العنف الهيجلي للقانون المتوحش البذيء من أجل سد الفراغ في القانون الرمزي المخفق . والفعل ؟ أحد أبطال المحرقة بالنسبة لي هي راقصة باليه يهودية شهيرة ، طلب منها ضباط المعسكر أن ترقص لهم ، في لفظة إذلال خاصة . وبدلا من الرفض ، فعلت ، وبينما تستحوذ على اهتمامهم ، سارعت بانتزاع المدفع الرشاش من أحد الحراس غير المنتبهين ، وقبل أن يصرعوها بالرصاص ، نجحت في قتل أكثر من دسنة من الضباط . . . ألا يقارن فعلها بفعل الركاب على رحلة الطائرة التي تحطمت في بنسلفانيا والذين ، رغم علمهم بأنهم قد يموتون ، اقتحموا كابينة القيادة وأسقطوا الطائرة ، منقذين المئات من حيوات الآخرين ؟

طبقا للأسطورة الإغريقية القديمة ، كانت أوروبا أميرة فينيقية خطفها زيوس ثم اغتصبها متكررا في هيئة ثور – ولا عجب أن اسمها يعني "التعسة" . أليست هذه صورة حقيقية لأوروبا ؟ ألم تنشأ أوروبا (كمقولة إيديولوجية) كمحصلة لاثنتين من هذه الاختطافات للؤلؤ شرقية بواسطة هجم من الغرب : أولا ، اختطف الرومان وابتذلوا الفكر الإغريقي ؛ ثم ، في العصور الوسطى المبكرة ، اختطف الغرب الهيجلي وابتذل المسيحية ؟ ثم ألا يجري اليوم شيء مماثل للمرة الثالثة ؟ أليست "الحرب على الإرهاب" هي الخاتمة البغيضة ، وضع النقاط على الحروف ، في عملية طويلة ، وتدرجية للاستعمار الأمريكي ، الإيديولوجي ، والسياسي ، والاقتصادي لأوروبا ؟ ألم يجر اختطاف أوروبا مرة أخرى من جانب الغرب – من جانب الحضارة الأمريكية ، التي تضع الآن معايير كونية ، وتعامل أوروبا ، فعليا **de facto** ، كإحدى مقاطعاتها ؟

بعد هجمات مركز التجارة العالمي ، كانت القصة الكبرى في وسائل الإعلام هي صعود **الشماتة Schadenfreude** المناهضة لأمريكا وغياب التعاطف الانساني البسيط مع المعاناة الأمريكية بين الانتليجنسيا الأوروبية . إلا أن القصة الحقيقية عكس ذلك تماما : هي الغياب الكامل لأي مبادرة سياسية أوروبية مستقلة . في أعقاب 11 سبتمبر ، انتهجت أوروبا – الدول الرئيسية في الاتحاد الأوروبي -

طريق "التسوية غير المشروطة" ، مستسلمة لضغط الولايات المتحدة . الحرب في أفغانستان ، الخطط لهجوم على العراق ، الانفجار الجديد للعنف في فلسطين : في كل مرة ، كان ثمة أصواتٌ مخنوقة للسطح في أوروبا تثير نقاطا بعينها ، ودعوات لمقاربة أكثر توازنا ؛ ورغم ذلك ، لم تكن ثمة مقاومة رسمية ، ولا فرضٌ لإدراكٍ كوني مختلف للأزمة . لم تخاطر مؤسسة رسمية أوروبية بتباعدٍ وديٍّ لكنه واضح عن الموقف الأمريكي . لا عجب ، إذن ، أن تلاشت أصوات الاحتجاج هذه – كانت **عديمة الأهمية** حرفيا ، مجرد إيماءات فارغة وظيبتها أن تمكّنا ، نحن الأوروبيين ، من أن نقول لأنفسنا : "أرايتم ، لقد احتجاجنا ، لقد قمنا بواجبنا !" ، بينما نحن ندعم في صمت الأمر الواقع **fait accompli** الذي تفرضه السياسة الأمريكية.

وبلغ هذا الإخفاق ذروته مع الغزو الإسرائيلي للضفة الغربية ، حيث يتطلب الوضع ذاته مبادرة سياسية جديدة ، هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكسر المأزق الراهن . وأكثر جوانب هذه الأزمة إحباطا هو عدم إمكانية عمل شيء ، رغم أن الجميع واعون ، من الناحية الأساسية ، بالكيفية التي يجب أن يكون عليها الحل : دولتان ، إسرائيل وفلسطين ؛ إخلاء المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية مقابل الاعتراف الكامل بإسرائيل ، وأمنها . (الجميع ، أعني ، باستثناء المتشددین الإسرائيليين ومؤيديهم الأمريكيين : في حديث إذاعي في بداية مايو عام 2002 ، دافع ديك آرني Dick Arney ، زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ الأمريكي ، عن "تطهير عرقي" شامل للضفة الغربية – يجب ببساطة إجبار الفلسطينيين على الرحيل أليس هذا بدوره جدول الأعمال الخفي للعمل العسكري الإسرائيلي مؤخرا؟) إن أوروبا في وضع مثالي للشروع في مثل هذه المبادرة – شريطة أن تستحضر القوة على التبعاد بوضوح عن الهيمنة الأمريكية . الآن مع انتهاء الحرب الباردة ، ما من عوائق خارجية جدية أمام مثل هذه الإيماءة : يجب على أوروبا ببساطة أن تمتلك الشجاعة **وتفعلها** .

ونتيجة لذلك ، فإن الكارثة الإيديولوجية - السياسية الحقيقية للحادي عشر من سبتمبر كانت كارثة أوروبا : نتيجة 11 سبتمبر هي تدعيم غير مسبوق للهيمنة الأمريكية ، بكل جوانبها . استسلمت أوروبا لنوع من الابتزاز السياسي - الإيديولوجي من جانب الولايات المتحدة الأمريكية : "موضوع الرهان الآن لم يعد الخيارات الاقتصادية أو السياسية المختلفة ، بل بقاءنا ذاته – في الحرب على الإرهاب ، أنتم إما معنا أو ضدنا" . وهنا ، عند هذه النقطة التي تدخل عندها الإحالة إلى مجرد البقاء إلى المشهد باعتبارها الإضفاء النهائي للمشروعية ، نتعامل مع الإيديولوجيا السياسية في أنقى حالاتها . باسم "الحرب على الإرهاب" تفرض علينا في صمت ، نحن الأوروبيين ، رؤية إيجابية معينة للعلاقات السياسية الكونية . وإذا كان للميراث التحرري الأوروبي أن يظل على قيد الحياة ، فلا بد أن نأخذ إخفاق 11 سبتمبر على أنه إنذار الأخير بأن الزمن يقضي ، بأن أوروبا يجب أن تتحرك بسرعة لتؤكد نفسها **كقوة إيديولوجية ، وسياسية ، واقتصادية مستقلة ذاتيا ، لها أولوياتها الخاصة** . إن أوروبا الموحدة ، وليست مقاومة العالم الثالث للإمبريالية الأمريكية ، هي المقابل counterpoint الوحيد الممكن للولايات المتحدة الأمريكية والصين باعتبارهما القوتين العظميين العالميتين . ويجب على اليسار أن يتبنى دون خجل شعار أوروبا الموحدة كثقل مضاد للعولمة المتأمركة .

وماذا عن النيويوركيين أنفسهم ؟ على مدى شهور بعد 11 سبتمبر 2001 ، كان بإمكانهم أن يشموا في قلب مانهاتن وحتى الشارع العشرين رائحة احتراق برجى مركز التجارة العالمي ، وقد بدأت الرائحة تعمل بوصفها ما كان يمكن أن يسميه لكان "سينتوم *sinthome" نيويورك ، بمثابة شفرة مركزة لارتباط الذات الليبيدي بالمدينة ، بحيث أنها سيجري افتقادها حين تختفي . مثل تلك التفاصيل هي التي تشهد على حب حقيقي للمدينة . ولا يصبح هذا الحب إشكاليا إلا حين يتحول إلى الشك في السبب الذي يجعل الآخرين لا يشاركون بالكامل في ألم أمريكا ، مثلما في الشكوى القياسية التي يوجهها الكثير من الليبراليين الأمريكيين إلى اليساريين الأوروبيين – أنهم لم يُظهروا ما يكفي من التعاطف المخلص مع ضحايا هجمات 11 سبتمبر . وبالتوازي مع ذلك ، فإن التوبيخ الأمريكي للنقد الأوروبي للسياسة الأمريكية هو أن هذه حالة

حسد وإحباط إزاء إختزال أوروبا الى مرتبة دور ثانوي ، حالة عجز أوروبا عن قبول محدوديتها وتدهورها (النسبي) ؛ لكن أليس عكس ذلك هو ما يصدق أكثر ؟ أليس رد الفعل الأمريكي الأشد محورية منذ حرب فيتنام (على الأقل) هو الدهشة إزاء السبب في كونهم غير محبوبين بسبب ما يفعلونه بالعالم ؟ إننا نحاول فقط أن نكون صالحين ، أن نساعد الآخرين ، أن نجلب السلام والرفاهية ، لكن أنظروا ما نناله في المقابل إن الاستبصار المحوري لأفلام مثل "الباحثين" لجون فورد ، و "سائق التاكسي" لمايكل سكورسيزي ما زال بالغ الدلالة هنا.

هذه الشكاوى يدعمها التوبيخ الصامت والأكثر جوهرية بأن الأوروبيين لا يشاركون في الحلم الأمريكي - والتوبيخ مبررٌ تماماً على نحو ما : لأن العالم الثالث لا يمكنه أن يولد مقاومة قوية بما يكفي لإيديولوجيا الحلم الأمريكي ؛ وأوروبا وحدها هي التي يمكنها أن تفعل ذلك ، في المنظومة الراهنة . التعارض الحقيقي اليوم ليس بين العالم الأول والعالم الثالث ، بل بين كل العالم الأول والثالث (الإمبراطورية الأمريكية الكونية ومستعمراتها) وبين العالم الثاني المتبقي (أوروبا) . وفيما يخص فرويد ، زعم أدورنو أن ما نناله في "العالم المدار" المعاصر و"نزع تساميه القمعي" لم يعد المنطق القديم لكبت الهُو ودوافعه ، بل تحالفا مباشرا شادا بين الأنا الأعلى (السلطة الاجتماعية) وبين الهُو (الدوافع العدوانية غير المشروعة) على حساب الأنا . ألا يجري شيء مماثل بنيويا اليوم على المستوى السياسي ، هو التحالف العجيب بين الرأسمالية الكونية ما بعد الحداثية وبين المجتمعات ما قبل الحداثية على حساب الحداثة بالمعنى المحدد ؟ من السهل على الإمبراطورية الأمريكية الكونية التعددية الثقافات أن تدمج التقاليد المحلية ما قبل الحداثية - أما الجسم الغريب الذي لا يمكنها فعليا أن تستوعبه فهو الحداثة الأوروبية . الجهاد وعالم - ماك وجهان لعملة واحدة ، والجهاد قد أصبح بالفعل ماك - جهاد .

كان الخبر المحوري من الصين عام 2002 هو بزوغ حركة عمالية واسعة النطاق ، تحتج ضد ظروف العمل التي هي ثمن أن تصبح الصين بسرعة ورشة التصنيع الأولى في العالم ، وضد الطريقة الوحشية التي شنت بها السلطات حملات عليها - وهو برهان جديد ، لو كنا لا نزال بحاجة إلى برهان ، على أن الصين هي اليوم الدولة الرأسمالية المثالية : الحرية لرأس المال ، بينما تقوم الدولة بـ "العمل القذر" للسيطرة على العمال . هكذا يبدو أن الصين، بوصفها القوة العظمى الصاعدة للقرن الحادي والعشرين ، تجسد نوعا جديدا من الرأسمالية التي لا ترحم : إغفال العواقب البيئية ، وإغفال حقوق العمال ، وإخضاع كل شيء للدافع الذي لا يرحم للنمو والتحول الى القوة العظمى الجديدة . والسؤال الأكبر هو : ماذا سيفعل الصينيون بشأن الثورة البيوجينية ؟ أليس رهانا مأمونا أنهم سيلقون بثقلهم في خضم التلاعب الجيني المطلق العنان بالنباتات ، والحيوانات ، والبشر ، ملتفتين على كل تحيزاتنا وحدودنا الأخلاقية "الغربية"؟ ومع الانتشار الأوسع للتكنولوجيا البيوجينية ، غير المكلفة نسبيا (كوبا بالفعل متقدمة جدا في هذا المجال) ، ألن يصدق نفس الشيء على الكثير من دول العالم الثالث ؟ (رغم أنه من الصحيح أيضا أن الصين - حتى الآن ، على الأقل - هي بشكل قاطع القوة العظمى التي تتمتع حتى الآن بأدنى مستوى من التدخلات الإمبريالية ، من محاولة توسيع نفوذها والسيطرة على جيرانها).

يمكن تبين التوتر بين أمريكا وأوروبا حتى ضمن (ما تبقى من) اليسار السياسي : فـ "الأمركة" قائمة تحت قناع مقولة أن اليسار يجب أن يدعم بالكامل ديناميات العولمة ، الحشد النازع للتوطين Deterritorializing ** للرأسمالية المتأخرة يتبين مايكل هارت Michael Hardt وتوني نيجري Negri طريقتين لمعارضة الإمبراطورية الرأسمالية الكونية : إما الدفاع "الحماي" عن العودة الى الدولة - الأمة القوية ، أو نشر الاشكال الأشد مرونة للحشود . بمحاذاة هذين الخطين، وفي تحليله لاجتماع بورتو أليجري المناهض للعولمة ، يشدد هارت على المنطق الجديد للفضاء السياسي هناك : لم يعد الأمر مجرد المنطق الثنائي القديم "نحن ضدهم" مع النداء اللينيني من أجل خط حزبي واحد ثابت ، بل تعايش حشد من التوسطات والمواقف السياسية تتشارك في نفس الأرضية ، رغم أنها غير متماشية بالنظر الى لهجاتها الإيديولوجية والبرنامجية (من المزارعين والبيئيين "المحافظين" الفلقين على مصير تقاليدهم

وتراثهم المحليين ، الى جماعات ووسطاء agents حقوق الانسان المدافعين عن مصالح المهاجرين ، والداعين الى الحراك الكوني). إن المعارضة لرأس المال الكوني اليوم هي التي يبدو فعلها أنها تقدم نوعا من الصورة - المرآوية السالبة لزعم ديلوز Deleuze بشأن المطلب التناحري الكامن للديناميات الرأسمالية (آلة قوية لنزع التوطين تولد أنماطا جديدة من إعادة التوطين) : إذ تعيد المقاومة للرأسمالية اليوم انتاج نفس التناحر ؛ والدعوات للدفاع عن الهويات الخاصة (الثقافية ، العرقية) التي تتهددها الديناميات الكونية تتعايش مع المطالب من أجل المزيد من الحراك الكوني (ضد الحواجز الجديدة التي تفرضها الرأسمالية ، والتي تخص بالدرجة الأولى حرية حركة الأفراد). هل صحيح إذن أن هذه الميول (خطوط الزوال lignes de fuite ، كما كان سيعبر ديلوز) يمكن أن تتعايش بطريقة لا-تناحرية ، كأجزاء من نفس الشبكة الكونية للمقاومة ؟ يميل المرء الى الإجابة على هذا الزعم بأن يطبق عليه مقولة لاكلو Laclau عن سلسلة التكافؤات : بالطبع يعمل منطق الحشود هذا - لأننا ما زلنا نتعامل مع مقاومة. لكن ، ماذا يحدث عندما - إذا كانت هذه هي حقا رغبة وإرادة هذه الحركات - "نستولي على السلطة" ؟ كيف ستبدو "الحشود في السلطة" ؟ كان هناك نفس المنظومة في السنوات الأخيرة للاشتراكية القائمة - فعلا المتعفنة : التعايش اللا - تناحري ، ضمن مجال المعارضة ، لحشد من الميول السياسية - الإيديولوجية ، من جماعات حقوق الإنسان الليبرالية الى الجماعات "الليبرالية" المتجهة صوب الأعمال ، والجماعات الدينية المحافظة ، والمطالب العمالية اليسارية . عملت هذه الحشود جيدا طالما كانت موحدة في المعارضة لـ"هم" ، لهيمنة الحزب ؛ وفور أن وجدت نفسها في السلطة ، انتهت اللعبة وفضلا عن ذلك ، هل الدولة اليوم تذبل حقا (مع مقدم "إلغاء الضوابط" deregulation "الليبرالي الذي طال امتداحه)؟ أليست "الحرب على الإرهاب ، على النقيض ، هي أقوى تأكيد حتى الآن على سلطة الدولة ؟ ألا نشهد الآن استنفارا غير مسبوق لكل أجهزة الدولة (القومية والإيديولوجية) ؟

أجهزة الدولة هذه تلعب دورا حاسما في الوجه العكسي للعولمة . ومؤخرا ، تم بشكل غير ملحوظ تقريبا تمرير قرار مشنوم للاتحاد الأوروبي : خطة إنشاء قوة شرطة حدود لكل أوروبا لتؤمن عزل أراضي الاتحاد وبذلك تمنع تدفق اللاجئين . هذه هي حقيقة العولمة : تشييد جدران جديدة تحمي أوروبا المزدهرة من فيضان اللاجئين . يميل المرء هنا إلى إحياء التعارض "الإنساني" الماركسي القديم بين "العلاقات بين الأشياء" وبين "العلاقات بين الأشخاص" : ففي المرور الحر الذي طال امتداحه والذي فتحته الرأسمالية الكونية ، نجد أن "الأشياء" (السلع) هي التي تمر بحرية ، بينما يخضع مرور "الأشخاص" للسيطرة باضطراد . هذه العنصرية الجديدة للعالم المتقدم أشد وحشية على نحو ما من سابقتها : فمشروعيتها الضمنية ليست طبيعية (التفوق "الطبيعي" للغرب المتقدم) كما أنها لم تعد ثقافية النزعة (نحن في الغرب أيضا نريد الحفاظ على هويتنا الثقافية)، بل إنها أنانية اقتصادية وقحة - الانقسام الأساسي هو الانقسام بين أولئك المندرجين ضمن دائرة الرفاهية الاقتصادية (النسبية) وأولئك المستبعدين منها . وما يكمن تحت هذه الإجراءات الوقائية هو الوعي البسيط بأن النموذج الحالي للرفاهية الرأسمالية المتأخرة لا يمكن تعميمه - الوعي الذي صاغه بصراحة وحشية جورج كينان George Kennan منذ أكثر من نصف قرن :

نحن [الولايات المتحدة الأمريكية] لدينا 50 بالمائة من ثروة العالم لكن 6.3 بالمائة فقط من سكانه . وفي هذا الموقف ، فإن مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة . . . هي الحفاظ على وضع التفاوت هذا . ولكي نفعل ذلك ، علينا أن نتخلص من كل نزعة عاطفية . . . لا بد أن نكف عن التفكير في حقوق الإنسان ، ورفع مستويات المعيشة ، والمقرطة . (57)

الأمر المحزن ، بصدد هذا الوعي الأساسي ، هو أن ثمة تحالفا صامتا بين رأس المال وبين (ماتبقى من) الطبقات العاملة - فالطبقات العاملة أشد حساسية تجاه حماية امتيازاتها النسبية من الشركات الكبرى . هذه ، إذن ، هي حقيقة خطاب حقوق الإنسان الشاملة : الجدار الذي يفصل بين من تعطيهم مظلة حقوق الإنسان وبين أولئك المستبعدين من غطائها الواقعي . وأي إشارة الى حقوق الإنسان الشاملة باعتبارها "مشروعا غير مكتمل" سيمتد تدريجيا الى كل البشر لا يعدو هنا أن يكون وهما إيديولوجيا - وفي

مواجهة هذا الاحتمال ، هل لنا ، في الغرب ، أي حق في إدانة المستبعبدين حين يستخدمون أية وسيلة ، بما في ذلك الإرهاب ، لمحاربة استبعبادهم ؟

هذا ، إذن ، هو الاختبار لمدى جدّيتنا في التعامل مع موضوع ديرّيدا - ليفيناس الخاص بالضيافة والانفتاح تجاه الآخر: ومرة أخرى ، يعني هذا الموضوع الضيافة تجاه المهاجرين (أو الفلسطينيين في إسرائيل) أو لا يعني شيئا. قد يبدو أن إسرائيل تقوم بمجرد رد فعل على الهجمات الإرهابية الفلسطينية ؛ إلا أن ما يجري تحت هذه الدورة من الأفعال وردود الأفعال ليس لا شيء ، ليس الأمر الواقع ، بل التوسع الإسرائيلي الصامت المستمر داخل الأراضي المحتلة - الاستيطان يتقدم طوال الوقت ، وحتى الآن ، في ربيع عام 2002 ، بعد الانفجار العنيف حين زعمت إسرائيل أن وجودها ذاته مُهدّد ، بدأت في بناء 30 مستوطنة جديدة في الضفة الغربية. وحتى تحت حكومة باراك ، التي يزعمون أنها قدمت للفلسطينيين أكبر تنازلات ممكنة ، استمر بناء المستوطنات الجديدة أسرع مما كان تحت حكومة نتانيا هو الأسبق . هذا التوسع المستمر (الذي يستهدف بوضوح خلق وضع غير قابل للانعكاس يكون فيه انسحاب إسرائيل الكامل من الضفة الغربية مستحيلا) هو الحقيقة الأساسية التي يأتي الإرهاب الفلسطيني رد فعل عليها ، إنه الدمة المستمرة الصامتة ، إنه ما يحدث ، ما يستمر في الحدوث حينما "لا يحدث شيء" ، بالنسبة لوسائل الإعلام الكبرى. (ولا يجب أن ينسى المرء أن الإرهاب - إلقاء القنابل في أماكن مدنية مزدحمة - هو سلاح قديم ضد الاستعمار ، مارسه أيضا الجزائريون وغيرهم ، بما في ذلك اليهود أنفسهم ضد الاحتلال البريطاني لفلسطين في أواخر الأربعينات.)

ولا عجب ، إذن ، أن إسرائيل ، في نوع من الصدى للوحدة الأوروبية ، قد بدأت بدورها ، في يونيو عام 2002 ، إقامة الجدار العازل حول البؤر السكنية العربية بالضفة الغربية. حين يجري وصف الإرهابيين أكثر فأكثر على أنهم عدوى فيروسية ، على أنهم هجومٌ لبكتيريا خفية ، يجب أن يتذكر المرء أن مقارنة اليهود بـ"البكتيريا" التي تهاجم الجسم السليم هي أحد الموضوعات الكلاسيكية للعداء للسامية . هل الإرهابي الأصولي الخفي هو إذن التجسيد الأخير لليهودي التائه ؟ هل تقارير اليوم عن الخطط الأصولية الإسلامية السرية لتدمير الغرب هي الطبعة الجديدة لبروتوكولات حكماء صهيون السيئة الصيت ؟ هل تشير "الحرب على الإرهاب" اليوم إلى النقطة المتناقضة التي عندها انضم اليهود الصهاينة أنفسهم إلى صفوف معاداة السامية ؟ هل هذا هو الثمن النهائي لإقامة الدولة اليهودية؟

ما يكمن تحت هذه الاستراتيجيات المشؤومة هو حقيقة أن الديمقراطية (النظام البرلماني الديمقراطي - الليبرالي القائم) لم تعد "حيّة" بالمعنى الذي يقصده القديس بولس بهذه الكلمة : والأمر المأساوي هو أن القوة السياسية الجادة الوحيدة "الحية" اليوم هي اليمين الشعبوي الجديد . وبقدر ما نلعب اللعبة الديمقراطية لترك مكان السلطة خاليا ، لقبول الفجوة بين هذا المكان وبين احتلالنا له (التي هي فجوة الإخلاء) ، ألا نكون نحن - الديمقراطيون - جميعا أقرانا لـ"فيديل كاسترو" ، أوفياء للإخلاء ؟ بعيدا عن الإدارة الاقتصادية المصابة بالأنيميا ، تتلخص وظيفة الوسط الديمقراطي - الليبرالي الأساسية في ضمان أن شيئا لن يحدث فعلا في السياسة : الديمقراطية الليبرالية هي حزب اللا-حدث . وخط الانقسام هو أكثر فأكثر "يحيا . . . لوبن ، هايدر ، برلوسكوني !" ضد "الموت لـ . . . هؤلاء أنفسهم!" - مع كون التعارض الحياة/الموت موزعا بدقة بين القطبين . أو ، إذا وضعنا الأمر في تعبيرات نيتشوية (كما فسر ها ديروز) : اليوم ، يفعل اليمين الشعبوي ، يضبط الإيقاع ، ويحدد إشكالية الصراع السياسي ، و الوسط الليبرالي مختزل إلى "قوة ردّ فعل" : يحدّد نفسه في النهاية في القيام برد الفعل على مبادرات اليمين الشعبوي ، إما بمعارضتها جذريا من موقف يساري عاجز ، أو بترجمتها إلى اللغة الليبرالية المقبولة ("بينما نرفض الكراهية الشعبوية للمهاجرين ، فإن علينا أن نعترف بأنهم يتناولون قضايا تقلق الناس حقا ، ولذا يجب أن نهتمّ بالمشكلة ، ونتخذ إجراءات أقسى بشأن الهجرة ومناهضة الجريمة . . .").

بالطبع ، فإن مفهوم **الفعل** السياسي الراديكالي باعتباره مخرجا من هذا المأزق الديمقراطي ، لا يمكن إلا أن يثير رد الفعل المتوقع من الليبراليين . والنقد القياسي يتعلق بالطابع "المطلق" المزعوم **للفعل** كإنقطاع جذري ، مما يجعل من المستحيل أى تمييز واضح بين فعل "أخلاقي" بالمعنى المحدد وبين فضاء نازية ، على سبيل المثال : أليس أي **فعل** منغرسا دوما في سياق اجتماعي - رمزي نوعي ؟ الإجابة على هذا التأنيب واضحة : بالطبع - أي **فعل** هو دوما تدخل نوعي ضمن سياق اجتماعي - رمزي ؛ ونفس الإيماءة يمكن أن تكون **فعلا** ، أو وضعية فارغة مثيرة للسخرية ، بناء على هذا السياق (فمثلا ، الإدلاء بتصريح علني أخلاقي حين يكون الوقت متأخرا جدا يحول تدخلا شجاعا الى إيماءة بلا معنى). فيم ، إذن ، يكمن سوء الفهم ؟ ولم هذا النقد ؟ ثمة شيء آخر يزج نقاد مقولة **الفعل** اللاكائية : صحيح ، أن أي **فعل** متموقع دوما في سياق عيني - إلا أن هذا لا يعني أنه يتحدد تماما بواسطة سياقه . أي فعل ينطوي دوما على مخاطرة جذرية ، على ما أطلق عليه ديريدا ، مقتفيا خطى كيركجارد ، **جنون** القرار : إنه خطوة في الفراغ ، دون ضمان بالمحصلة النهائية - لماذا ؟ لأن أي **فعل** يغير بأثر رجعي نفس الإحداثيات التي يتدخل فيها . هذا الافتقار إلى ضمانة هو ما لا يستطيع النقاد احتمالها : إنهم يريدون **فعلا** دون مخاطرة - ليس دون مخاطر إمبيريقية ، بل دون "المخاطرة المتسامية" الأكثر جذرية بكثير ، بأن الفعل لن يخفق ببساطة فحسب ، بل سيأتي بنتيجة عكسية جذريا . باختصار ، وإذا أعدنا صياغة روبسبير Robespierre ، فإن من يعارضون "الفعل المطلق" يعارضون في الواقع الفعل بوصفه **كذلك** ، إنهم يريدون **فعلا** دون **فعل** . وما يريدونه يُناظر الانتهازيين "الديموقراطيين" الذين يريدون ، كما صاغ لينين الأمر في خريف عام 1917 ، ثورة "مشروعة ديموقراطية" ، كأنما يجب على المرء أولا تنظيم استفتاء ، وعندها فقط ، بعد الحصول على أغلبية واضحة ، يستولي على السلطة . . . هنا يمكن للمرء أن يرى كيف أن أي فعل بالمعنى المحدد لا يمكن أن ينحصر داخل حدود الديمقراطية (المفهومة على أنها نسق وضعي positive لاضفاء المشروعية على السلطة من خلال انتخابات حرة). **الفعل** يجري في حالة طواريء حين يكون على المرء أن يخاطر و يفعل دون أي مشروعية ، منخرطا في نوع من الرهان الباسكالي بأن **الفعل** ذاته سوف يخلق الشروط لاكتسابه "الديموقراطي" للمشروعية بأثر رجعي . فمثلا ، في عام 1940 ، بعد الهزيمة الفرنسية ، حين دعا ديغول de Gaulle الى مواصلة الحرب ضد الألمان ، كانت إيماءته دون "مشروعية ديموقراطية" (في تلك اللحظة ، كانت أغلبية كبيرة من الفرنسيين تؤيد المارشال بيتان دون لبس - وقد كتب جاك دوكلو Jacques Duclos ، الشيوعي الفرنسي البارز ، أنه لو جرت "انتخابات حرة" في فرنسا في خريف 1940 ، لحصل بيتان على 90 بالمائة من الأصوات على الأقل) . ولكن ، برغم هذا الافتقار إلى "المشروعية الديمقراطية" ، كانت **الحقيقة** الى جانب ديغول ، وكان يتحدث فعليا لصالح فرنسا ، لصالح الشعب الفرنسي "بوصفه كذلك" . وهذا أيضا يمكّننا من الإجابة على التأنيب الديمقراطي النهائي : الفعل المطلق (الذي يحيل إلى ذاته) محروم من أية سيطرة خارجية يمكن أن تمنع التجاوزات المفزعة - أي شيء يمكن أن يكتسب المشروعية عن طريق الإحالة إلى ذاته ؟ الإجابة واضحة : كما توضح حالة فرنسا عام 1940 (بين حالات أخرى) ، لا يمكن للديموقراطية ذاتها أن تقدم مثل هذا الضمان ؛ **ليس ثمة ضمان** ضد احتمال التجاوز - لا بد من تولي المخاطرة ، فهي جزء من نفس مجال السياسي .

وربما كان الهدف النهائي من "الحرب على الإرهاب" ، من فرض ما لا يمكن إلا أن نُسَمِّيه "حالة الطواريء الديمقراطية" ، هو تحييد شروط مثل هذا **الفعل** . وطبقا لمقولة topos ماركسية قديمة ، فإن استحضر العدو الخارجي يفيد في إزاحة البؤرة عن المصدر الحقيقي للتوترات ، التناحر الكامن للنظام - لنذكر التفسير القياسي لمعاداة السامية باعتبارها إزاحة لسبب التناحرات التي تتهدد هارمونية الجسد الاجتماعي ، إلى شخص اليهودي ، هذا الدخيل **الخارجي** على هذا الجسد . إلا أن هناك ، أيضا ، العملية الإيديولوجية المعاكسة ، الاستحضار الزائف لأسباب **داخلية** للفشل . في عام 1940 ، حين أصبح بيتان زعيم فرنسا ، فسّر الهزيمة الفرنسية على أنها نتيجة عملية طويلة من انحلال الدولة الفرنسية بسبب التأثير الليبرالي - اليهودي ؛ وهكذا ، طبقا لبيتان ، كانت الهزيمة الفرنسية **نعمة** مقنّعة ، تحطيمًا وتذكرة مؤلمة بجوانب ضعف المرء وبذلك فإنها فرصة لإعادة تأسيس القوة الفرنسية على أساس صحي . ألا نجد نفس

الموتيفة لدى العديد من النقاد المحافظين لمجتمعات اليوم الغربية الإباحية - الاستهلاكية ؟ التهديد النهائي لا يأتي من هناك ، من الآخر الأصولي ، بل من الداخل ، من نفس تراخيها و ضعفنا الأخلاقي ، من فقدان القيم الواضحة والالتزامات الراسخة ، فقدان روح التفاني والتضحية . . . ولا عجب أن جيرى فالويل وبات روبرتسون*** ، في رد فعلهما الأولي ، زعما أن الولايات المتحدة الأمريكية ، في 11 سبتمبر ، قد نالت ما تستحق . ماذا ، إذن ، لو كان نفس المنطق بالضبط يدعم "الحرب على الإرهاب" ؟ ماذا لو كان الهدف الحقيقي لهذه الحرب هو نحن أنفسنا ، هو نفس استنفارنا الإيديولوجي ضد تهديد **الفعل** ؟ ماذا لو كان "الهجوم الإرهابي" ، مهما كان "واقعيًا" و مفزعا ، هو في النهاية بديل استعاري لهذا **الفعل** ، لتحطيم إجماعنا الليبرالي - الديموقراطي ؟

الهوامش :

Giorgio Agamben , *Remnants of Auschwitz* , New York: Zone Books 1999, (52)
p. 148.

Ibid.,p. 164. (53)

Agamben, *Homo Sacer* . راجع . (54)

Jacques Lacan , *The Four Fundamental Concepts of Psycho-Analysis* ,New York : Norton 1979 ,p. 253 . (55)

(56) لماذا ، إذن ، استطاع مصطلح "الهولوكوست" ، رغم أنه تسمية خاطئة ، أن ينال هذا الذبوع بين اليهود والأغيار على السواء ؟ إنه يخفف اللبّ الصادم لإبادة اليهود بإدراكها على أنها عملية قربان (شاذة ، لكنها رغم ذلك في النهاية) ذات معنى !!!: أن تكون الموضوع الثمين الذي تجرى التضحية به أفضل من أن تكون إنساناً مخلوعاً بلا قيمة لا يساوى موته شيئاً في عام 2000 ، ثارت فضيحة كبرى في إسرائيل بسبب زعم زعيم حاخامي أرثوذكسي أن الستة ملايين يهودي الذين قتلهم النازيون لم يكونوا أبرياء : كان قتلهم عقوبة مبررة ؛ فلا بد أنهم كانوا مذنبين بخيانة الرب إن درس هذه النادرة الغربية ، مرة أخرى ، هو الصعوبة البالغة التي تعترض قبولنا بلامعنى الكارثة المطلقة.

*sinthome: هو مفهوم أدخله لاكان في سمينار 1975-1976. وهذه الصيغة هي الطريقة العتيقة لهجاء الكلمة الفرنسية symptome التي تعني العرض. والاختلاف هو أن عرض التحليل النفسي كان يُعد رسالةً مُشفرةً أو دالاً يتطلب التفسير ، بينما نجد أن هذا المفهوم ليس نداءً للآخر بل متعة خالصة ليست موجهة إلى أحد ولا تتطلب التفسير.

** deterritorialization: نزع التوطين . مصطلح استخدمه ديلوز وجواتاري في كتاب ضد - أوديب (1972) للإشارة إلى تحرير قوة العمل من وسائل إنتاج معينة قائمة فعلاً ، مثلما تم نفي الفلاحين الإنجليز من الأرض المشاع وتطويقها للرعي (1709 - 1869) . و يعنى نقض ما تم عمله ، مثلما حين هزم الغزاة الاسبان مملكة الأزتيك، وأزالوا رموز العقائد والطقوس الأزتيكية. ثم يتلوه إعادة التوطين reterritorialization ، مثلما حين أحلّ الاسبان معتقداتهم وطقوسهم محل البنيات الثقافية التقليدية. استخدم المصطلح في مجالات الانثروبولوجيا والنقد الثقافي ليعني إضعاف الروابط بين الثقافة وبين المكان أو السياقات المحلية . والمفهوم يرتبط بالعولمة نتيجة تأثير العوامل الكونية على الثقافات المحلية. *** جيرى فالويل وبات روبرتسون: من الوعاظ الإنجلييين التلفزيونيين المحافظين في الولايات المتحدة. وقد أعلنوا في أعقاب هجمات سبتمبر أن جانباً من اللوم يقع على أمريكا نفسها لانغماسها في الملذات وابتعادها عن الدين.

George Kenan in 1948 , quoted in John Pilger , *The New Rulers of the World* , London and New York : Verso 2002, p. 98 (57)

++++
=====

سلافوى جيجيك (21 مارس 1949).

- فيلسوف ومنظر نقدي سلوفيني. يمزج تقاليد الهيجلية والفلسفة المثالية الألمانية مع الماركسية والتحليل النفسي لجاك لاكان ليسهم في النقد الثقافي والنظرية السياسية والتحليل النفسي النظري ونظرية الفيلم والثقافة الشعبية.
- في 1967 التحق بجامعة ليوبليانا حيث درس الفلسفة والاجتماع ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة، ثم درس التحليل النفسي بجامعة باريس الثامنة. تتلمذ في ليوبليانا على الفيلسوف الماركسي السلوفيني بوجيدار ديبينياك، الذى أدخل مدرسة فرنكفورت الى سلوفينيا، وتأثر بقراءة ديبينياك لكتاب ماركس "رأس المال" من منظور "فينومولوجيا الروح" لهيجل.
- اختلط في بداية السبعينات بدوائر المنشقين في يوغوسلافيا وكتب في مطبوعاتهم. وفي 1979 عمل باحثاً بمعهد السوسيولوجيا بجامعة ليوبليانا. في بداية الثمانينات بدأ ينشر كتبه التي يركز فيها على تفسير الفلسفة الهيجلية والماركسية من منظور نظرية لاكان. أصبح عضوا بارزا فيما يسمى مدرسة ليوبليانا للتحليل النفسي وحرر ترجمات لأعمال لاكان، وفرويد، والتوسير الى اللغة السلوفينية، كما كتب مقدمات لترجمات تشستر تون وجون لو كاريه. في 1988 نشر أول كتاب مكرس بكامله لنظرية الفيلم.
- ظل عضوا في الحزب الشيوعي لسلوفينيا حتى انسحابه منه في أكتوبر 1988 ، مع 32 مثقفا آخرين. انخرط حتى 1990 في حركات المجتمع المدني العاملة على نشر الديموقراطية في سلوفينيا، وأبرزها لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان.
- رشح نفسه لرئاسة جمهورية سلوفينيا فى أول انتخابات حرة عام 1990 .
- نال شهرة عالمية عام 1989 مع نشر أول كتبه بالانجليزية "موضوع الإيديولوجيا المتسامي".
- له عشرات الكتب والحوارات والمقالات باللغات السلوفينية والصربو-كرواتية والانجليزية والفرنسية والألمانية. وصُنعت عنه عدة أفلام كما كتبت عنه عدة كتب.
- يعمل أستاذا زائرا في العديد من الجامعات الأوروبية والأمريكية، وأستاذا في المدرسة الأوروبية للخريجين، ومديرا لمعهد بيركبيك للعلوم الإنسانية التابع لجامعة لندن، وباحثا متميزا بمعهد السوسيولوجيا بجامعة ليوبليانا.
- مؤسس ورئيس جمعية التحليل النفسي النظري بليوبليانا.
- منذ 1997 أصبحت أعمال جيجيك تصطبغ أكثر فأكثر بالطابع السياسي الصريح، متحدياً الإجماع الواسع النطاق على أننا نحيا في عالم مابعد - إيديولوجي، ومابعد - سياسي، ومدافعة عن إمكان إدخال تغييرات جذرية وطويلة الأمد على النظام العالمي الجديد، ومتصدية لمقولات نهاية التاريخ، والحرب على الإرهاب.
- شارك خلال العشرين سنة الماضية في أكثر من 350 حلقة بحث دولية حول الفلسفة، والتحليل النفسي، والنقد الثقافي في مختلف أرجاء المعمورة.
- شهد عام 2007 انطلاق موقع "المجلة الدولية لدراسات جيجيك" على الشبكة العنكبوتية.

أحمد حسان (27 أكتوبر 1945)

- ليسانس فلسفة، جامعة عين شمس، عام 1972 .

- من ترجماته : (عن الانجليزية)
- + المكارثية والمتقفون - إعدام إريك بنتلي. (دار الفارابي)
- + صناعة الجوع . (عالم المعرفة)
- + مقدمة في نظرية الأدب - تيري إجلتون. (الثقافة الجماهيرية)
- + مدخل الى ما بعد الحداثة- مؤلفون متعددون (الثقافة الجماهيرية)
- + استعمار مصر - تيموثي ميتشل (سينا للنشر - بالمشاركة)
- + راية التمرد - سادي بلانت (المشروع القومي للترجمة)
- + بودلير - فالتر بنيامين (ميريت)
- + المقدمات التاريخية للعلم الحديث - توماس جولدشتاين (عالم المعرفة)
- + بريشت: مختارات شعرية شاملة (الجمال)
- و(عن الفرنسية):
- + مجتمع الفرجة- جي دييور (شرقيات)
- + الوضع ما بعد الحداثي - جان - فرنسوا ليوتار (شرقيات)
- + السيطرة الذكورية - بيير بورديو (كتاب العالم الثالث)
- + شارع ذو اتجاه واحد - فالتر بنيامين (أزمة وميريت)
- و(عن الاسبانية):
- + أدب أمريكا اللاتينية: جزاءن (عالم المعرفة)
- + الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية - إدواردو جاليانو (النيل - بالمشاركة)
- + سحر شنغهاي - رواية - خوان مارسيه (نشر خاص)
- + موت أرتيميو كروث - رواية - كارلوس فوينتس (المشروع القومي للترجمة)
- + حكي حكاية - قصص - أوجستو روا باسطوس (مدبولي)
- + مجموعات شعرية لكل من: نيرودا، وميجيل إرناندث، وروكي دالتون، ونيكانور بارّا .

خالد السرجاني

من مواليد محافظة بورسعيد

خريج كلية الإعلام جامعة القاهرة

صحفي بجريدة الجمهورية 1983-1987

صحفي بجريدة الأهرام من عام 1987

مدير تحرير جريدة الدستور من عام 2005 ومحرر صفحة "صحافة" بها

محرر مشارك في التقرير الاستراتيجي العربي الذي يصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام من عام 1985 وحتى عام 2008.

مؤلف مشارك في الكتب التالية :

"نكبة العراق" الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

"المؤسسة التشريعية في الوطن العربي" الصادر عن مركز البحوث السياسية بجامعة القاهرة
"صحفيون بلا حماية" الصادر عن المجموعة المتحدة

له أبحاث ودراسات منشورة في دوريات :

السياسة الدولية – المستقبل العربي – الدراسات الإعلامية – الفن السابع – نقاد السينما

كلمة ظهر الغلاف :

إنطلاقاً من التحليل النفسي لمدرسة جاك لاكان، يقوم الفيلسوف السلوفي سلافوي جيجيك بجولات واسعة في الأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والثقافة الشعبية والنكات .. الخ، لكشف الجانب اللاواعي والبدئي للمفاهيم والشعارات التي تشكل أطر التفكير في عالم اليوم المضطرب. متباعدًا عن الهستيريا التي سادت الغرب في أعقاب 11 سبتمبر، يستخدم جيجيك ثقافته الموسوعية في تفكيك الخيارات المفروضة على عالمنا ويبرز طابعها الاشكالي. يرفض مقولات "نهاية التاريخ"، و"صدام الحضارات"، موضحاً أن الرأسمالية أصولية وأن أمريكا كانت شريكة متواطئة في صعود الأصولية الإسلامية. والأهم أنه يبين زيف مطالبتنا بالاختيار بين "الأصولية" وبين "الديموقراطية" كأن البديل الوحيد "للأصولية" هو النظام السياسي لـ"الديموقراطية الليبرالية". من فلسطين الي أفغانستان وغيرهما من موضوعات "الحرب" المزعومة "على الإرهاب" تمثل موضوعات الكتاب الحالي، التي تهتم مجالا واسعا من القراء، مناسبة متميزة لنقدّم الي قراء العربية للمرة الأولى هذا المفكر الذي يُعدّ منذ عقود ألمع شارح للنظرية الثقافية وللتحليل النفسي الى حد تسميته "عملاق ليوبليانا" و"إفيس" النقد الثقافي.

